الباب الخامس

مرتفعات تهامة

٥ ديسمبر إلى ٣١ ديسمبر ١٩٣٦م

الفصل الرابع والعشرون

وادي بيش[١]

كان مرشداي عند وعدهما، فقد عادا في الوقت المحدد من عند دفء الوادي، إلى برودة المرتفعات حيث أكون، ولم نبدأ التحرك من المعسكر إلاَّ عند الساعة العاشرة صباحاً سالكين طريقاً منحدراً صعباً يهبط من عند الممر وقد قيل إنه يصلح لسير الجمال. يفضل معظمنا أن يسير على قدميه وأن يترك الحيوانات تهتدي إلى طريقها إلى أسفل غير مثقلة بأوزاننا. لقد قمنا باستبدال حمير استؤجرت من ظهران بجمال استؤجرت من سنحان التي أمدّنا بها دليم في الحوط[٢]، إلاَّ أنها كانت مخلوقات شديدة التحول مقارنة بجمال الصحراء. لقد عبرت الجمال هذا الطريق من قبل، ولذا فقد سلكته الآن بلا حوادث، مع الكثير من الصراخ المشجع من جانب السائقين. يتبع الطريق أول الأمر أخدوداً عميقاً في الصخر البركاني، وبه جانب صعب بمعنى الكلمة يقع على امتداد الرف الضيق، غير أن ظروف السير قد تحسنت، بعد أن عبرنا مسيل شراقب، من فوق سفح عشبي إلى أن وصلنا إلى بطن شعيب مجزع القرض الذي يقع حوالي (٦٠٠) قدم

---

(١) للمزيد عن وادي بيش انظر: البكري، **معجم ما استعجم**، مج١، جـ١، ص ٢٩٣، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، جـ١، ص ٥٢٨، محمد العقيلي. **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية. مقاطعة جازان.** (الرياض: منشورات اليمامة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م) ص ٦٢ ــ ٦٣ (ابن جريس).

(٢) الجمال والحمير كانت وسيلة المواصلات الرئيسة أثناء زيارة فيلبي جنوبي البلاد السعودية، وإذا كانت قد ظهرت السيارات فلا توجد إلاّ بعدد قليل جداً عند الأمراء والوجهاء في الحواضر الرئيسة مثل مدينة أبها وما شابهها. (ابن جريس).

تحت معسكرنا الليلي. لقد استغرق بحثنا عن هذا الجانب من الممر ما يقارب الساعة الكاملة.

كان الوادي الذي هبطنا إليه الآن يجري في اتجاه جنوبي، وهو كثيف الغطاء النباتي بما في ذلك أشجار التين البري (الأثب) وأشجار الطلح وأشجار العبال وجنبات من نبات العثرب وأنواع أخرى عديدة. وصلنا إلى قطعة أرض بوكسية (مغر) بارزة من فوق جلاميد البازلت وإلى ركام حجارة تقع من خلفنا. وصلنا بعد مسافة قليلة إلى الأسفل إلى ثقب ماء بياضه ويقع في منخفض رملي في وسط صخور مغر، وهو مشرب معروف بالنسبة للرعاة المحليين. لا يبدو أن هنالك أثراً للإنسان، إلى أن صرخ فينا قزم يشبه القرد، نصف عاري يقف عند صدع في الجلمود. لقد كان بلا شك يلحظ تحركاتنا باهتمام لبعض الوقت ويبدو أنه قد تعرَّف على مرشدينا. ويدور المسيل إلى أسفل قليلاً ناحية الجنوب الشرقي في مضيق كئيب لا يزيد عرضه عن (٥٠) ياردة من جلاميد داكنة عالية من الشست، دقيقة المسام ومرتبة عمودياً كأنها ألواح. بدأ غطاء نباتي من أنواع جديدة ينتشر، ويسود فيه التين البري. لقد كانت طيور السوَّادية تتغذى على ثمار التين، بينما أزعج وجودنا سكينة سرب من طيور الحجل بالقرب من تدفق مسيل صغير (حرة) من جهة الشمال، تقع قليلاً إلى أمام فم مسطح جميل لمياه الغيل يسمى مبرته. لم يكن المضيق هنا بأعرض من (٢٠) ياردة وقد سال الجدول بين سلسلة من البرك الصغيرة فوق بطن الوادي الرملية الداكنة اللون. قررنا أن نتوقف هنا لننال قسطاً من راحة الظهيرة إذ أن جمال العفش قد أدركتنا منذ قليل. وتحتاج هي بدورها لشرب الماء بعد إجهادها. لقد أمضيت الوقت مع توقعات حظي مع حصاد البندقية وشبكة صيد الفراشات وأنا أتجول بين أشجار التين وشجيرات اللافندر في

هذه المضايق وقد تمكنت آخر الأمر من إضافة طائر من طيور السوّادية وفراشة من نوع بابليودمالس إلى مجموعتي المتحفية.

وقد استأنفنا سيرنا بعد الساعة الثالثة بقليل عبر المضيق الصخري والجروف الساقطة التي ترتفع جوانبها من (١٥٠٠ ــ ٢٠٠٠) قدماً، وتخلل ذلك ظهور الأماكن التي يتسرب منها الماء، وبعض الرقع التي تكسوها أعشاب الحلفاء. وبعد ساعة من السير على الأقدام والتي خلالها اتصل مسيلان مع المضيق، في اتساع عند موقع تدفق كل من مسيل شعيب ضعن ومسيل سمحة من كلا الجانبين الأيسر والأيمن بالتتالي. تفتت الجلاميد على الجانبين إلى سفوح منخفضة لطيفة، وقد أصبح عرض الوادي الآن حوالي (٣٠٠) ياردة، والذي كان قد انحرف سريعاً وبعنف ناحية الغرب ليرافق شعيب رحا الذي كان قد اتصل من الجانب الأيسر على امتداد الحافة لسلسلة عثيث الضخمة. أصبحت أشجار العلب الآن في وفرة وأصبح الوادي معطراً بالأعشاب العطرية. كانت تعلو جانبه الأيسر سلسلة ريدان، وأصبح اسمه من عند هذا الموقع هو العين، بينما أصبح اسم الغيل الذي يدخله من عند رحا هو حلله. نقترب الآن من محطة الوصول النهائية، غير أنني دهشت حين رأيت في مسيل يدود الصغير الذي ينحدر من سلسلة ريدان بعضاً من المباني البسيطة الحجرية التي اتضح أنها ليست مأوى لمن هم على قيد الحياة بل هي قبب لمدافن تحت الأرض. لقد كان للموقع قداسته في أعين آل حيان، الذين مازالوا يحضرون موتاهم إلى هنا، حتى من المناطق البعيدة مثل صبيا ونجران.

يبدأ غيل العينة من عند هذا الموقع، وسرعان ما استقر بنا المقام في معسكرنا بالقرب من مجموعة أشجار ضخمة من السدر (العلب) والطلح وغيرها في مقابل فم شعيب الضبع الذي ينحدر إلى الوادي من جهة الجنوب، وكان ارتفاعنا هنا أقل

من (٤٥٠٠) قدم من عند ممر شراقب في قمة سعدي. كان التغيير الذي حدث في الطقس بين الموقعين -والذين تفصل بينهما مسافة (٣) أو (٤) أميال من أقرب طريق مباشر- ملموساً، فقد كانت أدنى درجة للحرارة ليلاً هي (٥٤) درجة. وكان من أكثر الأشياء جاذبية في العين هو موقعها ومظهرها المميز كواحة عربية. يجري الوادي الآن، على خلفية من جرف السراة المرتفع، بين سلسلة كل من عثيث - على الجانب الأيسر - وريدان، وكلاهما ينحدر إلى الخلف بلطف وعلى ارتفاع (٥٠٠٠) أو (٥٥٠٠) قدم فوق سطح البحر.

يكون الوادي بين هاتين السلسلتين وفم كل من رافدي يدود وضبع انبعاجاً معتبراً إلى ما يلي الممرات الضيقة التي دخلنا من عندها إليه، وبعض الشلالات على بعد ميل واحد إلى أسفل ناحية الغرب. كان اتساع الانبعاج عند أوسع مواقعه حوالي (٨٠٠) ياردة وقد احتلت طرفه الشمالي مزرعة من أشجار جميلة كان عمقها (٥٠) ياردة وطولها (٥٠٠) ياردة. ولا توجد مساكن دائمة في الواحة، غير أن بعض الرعاة كانوا يعسكرون بين الأشجار على قرب من الماء، الذي كان يتدفق محدثاً خريراً من عند العيون. لقد ذكرت الرقع الصغيرة من المياه التي قابلتنا في المرتفعات العليا للوادي، غير أنها هنا تكون غدراناً ذات خرير لم أر من قبل مثلها في الجزيرة العربية. كانت تجري فوق بطن صخري ضحل، وبين مروج من عشب الحلفاء والقصب حتى تغيب عند منحنى الشلالات التي قد ورد ذكرها. يعزى نمو أيكة الأشجار الجميلة هذه بلا شك إلى وفرة المياه غير العادية هنا غير أن استمرارية حياة الأشجار وبلوغها هذا الحجم لا بد له من سبب آخر. يعتقد أنها محرمة وذلك لقربها من المقبرة القبلية والتي كان العديد من قبورها مبعثراً فوق الأرض المرتفعة من خلف الأيكة، وكان معظمها بيضوي الشكل يرتفع

إلى قدمين، ومبنياً من حجر محلي، وأحياناً يزخرف بصفين من حجارة صغيرة بيضاء. كانت هذه بلا شك قبور لجمهرة الناس العاديين، بينما كانت الضرائح الكبيرة في يدود محجوزة للرؤساء وأسرهم.

رأيت ولأول مرة شجرة الابراه من بين الأشجار وهي تشبه كثيراً شجرة الكستناء بظلها المنتشر وبكل ما فيها. كان فوق أغصانها العديد من أعشاش أبو مطرقة، وكان العش بحجم ضخم ومظهر غير منتظم. وكان الطائر نفسه (Sco-pus umbretta) منتشراً بكثافة وهو يعود في المساء لعشه بعد أن قضى النهار في صيد السمك. ويطلق عليه العرب هنا اسم انقب الما أو بومه، وقد رأيت طائراً آخر مميزاً لهذه المناطق لأول مرة ويسمى عَجَلة (Lophocerus nasutus fors-kalii)، مشؤوم المنظر، له طيران كالشبح ومنقاره ثقيل مقوس وهو الذي أكسبه مظهراً ثقيلاً برغم كل جسمه الرشيق. كانت طيور الحجل توجد بوفرة أيضاً، وهي من النوع نفسه الذي يشاهد في الجبال وفي هذه الأثناء تمكنت من إضافة طائر السمنة إلى حقيبة العينات المتحفية، لقد كان يقضي الشتاء في هذا الطقس المعتدل بعد رحلة طويلة من الشمال البارد.

وصلنا إلى المعسكر الساعة (٥,١٥) وذهبت فوراً إلى موقع الشلالات في الجدول، حيث جلست على صخرة أتأمل المنظر وأنتظر غروب الشمس. غير أن المياه الجارية كانت مغرية جداً للدرجة التي لم أستطع فيها أن أكبح صبري أكثر من ذلك وأشبعت رغبتي في شربة طويلة باردة دون أن يشاهدني أحد[1]. وذلك قبل

(١) صحيح إذا كان أفطر في رمضان قبل حلول الإفطار دون أن يراه أحد من البشر، ولكن الله عز وجل يراه ويشاهده. (ابن جريس).

عشر دقائق من موعد الغروب! كانت تلك أول مرة أشرب فيها الماء خلال رمضان، وقد كانت المياه لذيذة. ثم اغتسلت وحركت رجلي ويدي في الماء قبل أن ألحق بزملائي لتناول الإفطار الرسمي، ثم أخذت حماماً ممتعاً في صباح الغد وقبل الساعة الثامنة في بركة تقع بين الشلالات نفسها. كان من أبرز المضاعفات لهبوطنا لهذا الارتفاع المنخفض هو أنني لم أستطع النوم بعمق خلال هذه الليلة الأولى. لقد كنت مشغولاً بكتابة مذكراتي وملاحظاتي حتى الساعة الواحدة صباحاً، حين ذهبت إلى سريري، غير أنني لم أنم إلاَّ عندما تجاوزت الساعة الثالثة صباحاً لأستيقظ بعد ساعة للسحور. ثم اضطجعت عند الساعة السادسة، إلاَّ أنني نهضت من السرير بعد نصف ساعة، وخرجت للبحث عن الطيور. لقد كوفئت بالتقاط منظر رائع لريدان، الذي يبرز من خلال أشعة الشمس الذهبية الشاحبة وهي تشرق، بزمن طويل قبل أن تبرز الشمس نفسها فوق القمم لتطل على معسكرنا من فوق حافة الجرف. واستمر هذا حتى الساعة (٨,٢٠) صباحاً.

بدأت مسيرتنا إلى أسفل الوادي حوالي الساعة التاسعة صباحاً. كانت طيور البلابل توجد بوفرة بين أشجار التين البري على الجوانب الصخرية للوادي، والتي كانت تكثر بداخلها ومن فوقها طيور الذعرة بمرح.

هبطنا خلال نصف الساعة نحو (١٥٠) قدماً إلى فم شعيب حرير الذي أقبل من عند الجانب الأيسر بين سلاسل كل من عثيث وأدن والأخير هذا معلم أرضي كنت قد لاحظته من عند العمود الحدودي من ممر علب. ثم واصلنا هبوطنا في اتجاه غربي بصفة عامة ومررنا بمساحات كثيفة من الحلفاء وعلى فترات. ثم وصلنا إلى فم مسيل أحده (حدا) وينحدر من تل ثروة في الجرف، والذي فيه سجل مرشداي رقعتين صغيرتين لمياه الغيل، هما سددة وكانت العليا ورنده وتقع

أسفلها. ويستمر الوادي من أعلى عينه حيث يلتقي بشعيب حرير على الجهة اليمنى من ريدان وشعيب المعراض حتى أدن على اليسار. ويبلغ عرض المجرى هنا (٥٠٠) ياردة وقد كان حجرياً وعارياً من النبات، غير أننا قبل أن نصل إليه كنا قد سمعنا العواء المألوف للقرود المحلية، ولقد وصلنا في الوقت المناسب لنرى فريقاً منها وهو يصعد سفوح حرير. ورأينا كذلك وسمعنا أنغام زوج من طيور العجلة، وكنا قد أدخلنا إلى صندوق العينات المتحفية بعضاً من الحمام الأخضر، وبعض الطيور النساجة حمراء الوجنات. وذلك خلال مسيرة اليوم. ثم وصلنا إلى أسفل إلى بركة ملحة الصخرية التي يغذيها نبع في قاعدة صخرة جرانيتية على الجانب الأيسر ويقال عنها إنها تكون دائماً مليئة ولكنها لا تفيض. وقد انتشر من فوقها الظل اللطيف لأشجار العلب، بينما كانت الأرض من حولها مكسوة بأشجار الباليتو. لقد كانت بقعة لطيفة. ويتصل شعيب نفض بمجرى العطف من عند كل من أدن ومسيل خبيرة الصغير من جهة اليمين وإلى ما وراء الأخير، وحرفي على اليسار، وكذلك من عند أدن. كما لاحظت أن كلاً من مرشدي السنحانيين عايض ومداوي -وقد قدمتهما للقارئ في قمة سعدي- ينطقان «ل» بدلاً من «ض» مثلاً «لرم» بدلاً من «ضرم» (الخزامى). ويسميان القرود أرباح أو قرود أو قرده[1].

تتصل مجموعات أخرى من المسايل مع الوادي إلى أسفل على ارتفاع (٤٠٠٠) قدم فوق مستوى البحر وهي مسيل عرم (من عند أدن)، وآخر من حرير (من ريدان) والجودلة على اليسار (من الحمة). ويقبل إلى أسفل هذه، مسيل نفض آخر ومسيلان باسم مليض أعلى جزيرة كثيفة الأشجار في وسط انبعاج عريض

(١) كما ذكرنا في حواش سابقة أن اللهجات المحلية في جنوبي البلاد السعودية بحاجة إلى دراسات علمية، حبذا لو التفتت الأقسام العلمية وأصحاب التخصص لمثل هذا الجانب من الدراسات. (ابن جريس).

للمجرى. لقد كانت هذه الجزيرة عبارة عن شبكة من شجيرات قصيرة وحشائش الحلفا مع العديد من أشجار العلب جيدة النمو، ويبدو أنها كانت مأهولة ببعض الرعاة. ولم يكن لي دليل على ذلك غير معزة واحدة. ثم وصلنا بعد ذلك إلى غابة حقيقية لنبات الحلفا الذي يرتفع إلى (١٥) أو (٢٠) قدماً مع العديد من أشجار العلب والأثب (التين البري) إلى جانب بعض أشجار الدوم وهي أول مرة أرى فيها هذه الأشجار في هذا الوادي[١]. يوجد في هذه الغابة مشرب نخله، غير أنني لم أشاهد الماء في بطن المجرى، والذي كان مبللاً ولعله هو مصدر القطع المائية التي لاحظناها، وقد وصلناها سريعاً وهي تنساب في جدول لمئات قليلة من الياردات، لتختفي فجاة كما بدت فجأة عند فم مسيل يسمى أضملة من جهة اليسار.

يتصل وادي مهرة العريض الكثيف الشجر الذي ينبع من سفوح ثروة، مع المجرى الرئيس والذي تغير اسمه الآن إلى الفرشة ويتسع ليصبح عرضه (١٠٠٠) ياردة ويكسوه غطاء نباتي ثري. كما ينتشر نبات الحلفا وكتل ضخمة من القصب وبعض أشجار الدوم فوق الوادي من هذا الجانب إلى الجانب الآخر تاركة مسافة صغيرة من المجرى لتحمل مياه الغيل الذي على امتداده سرنا لفترة، لنتوقف عند فم شعيب جع، الذي يقبل من جهة اليسار، وبعد فترة راحة امتدت ثلاث ساعات، وقد كنت نائماً في معظمها بعمق. لقد هبطنا الآن إلى ارتفاع (٣٧٠٠) قدم فوق سطح البحر. وكانت فترة الظهيرة شديدة الرطوبة، غير أن النسيم قد هب من عند الوادي في وقت لاحق، وكان من الممتع أن يستطيع المرء أن يغتسل

(١) شجر الدوم وغيره من الأشجار المتنوعة في أشكالها وأحجامها وفوائدها موجودة بكثيرة في جبال السروات الممتدة من بلاد صنعاء حتى الطائف. (ابن جريس).

في الوادي البارد دون أن يقلق على استنزاف مخزوننا من الماء. لقد شربت الجمال بشراهة حينما وصلت إلى هذا الغيل.

يقع جانبا الوادي إلى الخلف في سفوح لطيفة وكان المجرى الوحيد المهم الذي دخل إلى الوادي هو وادي النعام وينحدر من عند سلسلة عمث البعيدة التابعة لمنطقة بني بشر ناحية الشمال[1]. ابتدأت أعداد أشجار الدوم في الازدياد بين الحلفاء والقصب كما لاحظت أن زملائي البدو الذين يرافقوني قد التقطوا الثمار المتساقطة وأكلوها عند الغروب. كانت الثمرة غير شهية، وكانت تؤكل منها طبقتها الخارجية وذلك لأن المركز كان صلباً ومستديراً ككرة البلياردو ويستخدم في السودان في صناعة الزينة العاجية المزيفة. يقوم البدو بحرق الحلفاء في أجزاء كثيرة من الوادي لتقوية المحصول لمقاومة الرعي الربيعي لأغنامهم. كانت مياه الغيل منقطعة وظلت تظهر ثم تختفي أثناء اقترابنا من دلتا الحلفاء والأعشاب الأخرى، التي تكونت بارتطام وادي الحمة من عند السلسلة التي تحمل الاسم نفسه وتقع على يسارنا. وأصبحت أشجار الدوم في وفرة حقيقية في هذه الدلتا، تنمو هنا وهناك حول الدلتا في أجمات مغلقة.

يضيق الوادي فيما يلي الدلتا، وهو يتعرج ويتلوى باستمرار وبه جدول يجري في بطنه الذي تنتشر فوقه الصخور، وعلى جانبيه كوَّنت أشجار الدوم شارعاً جميلاً. يتصل المسيلان الكبيران وهما شوحطة (يسار) والحبرة (يمين) مع المجرى وهما متقابلان مع بعضهما في هذه المرتفعات المتعرجة، والتي قابلتنا فيها مجموعة من العرب وهم متجهون أعلى الجدول، وقد أفادونا بالخبر الذي يقول بوقوع غارة

(١) عشيرة بني بشر إحدى القبائل الرئيسة في بلاد قحطان ومشائخها أسرة آل ثقفان. (ابن جريس).

قام بهـا آل مسعـود ليلة الأمس على الريث في البلاد التي تـقع أمامنا. لقد غـير الوادي اسمه بالمناسبة من عند دلتا الحمـة وإلى أسفل، فأصبح اسمه اللحجة بدلاً من الفرشة، ويعادل ذلك مواقع نمو الحلفاء والقصب. لقد قرر المرشدون بأسلوبهم الخاص أين سيكون مـعسكرنا هذه الليلة غير أنه لم يقطع أمـر ذلك إلاَّ بعد مضي نصف ساعة بعـد الإفطار الذي كان عبارة عن جـرعات من الماء، حين وصلنا إلى مخيم للبدو فيما يلي فم شعيب الجفار إلى اليسار في أحمية ساحرة لأشجار نخيل الدوم، التي استـقر بنا المقام في وسطهـا لقضاء الليـلة. كنا على ارتفاع (٣٣٠٠) قدم فوق سطح البحر وكانت درجة الحرارة الدنيا أثناء الليل (٥٧) درجة.

كان معسكرنا فعلـياً على مسيل شلالة الصغير عند موقع الـتقائة مع اللحجة في أرض كل من آل حـوير وآل يزيد، تحت قسـم آل سريع قـحطان الذي يشكل شعيب الجفار حدوده الشرقية، كما أن بعض أجزاء الوادي تابعـة لآل حيان، أحد عشائر آل سـريع. ودفعنا لمرشدينا التابـعين لآل حيان أجرتهمـا مقابل خدمـاتهما المتواضعة وكـانت الأجرة ثلاثة ريالات لكل واحد منهما. كان عـايض مفيداً إلى حد ما، أما مداوي فقد كان جميلاً في غموض ومتنعماً وعديم الفائدة، ويبدو أنه يكره القيام بأي نوع من الإجـهاد. وقد عينت في مكانهـما رجلاً من آل يزيد من المعسـكر على الجانب المقـابل للجدول وكـان بعض ذويه قد زارونا وتناولوا مـعنا عشاءنا المتواضع الخالي من اللحوم.

بدأنا رحلتنا عند الساعة العـاشرة صباحاً (٧ ديسمـبر)، وكانت سلسلة ريدان لا تزال ترى من خلفنا، بينما اتجه الوادي ناحية الشمـال الغربي. كانت مياه الغيل تبدو لنا متواصلة لعدة أميال، وقد انتشرت أشجار الدوم على امتداد الجدول وعلى الجانبين. لـقد سرت على قـدمي معظم الطريـق، وكنت أمتطى الحـيوان من حين

لآخر لأجل التغيير. كان المكان بلا حياة بشكل مدهش لا يتناسب مع جمال الموقع، وكان كل ما لمحناه من بني بشر خلال المسيرة التي امتدت لأكثر من ساعتين، رجلاً شبه عارٍ وبرفقته كلب. لقد ازداد حجم قافلتنا وذلك بالتحاق عدد من الرجال والنساء من معسكر آل يزيد وقد كانت لهم أعمال في أسفل الوادي. سار الرجال بمرح، كانوا عراة إلاَّ من خرقة تستر العورة وهم يحملون بنادقهم عرضياً فوق أكتافهم من خلف أعناقهم، وكلا اليدين ممسكتان بعقب وبماسورة البندقية. لقد كان معظمهم مسلحاً ولقد شاهدت إحدى النساء وهي تحمل السلاح، وكان ذلك لتخفيف الحمل مؤقتاً عن أحد الرجال. ترتدي النسوة قبعات طويلة شبيهة بالسلال من القش للوقاية من الشمس. وكان بعضهن يرفع الجزء الأعلى من سماقهن الفضفاض الواسع، وهو كل ما كن يرتدين من غطاء، فوق قبعاتهن وذلك لأجل حماية أكثر. ثم مررنا في أحد المواقع بمنطقة من القرود جالسة بهدوء على جانب التل كانت تراقب تقدمنا إلى أسفل الوادي، لقد كان غذاؤها الرئيس في هذه الأرض هو ثمار الدوم والتين البري وبعض ثمار توتية أخرى.

لقد وصلنا إلى رافد مهم، وهو المسيل العريض المسمى سقامة، وذلك بعد مسيرة ساعة، مررنا خلالها بفم مسيل بعشة إلى اليسار، بعد أن تركنا كلاً من المعسكر وشعيب مخلفة على الجانب نفسه، الذي ينحدر إلى الجانب الأيمن من تل بكة البعيد. لقد اختفى جدول مياه الغيل بعد ذلك وبدا المجرى يدخل مضيقاً، به صخور عالية من شست يشبه الألواح وقد كانت كهوفها وشقوقها موطناً للعديد من الأرانب الأوروبية. يبدو أن الشست هو الصخر القاعدي الأساسي لكل هذه الأرض المرتفعة لتهامة، وذلك لأنني على ما أذكر، لم أر أي نوع آخر من

الصخور تقع أسفله، علماً بأنه يوجد الكثير من الجرانيت في المنطقة. لقد وصلنا إلى ثقوب مائية تسمى برد في وسط المضيق في أرض المجرى الرملية والذي كانت صخوره هنا عالية جداً، وشديدة الانحدار، وسوداء اللون جداً. لقد قابلتنا في هذا الموقع امرأة متقدمة في السن وجميلة جداً وذات صفات منحوته بجمال وقد تبادلت التحية والمزاح من قريبها، محمد أبو علي، مرشدنا، وهو رجل مسن قاسٍ إلى حد بعيد وصموت. كان مسيل برد الذي تشتق منه اسم الثقوب المائية ذا مجرى عريض ويدخل الوادي إلى مسافة قليلة فيما يلي الثقوب المائية. ويقال إنه ينبع من مرتفعات سلسلة وثران بعيداً إلى الجنوب. وكانت هنالك امرأة جالسة بمفردها عند زاوية الطريق وكأنها لوح من خشب أكثر منها إنساناً إلى أن وصلنا إليها.

يُكَوِّن مدخل وادي سقامة بعد مسافة، إلى اليمين وإلى ما وراء نهاية الممرات الضيقة انبعاجاً واسعاً وعشبياً للوادي وتحيط به أجمات أشجار الدوم. كانت أعداد القرود هنا كثيرة جداً، وبالمئات تلو المئات، ويبدو أنها قد توزعت إلى ثلاث فرق ولا يزعجها أمر وجود بني بشر. وكان هنالك قطيع ماعز كبير يرعى عند جانب التل وتقوم بقيادته امرأتان، ولم يثر الظهور المفاجئ لموكبنا حتى القرود. لقد تحركت إحدى فرق القرود، يقودها زعماؤها بمسيرة مماثلة إلى جانبنا وعلى مسافة محترمة لمرافقتنا على جانب التل.

واصلت مياه الغيل ظهورها فيما يلي انبعاج سقامة - تحت مسمى عين سودان - على هيئة جدول لطيف عريض يتموج في هدير خفيف فوق الحصا ثم يمر من خلال الشارع الجميل لأشجار الدوم الذي ينتهي عند موقع تدفق وادي اللحجة من جهة اليمين داخل رافد عريض ومهم أيضاً يسمى لحجة. ينحدر هذا

من تلال عمث في مقاطعة بني بشر ويكون التقاء مسيلي اللحجة خط الحدود بين قسم آل سرع وقسم ال جوب التابع لقسم آخر من قحطان، والذي يزعم أنه الأصل الأبوي لبني بشر في مرتفعات تهامة ولقبيلة عبيدة وقبيلة شريف في الجرف.

يسمى الوادي المشترك الآن رحا بدلاً عن لحجة، ويتوقف فيه مياه الغيل، مؤقتاً، لتظهر بعد مسافة (٥٠٠) ياردة إلى أسفل. كانت الأبقار متوافرة في هذه المنطقة، من عينة وكانت تشاهد على فترات، وهي ذات سنام صغير، ويبدو أنها وافرة اللبن. والأبقار أكثر وفرة في منطقة رحا هذه منها في أي موقع آخر. ربما بسبب اتساع المراعي الذي تسببه كثرة الروافد التي تدخل إلى الوادي من كلا الجانبين. لقد رفعت لي أسماء أكثر من (١٤) من هذه المسائل[١] كما رواها لي دليلي، خلال مسيرة ساعتين ونصف الساعة – لنقل (٦) أو (٧) أميال عن طريق الوادي الملتوي – غير أن أكثرها أهمية كان شعيب ضروة الذي يقبل من عند الجانب الأيمن على بعد نصف المسافة إلى أسفل، وهو ينبع من البعيد إلى الخلف في جبال بني بشر التابعة لعمث. لقد قابلنا القليل من الناس هنا وهناك، وكانت هنالك امرأة منفردة، ترتدي قلنسوة من القش، وهي ترعى الأغنام، وقابلنا مجموعات صغيرة من رجل أو رجلين وهم يجلسون عاطلين بجوار الجدول تحت النخيل، بينما ترعي ماعزهم بجوارهم، وقابلتنا مجموعات من حين لآخر من القرود تكاد تكون إنسانية في سلوكها الرصين. ثم بدأ نسيم قوي يهب عند الظهيرة، وقد أدى ذلك إلى تلطيف الأجواء على الرغم من نعاس رمضان الذي

(١) على الجانب الأيمن: رحا، وحسين، وظل الحص، وضروة، ومضو (تنطق مللو)، والمناخ، والمجنب، وشقرة. وعلى الجانب الأيسر: ضرة، وضروة، وضروة السفلى، وضراية، وفضحو، ويقع ثيحو أسفل معسكرنا. (المؤلف).

كنت أقاومه حتى الساعة الثانية ظهراً على أمل أن نحرز تقدماً في السير أكثر مما قد أحرزناه. قررنا أن نتوقف - على أي حال - للراحة في بقعة ظليلة والتي منها ابتعدت مجموعة من القرود في هدوء ونحن نتقدم نحوها. لقد نمت هنا بعمق لمدة ساعتين ثم أخذت حماماً منعشاً في المياه الجارية قبل أن نواصل المسيرة.

أصبح منظر أشجار الدوم، على الرغم من سحره، مملاً داخل المسافة المحصورة للوادي. والذي حددت سفوحه الشديدة الميلان مجال الرؤيا. غير أن المنظر تغير سريعاً مع اتجاه الوادي ناحية الجنوب الغربي، فقد بدأنا نشاهد جانباً من الكتلة العظيمة لجبل الريث التي تقع أمامنا وتقع سلسلة دفا المنخفضة أمامه على امتداد الجانب الأيسر لوادي دفا، وهو الشريان الصرفي الرئيس لجبال الخولان (تهامة)، ذلك لأن وادينا هو النسخة القحطانية المقابلة. يدخل مجرى وادي بيش العريض، على الجانب الآخر من على بعد نصف ميل بعد بداية سيرنا، ووديه الجاري وأشجار الدوم التي تحفه، عبر مروج الحلفاء، إلى الوادي من عند منبعه البعيد في الأطراف البعيدة لتمنية بالقرب من أبها. أدت هذه الزيادة في القوة لاندفاع الجدول في هدير فوق البطن الحصوي العريض الذي تحفه على اليسار كتلة عظيمة من صخور شستية ملساء سوداء ومنغرسة عند زاوية (٤٥) إلى (٥٠) درجة، وعند طرفها البعيد يتصل وادي دفا نفسه مع رحا في دلتا عريضة يكسوها نبات الحلفاء ونبات القصب، وتجري خلالها مياه الغيل وكأنها النهر والتي كانت تلهو عليها أسراب عديدة من طيور الماء إلى أن تسببنا في إزعاجها. ويُكَوِّن التقاء المجريين الرأس الحقيقي لوادي بيش[1]، والذي يجري من هنا كوادٍ عريض مع

(١) لمزيد من التفاصيل عن وادي بيش وفروعه وسكانه انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٨٢ ــ ١٨٩ . (ابن جريس).

الجدول المدعم له وهو يحتضن الجلاميد الشستية على الجانب الأيسر، بينما يكون الحرف على الجانب الآخر، علامة أرضية بارزة ومن حولها يتجه الوادي ناحية الشمال الغربي. ويهبط سطح حصوي عريض من هذه العلامة الأرضية إلى شريط كثيف من أشجار الطلح والدوم على امتداد الجانب الأيمن للجدول الفعلي. كانت الأحوال هنا، وخاصة منظر طيور الماء، أكثر إغراء لنا، ولذا عسكرنا على السفح الجبلي لقضاء الليلة.

كان ارتفاع رأس وادي بيش عند ملتقى كل من رحا ودفا حوالي (٢٢٠٠) قدم فوق سطح البحر. وكانت درجة الحرارة عند الساعة الثامنة صباحاً ٧٩ درجة. وكانت الدرجة الدنيا للحرارة ليلاً (٦٥) درجة، ويصعب على المرء أن يصدق أننا كنا قد تعرضنا لبرد شديد قبل ثلاثة أيام فقط. كانت مسيرة النهار شديدة الحرارة، وكانت هنالك نسبة عالية من الرطوبة في الهواء، والتي تسببت في تكوين ندى كثيف أثناء الليل[1]. كان كل شيء ينز بالماء في صباح الغد، وكان علينا أن ننتظر طلوع الشمس لتجفف لنا الأسرة قبل أن نطويها للسفر. كان هنالك الكثير من المياه السطحية في هذه الأرض – للأسف – مما حدا بطيور الماء التي لاحظناها حين وصولنا أن تظل بعيدة عنا. لقد كانت حقيبتي المتحفية مخيبة للآمال أيضاً، على الرغم من أنها احتوت على ثلاثة أنواع من البط وفرد واحد من دراسة الصخور دون الحديث عن طائر العجلة الذي أصبح مألوفاً، إلى جانب عينة من نقار الخشب الذي لم أكن أتوقع وجوده عند هذا الخط العرضي المنخفض. لقد كان هو الطائر الوحيد الذي رأيناه وربما يكون قد ضل طريقه من الهضبة، برغم أنه لا

(١) لمعرفة مناخ تهامة، وكذلك الأجزاء الغربية من جبال السروات انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٣٧، وما بعدها. (ابن جريس).

يوجد ما يؤكد أنه طائر أراضٍ مرتفعة فقط. لم ترجع طيور مالك الحزين والطائر المخوض التي كنا قد رأيناها، مرة أخرى للمكان، غير أنني رأيت في الصباح الباكر ما بدا لي وكأنه خمسة من طيور اللقلاق، وهي تقف في صف على قمة صخرة عالية على الجانب الأيسر للوادي. لقد اختفت كلها سريعاً ولم أعد أراها بعد ذلك. أدهشني أنه في بلاد وافرة المياه كهذه، لا توجد إرهاصات تدل على محاولة للزراعة من أي درجة كانت، في كل هذا الوادي، من عند عينة إلى أسفل، غير أنه قيل لي إن التربة هنا ضعيفة. كان الغذاء الرئيس لهؤلاء الناس هو لبن الأبقار، واللحم من حين لآخر، وغالباً لحم الضأن أو الماعز. كما أنهم لا يأكلون في مجموعات عكس ما يفعله عرب الصحراء.

قرر عايض، ذلك المرشد الذي كنت قد دفعت له أجرته في معسكر شلالة، أن يظل معنا لكي يرى أكثر عن العالم. لقد جاء دور محمد أبو علي لكي أدفع له أجرته ويذهب في حال سبيله، وفي مكانه لحق بنا رجل من آل جوب اسمه جابر، ويتبع لأحد عشائر قبيلة آل حسن، وذلك لصحبتنا للمرحلة التالية من الرحلة. كنت أعتقد أنه قد التحق بنا لرغبته في رؤية بعض الأصدقاء والأقارب أسفل الوادي، والذين حمل إليهم جدياً تمت ولادته حديثاً أثناء سيره بجوار الجمال. يرتدي جابر ملابس عبارة عن إزار قصير جداً، وحزام للخراطيش البندقية ثلاثة أرباعه فارغة، وإضافة إلى، البندقية. كان رجلاً قصيراً غير أنه متين البناء وصوته هادر عميق وكان يستخدمه في انطلاقات مختصرة مثل «أى» و «لا» إجابة عن الأسئلة التي توجه له ونادراً ما يبادر بالحديث. لقد استمعنا للقرود وهي تنادي بعضها بعضاً خلال الليل كما لا بد أن يكون هنالك معسكر للرعاة في الجوار وذلك لورود مئات الرؤوس من قطعان الماعز إلى موقع الماء وذلك قبل أن تبدأ

رحلتنا، ومنها عادت إلى مراعيها في التلال وهي مكونة منظراً رائعاً في تسلقها بجهد في مجموعات، مع إيقاع تساقط الحجارة من عند الصخرة السوداء الشديدة الانحدار.

لقد قابلتنا إحدى نسائهم الراعيات على مسافة إلى أسفل الوادي، وكانت امرأة شابة وجميلة، وفي عمر الزواج، ولكنها لم تتزوج بعد، كما قال جابر، والذي تصله بها قرابة بعيدة. لقد كانت فتاة مكتملة النمو والبناء ذات ابتسامة ساحرة وعيون ضاحكة لامعة، كانت ترتدي القبعة المألوفة المصنوعة من القش وترفع قناع الموسلين بعيداً عن وجهها. كانت ترتدي زياً يتكون من قطعتين، بدلاً من السمق العادي، من ثوب أعلى يتصل عند العنق ويتدلى في فضفضة إلى أسفل ومن الخلف ويكون الجانبان مكشوفين، ومن قطعة قماش ملفوفة حول خاصرتها ومطوية على الجانب. لقد كنت متمكناً من ملاحظة هذه التفاصيل وذلك أثناء مرافقتها لجابر لفترة، وهما يسيران بجوار جملي إلى أسفل الوادي تجاه السور الواقي العظيم لجبل الريث. وبدا لي هذا الجبل وكأنه من صخر رملي وربما كان من الجرانيت، وكانت كتلة كبيرة منه قد انتصبت عمودية إلى ارتفاع (٥٠٠٠) أو (٦٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، وفي وسط الشست وفوق الأرض المحيطة. ينتمي سكان الريث إلى قسم خولان. وتنفصل أرضهم عن آل سريع (قحطان) بواسطة وادي دفا، وتنفصل عن الجوب (أيضاً قحطان) بواسطة وادي بيش من عند موقع الالتقاء وإلى أسفل، ويمتد آل جوب إلى وادي أبخ الذي يدخل بيش على بعد ميلين إلى الأسفل من عند فم دفا، ويقع منبعه في كتلة تمنية.

كان الوادي أسفل معسكرنا ممتلئاً بشجيرات نبات الشار وبأشجار الرين صفراء الأزهار، وهي منتشرة جداً في سفوح تلال مكان، بينما استمر شريط أشجار

الدوم بلا انقطاع بين الجلاميد العالية التي تساعد على تضخيم أقل صوت. فمثلاً، يكون لصوت حركة احتكاك أحد الجمال على جذع شجرة الدوم على مسافة ووراء موقعنا حين يرده الصدى إلى أسفل الوادي، كأنما هو طلقة نارية قد أطلقت، وعندما استخدمت بندقيتي كان صوت الصدى كالرعد. يمتد الوادي إلى أسفل بين جلاميد كبيرة كأنها الغدير، ثم فجأة يفسح الشست المجال للجرانيت ليتخلله. كان الصخر يميل على درجة (٤٥) وقد احتل كلا جانبي الوادي، غير أن الشست كون خلفية له على الجانب الأيمن وبدأ وكأنه يغطي أجزاء منه وكأنما انقلبت الكتلة المتصدعة رأساً على عقب فوق موقعها الأصلي. كانت قاعدة جبل الريث جرانيتية في وضوح، غير أنني لم أقطع الشك إن كان الجزء الأعلى منه هو صخر رملي أو هو من الجرانيت. ويطل جانبه الشرقي على المجرى الرئيس الصرفي الداخلي للمنطقة وهو وادي رنقة الذي كان فمه موعد لقاء جابر مع شقيقه لاستلام الجدي. ولم يصل شقيقه، غير أننا دعونا إلى وقفة إلى حين وصول الشقيق ولمدة نصف ساعة وقد وظفتها بفائدة بنشاطاتي في البحث عن الحشرات خاصة الفراشات العديدة التي كانت تطير فوق الوادي العطر. ويبدو أن ثمار الدوم المتساقطة المتحللة هي الأكثر جاذبية للفراشات وكذلك الطين الرطب بجوار الوادي. هبط على مسافة قليلة إلى أسفل الصدع المحدود الأهمية والذي يسمى أم لجة، إلى بيش من على الجانب الأيسر وعبر انحدار رائع يتكون من ثلاثة أجزاء والذي بجواره، وفي داخل كهف مظلل في جوف الصخرة الجرانيتية شاهدت رجلين وعدداً من الأطفال وكلهم عراة تماماً وهم ينظرون إلى ناحيتنا. وفي أثناء مرورنا تحصلت على أحد طيور مالك الحزين من هذا المكان وقد كنت قد رأيت الطائر من قبل في ملتقى دفا.

وصلنا إلى نهاية الجرانيت على مسافة الميلين من عند أم لجة، وقد استعاد الوادي معطفه الشستي وسط صخور شديدة الانحدار. كان الوادي يتجه ناحية الشمال الغربي بصفة عامة وتقع كتلة ثريان العالية أمامه في حين يدخل على الجانب القريب منه وادٍ آخر بالاسم نفسه إلى وادي بيش من عند تمنية. يقع السور الواقي العظيم المسطح القمة جبل الريث إلى الخلف قليلاً من موقعنا ناحية الجنوب، غير أنه لا يزال يحجب كل شيء في الجوار، وهو جبل عظيم بحق يرسل العديد من المسايل إلى أسفل حتى تتصل مع وادي بيش عند منحنى عريض ناحية الغرب. ثم مررنا هنا بأول المناطق المأهولة بالبشر في هذا الوادي، ولقد كانت مجرد مجموعة من عشش صخرية منخفضة، بعضها لم يزد حجمه على حجم خيمة معسكر مؤقتة. لقد كانت العشش على أي حال مأهولة. ثم مررنا على مسافة قليلة إلى أسفل بامرأة أخرى جميلة جداً وهي تستحم في الوادي تكسوها ملابس شحيحة، إلاَّ أنها كانت مغطاة بحشمة. لقد كان الوادي متخللاً بالعديد من البرك العميقة الممتلئة بالأسماك الكبيرة، غير أن الرمال هنا كانت خطرة وكثيراً ما تغوص تحت وطأة وزن جمالنا. كان لون الرمال رمادياً أسود. ثم دخل عدد من المسايل إلى الوادي الرئيس على فترات ومن كلا الجانبين، ويبدو أن الجرانيت الذي ظهر مرة أخرى هنا كان مختلطاً مع صخور الشست وكان يقع حقيقة أسفلها.

يحمل الوادي الاسم المحلي الفيض، من موقع دخول شعيب شرحان، وترافقه كتلة ضخمة من أشجار الدوم خاصة عند فمه على يمين الوادي، ويبدو أنه منحصر في انبعاج محلي يحتوي على غابة حقيقية للدوم كأنها واحة، إلى جانب حقول عظيمة للحلفاء. وقررنا التوقف هنا لأجل الراحة بضع ساعات ويمتد أمامنا

منظر جيد لجبل الريث، ناحية الجنوب الشرقي وتمتد مستديرة إلى الجنوب في سلسلة منفصلة مزدوجة القمة تسمى قرشو، التي كانت سفوحها الخارجية تكون بالفعل الجانب الأيسر لهذا القسم من بيش (أو الفيض) لمسافة تليه إلى أسفل. ظهرت لنا أيضاً قمتا تمنية من ناحية الشمال الغربي من أعلى وادي ردوم ووادي العوراء اللذين ينحدران من كتلتهما إلى بيش إلى مسافة إلى الأسفل. لقد تكوَّن الجانب الأيمن لعورا قريباً من موقع دخوله، بواسطة سلسلة جبال بيد العالية. لعل النطق لحرف «و» الأخير في كلمات قرشو وردوم يقصد به «ي» قرشي وردمي وهو لهجة محلية. ومن غرائب لهجتهم إدغام المقاطع الأخيرة من بعض الكلمات، مثلاً، «آل الشا» بدلاً من «آل الشام» و«ذللي» بدلاً من «ذا الليل»[1]. لقد تكاثرت الآن طيور الشقراق الإثيوبية الجميلة في مزارع الدوم وقد استطعت أن أتحصَّل على أولى عيناتي المتحفية لها أثناء توقفنا عصر هذا اليوم. لقد كانت بالطبع من أكثر طيور تهامة عسير شيوعاً، وتنتشر إلى البعيد إلى ساحل القنفذة، وليس إلى ما يلي هذا الموقع.

لقد لفت انتباهي عمود صغير، وذلك بمجرد أن بدأنا مسيرتنا، وهو مبني من حجارة بيضاء، الواحد منها فوق الآخر، قائمة على طرف جلمود. لقد كان تقليد محلي أن يقام نصب تذكاري لقتلى الحروب القبلية - أصبح هذا التقليد مثبّطا الآن ومهجوراً - ولا يقام النصب التذكاري على موقع سقوط الضحية القتيل، ذلك لأنه قد يكون قد تمَّ قتله وهو يتحرك أعلى أو أسفل الوادي، ولكنه ينصب حيث أختبأ العدو القاتل الذي قام بإطلاق الرصاصة. لقد كانت الحرارة شديدة في

(١) لهجات سكان تهامة تختلف كثيراً في مخارج الحروف وتركيبها عن سكان أهل السراة، ولكن كما ذكرت سابقاً أن لهجات هذه البلاد (تهامة والسراة) جديرة بالدراسة والتحليل. (ابن جريس).

الوادي أثناء فترة الظهيرة، ولكن سرعان ما هبَّ نسيم جنوبي غربي بمجرد بدايتنا للمسيرة، وكنا حينها نعبر أفواه العديد من الروافد والمسايل على الجانبين إلى أن وصلنا إلى موقع اتَّصل فيه شعيب لحج آخر[1] مع الوادي من جانب الريث إلى الجنوب الشرقي. قررنا أن نعسكر هنا في منبعج واسع تكون بواسطة هذا الرافد المهم وعند التفاف ثعباني للوادي الرئيس، ويمتد أمامنا منظر كامل «لأعمدة القتل» التي إما أنها كانت لذكرى كمين كبير أو مصيفاً مشهوراً لرجال قبائل يهوون المتاعب. وقد تحول اسم «الفيض» مرة أخرى إلى بيش وذلك من عند فم العوراء وإلى أسفل.

كان الارتفاع هنا ١٦٠٠ قدم فوق سطح البحر، وأفرزت الليلة التي كانت درجة الحرارة فيها ٦٦ درجة، نسبة عالية من الندى. كانت أرضية الوادي هنا بالتأكيد من الجرانيت، غير أن الجلاميد كانت لا تزال من شست داكن ما عدا الأجزاء السفلى. كان الجزء المبكر من المساء عاصفاً، ذلك لأنه ومنذ الغروب بدأت رياح قوية تهب على السفوح المجاورة وحول منحنى الوادي، غير أنها هدأت في وقت لاحق وكانت الليلة ساكنة بما فيه الكفاية، ما عدا إزعاج الضفادع التي يبدو أنها كانت متوافرة بكثرة في هذا الملتقى المائي، وقد واصلت الضفادع نقيقها حتى غلبني النوم بعد سهري العادي الليلي مع أعمال المزواة وكتابة الملاحظات. لقد وقع معظم زملائي منذ لحظة وصولنا إلى عينة بإغراء الماء الوافر لهم، وكان صيام رمضان خلال الأيام القليلة الماضية قد تمَّ الالتزام به ليس بإطاعته وإنما بخرقة.

---

(١) دخلت إلى بيش، ما بين فم دفا وفم اللحجة، ما لا يقل عن (٢٥) رافداً هي: الجانب الأيمن: أبخ، وثريان، وحرشو، والفرع، وشرحان، وردوم، والعوراء، وملتف، وثلثين والقرًا. ومن الجانب الأيسر: صلاح (مسيلان) وروايح، ورنقه، ولجة، واوسط (ثلاث مسائل) وحيلة، ورشدة، ومشامة، والنقيل، وعتية، وغرف، ورجل. (المؤلف).

ويبدو أن الأهالي المحليين لا يأخذون الصيام مأخذ الجد، إذ إنهم يشربون متى ما أحسوا بالحاجة لذلك[١]. لم يكونوا يشربون من المياه الجارية، بل كانوا يحفرون الرمل للحصول على بركة طازجة وماء أشدّ برودة، وتراهم وقد انبطحوا أرضاً يلعقون السائل بشفاههم، يحمل النسوة أواني القرع ويشربن منها. لقد توقف القائمون على رعي الجمال عن الصيام، وهم رجال من الحوط، كانوا قد صاموا فوق الهضبة مع ذويهم، كما منح سعد نفسه رخصة إفطار المسافر في شهر رمضان. ولقد حافظ على الصيام حقيقة كل من فرج، وابن هذيل - وهو طباخنا النجدي والذي يساعد في كل شيء - بالإضافة إلى اثنين من رجال الجمال وشخصي، كما بقيت من الشهر أيام قليلة.

رافقنا في هذا المعسكر شخص آخر اسمه جابر أيضاً، وهو من ناحية النسب خال لأحد مرشدينا، وبالرغم من أننا سنختار مرشدين جدد في كل أرض تابعة لقبيلة مختلفة، فقد قرر مرشدانا السابقان أن يظلا معنا، وقد ذكر جابر - مرشدنا السابق - أنه لم يغادر إلى خارج بلده لأبعد من قرية الحقو، وهي أولى قرى سهل تهامة الحقيقة، بالقرب من الموقع الذي ينبعج فيه وادي بيش وهو ينحدر من المرتفعات. كانت سلسلة بيض الممتدة على مجرى العوراء هي الحدود الغربية لجوب. ينتمي الجانب الأيمن لبيش من هذا الموقع وتجاه الغرب وأراضيه المرتفعة إلى قسم آل الشام (بنو معراج، وبنو مأجور وعسكر وأقسام أخرى)، وينتمي قسم شحران لأرض تمنية، والذين يكوِّنون فرعاً جانبياً لبني شحر الذين يتمركزون في

(١) هذا تعميم خاطئ لأن ما يقوم به بعض الأفراد لا يعني أن الجميع كانوا يقومون به، كما أن الجهل الديني ربما كان منتشراً بين كثير من الناس؛ لهذا فهم لا يدركون خطورة ما يفعلون. (ابن جريس).

الشمال من أبهـا في جبال السراة[١]. يقع الجانب الأيسر لبيش، وأراضـيه المرتفعة حتى الحقو نفسهـا ناحية الغرب - من عند دفا إلى أسفل - وداخل أراضي الريث التابعين إلى آل خزيم وآل حسن، وغيرهما من الأقسام.

كان مرشدانا الجديدان قد حضرا لمقابلتنا هنا بعد تعينهما بتوصية من دليم ابن دليم، ويتبعان أصل الريث، وهما بالاسم: يحـيى بن مسرع وهو شيخ آل خزيم، وموسى بن حمدان[٢]، وهو شيخ آل حسن. كان موسى مميزاً وعلى الرغم من أنه رجل بالغ في السن وله لحية وكل ذلك، إلاَّ أنه لم يكن مختوناً. إن تأخير الختانة هو التقليـد المتبع بين قبائل تهـامة وهم يعتبـرون عملية الختـان اختباراً للشـجاعة الشخصية والاحـتمال، ويحتفلون بها في مواكب عظيمـة وتشريفات. ولا يتزوج الرجال إلاَّ بعد ختانهم وللعـروس المختارة الحق في رفض الرجل الذي يحجم عن هذه العملية، والتي كانت ذات طبيعة قاسية وأكثر الأعمال وحشية. يشتمل الختان في هذه القـبائل على إزالة الجلد مـن عند المعدة من جـانب إلى آخر إلى مـا يلي السرة ثم على جانبي الوركين وما بينهما بنزع الجلد منها كلها وتكون البقعة المتأثرة بهذا هي المعـدة، الحوض، والقضيب، والصـفن، وأسطح الأرجل الداخلية والتي تكون كلها مسلوخة. إنهـا حقيقة عملية سلخ جـزئي لكائن حي ويقال إنَّ العديد من الشبان يستسلمون لهذه العملية. لقد منعت الإدارة السعودية هذا العمل بصفته من مخلفات العصـر الوثني القديم، وهو أمر مخالف لتعـاليم الإسلام غير أنه في هذا الوقت، لا يزال يطبق وبدقة، وسيستغرق الأمر وقتاً طويلاً للتخلص من عادة

(١) لقد خلط فيلبي بين شهران وبـني شهر عندما قال:ـ «قسم شهران لأرض تمنية... يكونون فـرعاً جانبياً لبني شهر»، وهذا غير صحيح؛ لأن قبائل بني شهر المنتسبة إلى حجر بن لهنوء الأزدي تختلف في نسبها عن شهران التي تنسب في قبائل خثعم. (ابن جريس).

(٢) موسى بن حمدان ربما أن اسمه موسى بن همدان. (ابن جريس).

تعمَّقت في التقاليد القبلية[١]. يتطلع موسى لتجربته الشخصية لهذه الطقوس الوحشية وكل أمله أن يجعل فتاته فخورة به.

وقد لاحظت أمراً آخر بين هؤلاء الناس، وذلك أنهم يلجؤون إلى محاكاة أصوات الحيوانات للفت الانتباه في مناداة الأصدقاء الذين يصلهم هذا الصوت. أطلق جابر مثلاً أثناء سيرنا وعلى فترات، صوتاً يحاكي صوت طائر البوم، كما سمعت صوتاً آخر خلال هذه الأيام يحاكي الخشخشة أو البقبقة يكرر ثلاث أو أربع مرات. كانت البندقية التي يحملونها هنا من النوع الإيطالي المعروف والذي يسمى أبو كسوة، والذي يشبهون علبة ذخيرته خماسية الخرطوش بكيس الصفن لعضو الذكر، كما يعكس الخيال المحلي. تستعمل هذه البنادق بكثرة في اليمن ويمكن الحصول على واحدة في هذا الوقت بسعر (٣٠) ريالاً.

خلال الساعتين الأوليين من بداية مسيرتنا - لنقل خمسة أميال داخل الوادي - صباح اليوم التالي (٩ ديسمبر) كون السفح الشديد الانحدار لكتلة بيض الجانب الأيمن لبيش، الذي تباين عرضه بين (١٠٠) و(٢٠٠) ياردة، وقد تشرح على جانبه الآخر بالمرتفعات العالية البعيدة لنظام جبل الريث - بما في ذلك القمَّة العالية لجبل صماد - الذي كان رأس مسيله يتكون مما لا يقل عن (١٨) رافداً[٢] لبيش

(١) كان في أجزاء عديدة من جنوبي البلاد السعودية العديد من العادات السيئة، وإلى عهد قريب، ولكن مع انتشار التعليم الديني والثقافي بدأت تختفي قليلاً قليلاً، حتى صارت لا توجد إلاّ في المواطن الوعرة والموغلة في الصعوبة. ولا زال هناك حملات دعوية من مراكز الدعوة والإرشاد، وكذلك من المؤسسات التعليمة لاجتثاث تلك العادات وبخاصة ما يتعارض مع الشريعة الإسلامية السمحة. لمزيد من المراجع التي ذكرت بعض تلك العادات، انظر: فؤاد حمزة. **في بلاد عسير**، ص ١٢٥ وما بعدها، محمود شاكر. **عسير**، ص ٦٢ ــ ٧١ (ابن جريس).

(٢) هذه الروافد هي: قنا (مسيلان)، وحلوة، وخبرة، وزهوة، وخبير، ويحاضر، ومواجي، وعده، وقوارة، وقوار، وطلبير (وادي كبير) ومسمة، وورثة، وحضلو، ويخرف، ومسيلان تسميان غليفة (المؤلف).

تنحدر إلى أسفل إلى حيث مقر معسكرنا للمساء المقبل عند مشقة، التي تقع قليلاً إلى خارج السفوح المجاورة لسهل تهامة. وقفت كتلة بيض سداً منيعاً أمام مصرف تمنية، والذي كان يغذي الوادي الرئيس عبر جانبه الأيمن، غير أنه يمون كذلك ما يزيد عن النصف من الروافد الثانوية بما في ذلك بيضو[١] وهو أكبرها وأولها. انحدرت الروافد، فيما يلي الجزء الغربي لسلسلة تمنية بما في ذلك الجبلان العظيمان وهما يدا وواعر.

كما كان هنالك ما لا يقل عن (١٤) من هذه الجبال تقع بين الطرف الغربي لبيض ومشقة[٢]. ولقد كان البطن الضيق للوادي في الجزء الأعلى (بطول ٨ أو ٩ أميال) مكسواً بنبات الحلفاء في غزارة، وغطاء نباتي آخر، إلى جانب أشجار الدوم التي كونت في بعض الأجزاء أجمات كبيرة. ثم بدأ الوادي يتسع إلى عرض (١٠٠٠) ياردة بين تلال تنخفض تدريجياً، ليصل ارتفاعها إلى (٥٠٠) أو (٦٠٠) قدم وكنا نحن نقترب من طرف السهل، غير أن الغطاء النباتي ازداد كثافة مع اتساع الوادي وظلَّت أشجار الدوم واقفة في خطوط كثيفة على جانبي السهل الأوسط حيث نبات الحلفاء مع الكثير من نبات الشار وغطاء نباتي آخر والذي ينتشر من خلال تعرج الجدول بين ضفتين رمليتين منخفضتين. انحدرت العديد من الروافد عبر أفواه قد خنقتها نباتات الحلفاء وأشجار الدوم لبعض المسافة. لم نسمع أو نر الكثير عن القرود خلال يوم أمس في الممرات الضيقة، غير أنها ظهرت إلى أسفل، في السفوح الكثيفة الأشجار في الوادي المتسع، ونادراً ما كنا بعد ذلك

(١) كانت بقية الروافد هي وانسل (مسيلان)، وعجيرة، وضنبة، وشضيبة. (المؤلف).

(٢) هي بالاسم: ركان، ويسرة، ورجة، وحريثة، وصريث، ورثمة، وبعو، وأبو القمعان مخيرف، ورفضه (واديان) وملحة، وحسارة ومسيلان أيضاً. (المؤلف).

بعيدين عن مدى سماعها أو رؤيتها. ولقد كانت رائحتها قوية برغم وجود النباتات العطرية التي كانت أسراب الفراشات تحلق بكثافة حولها.

كانت الحياة البشرية تدب بصورة متقطعة. فقد مررنا بقطيع كبير من الأبقار والجمال بعد بداية مسيرتنا بقليل، وهي تقاد ناحية مرعى باتجاه أعلى الوادي، ومن خلفها امرأة تسوق جملاً محملاً بكل مستلزماتها المنزلية. ثم أقبلت امرأة أخرى بعدها من ورائها وهي تحمل رضيعها في مهد مصنوع من جلد البقر وقد عُلِّق من فوق كتفيها وعلى ظهرها. كما مرَّت بنا امرأة، وذلك أثناء توقفنا القصير لجمع الفراشات والطيور التي نتج عنها الإمساك بأول عينة من وقواق تهامة، وكانت هذه المرأة في طريقها مع اتجاه أسفل الوادي في صحبة زوج من الجمال. لم تذهب بعيداً بل جلست بجوار الجدول لتشرب من القرعة التي كانت تحملها ولتغتسل. كانت قد اكملت وضوءها حينما واصلنا مسيرتنا فإذا بها تلتحق بعفوية مع قافلتنا، وهي تمشي مجهدة بجانب جمليها وتشارك في محادثة متقطعة مع مرشدينا. لقد كانت تحمل قرعة وزوجاً من صندل مصنوع من الحصير (القصب) في يديها، وكانت تسير حافية متوشحة مئزراً يصل إلى قدميها مطويّاً عند الخاصرة. كان الشال ساقطاً على كتف واحد تاركاً الكتف الآخر عارياً، غير أنه كان يغطي ثدييها تماماً ومعظم ظهرها. كانت المرأة تلبس على رأسها قبعة من القش مغطاة بقطعة من الصوف البني، التي بدورها كانت مغطاة بقناع موسلين أسود. لم تكن المرأة صائمة بالتأكيد وذلك لأنني كنت قد شاهدتها وهي تشرب، واعترف مرشداي بأنهما لا يلقيان بالاً لرمضان[1].

(١) عدم صيام المرأة ليس دليلاً على عدم اكتراثها بالصيام، بل قد يكون لها عذر شرعي يبيح لها عدم الصيام مع أننا لا ننكر أن الجهل الديني كان متفشياً بين الناس، وذلك لقلة الدعاة وطلبة العلم الذين يفقهون الناس في أمور دينهم. (ابن جريس).

أصبح معروفاً لديَّ أن هذه المرأة تنتمي بقرابة مع مرشدي موسى، وذلك لأن شقيق والدته كان والدها. كانت متزوجة ولكن زوجها ظل غائباً عن البلدة، وهي الحقيقة التي أمكنتها من مرافقتنا -علماً بأنها لم تخلف منه أطفالاً- إلى معسكرنا التالي وإلى ما يليه في اليوم التالي. لقد كانت على أية حال متجهة في اتجاهنا نفسه، وذلك لأن جمليها سيعودان وهما محملان باحتياجات أسرتها من عند القرية التي تقع عند طرف تهامة. لا يمكن وصف وجهها بأنه جميل، غير أنه يكون كذلك حينما تبتسم، مع نقرة جذابة في وسط الذقن. كانت المرأة نحيلة البنية على الرغم من صدرها الكبير التام النمو، وكانت تتحرك برشاقة تحمل بندقية مرشدنا موسى من حين لآخر. لقد كانت حقيقة، أنموذجاً كاملاً لأنثى النوع البشري وقد كان الرجال أيضاً ذوي جمال غير طبيعي من الطراز الحسي الشهواني، كانت التقاطيع - فيما يبدو لي - سامية. كان مهر الزوجة عند قبائل بيش هذه - كما قيل لي - مرتفعاً إلى حدود (٢٠٠) ريال أو حتى (٣٠٠) ريال، بالمقارنة مع (١٠٠) ريال فقط للجمل، وهو سعر عالٍ في المتوسط بمستوى الهضبة العادي.

يتَّصل مع وادي بيش من نقطة أعلى رافد يخرف الذي ينحدر من جبال الريث، الذي يقع أمامنا الآن منظر رائع له لكل امتداده من الشمال إلى الجنوب، فوق السلاسل المنخفضة والتلال لما أصبح الآن أرض سفوح جبلية، وقد اتَّخذ الوادي الآن اسم «مشقة» وسيظل يحتفظ بهذا الاسم إلى أن يتَّمثل بالسهل. لقد تأخر الوقت كثيراً وكادت الشمس أن تغرب، على الرغم من أننا لا نزال بعيدين عن الموقع المحدد لمعسكرنا. كنت أرغب في أن نواصل السير دون توقف لتناول الإفطار، غير أن جابراً بدأ يشتكي من العطش، لأنه كان صائما أيضاً، وكان يلح على أن نتوقف حينما حسم الأمر بواسطة زوج من الصقور عاد ليعشعش في

شجرة الدوم في اللحظة نفسها التي كنا نعبر فيها. لقد التقطت بندقيتي التي كانت بارزة من حقيبة السرج على جانبي حينما صعد الطائران العظيمان بانزعاج وأطلقت رصاصة مجازفة. كانت الخراطيش من النوع السباعي غير أنَّ رصاصتي أصابت الهدف واخترقت الجناح المنتشر لأحد الطائرين والذي سقط بدوره بارتطام عظيم على أرضية الوادي. وكان لا يزال حياً وقادراً على الطيران، إلاَّ أنه لم يستطع ذلك. لم أشأ أن أفسد العينة برصاصة أخرى، ولذلك كان توقفنا قد وفّر لجابر كل الوقت ليطفئ عطشه ويتناول إفطاره بينما انصرفت أنا ومعي فرج للإمساك بالطائر وإزهاق روحه ببطء. كان الطائر الآخر يحلق فوقنا، غير أنه لم يحاول الإنقاذ. لقد كان صقراً أسود داكناً ويسمى علمياً باسم صقر بتلير.

لقد سعدت كثيراً بهذه الجائزة غير المتوقعة التي كان ثمنها بعض التأخير في الوصول إلى المعسكر الذي يقع على الجانب الأيسر لوادي مشقة، فيما يلي موقع دخول رافد غليفة من عند جبل الريث عبر أجمة كثيفة لأشجار الدوم. بدأت السحب تتجمع في السماء من جهة الشرق، غير أنني استطعت أن أتحصَّل على ملاحظاتي حول النجوم. تناولنا الإفطار في هذه الأثناء وتعشينا بلحم ماعز وبالعصيدة، ولم أنس احتياجات السيدة الوحيدة المرافقة لهذا الفريق. كانت هي والمرشدون قد استقر ثلاثتهم على مسافة منا، وقد ذهبت ناحيتهم لأسأل السيدة ماذا تفضل أن تتناول في العشاء. فأجابت أنها ترغب اللبن واللحم. لقد كان لدينا الكثير من اللحم، غير أنه لم يكن معنا لبن. ولم ترغب هي في العصيدة. لقد تعشَّت السيدة على اللحم فقط؛ ذلك لأن الحارسين كانا قد التحقا بنا لتناول العشاء معنا. ولقد نام ثلاثتهم معاً، في كوخ الأجمة وبملابسهم التي كانوا يرتدونها، ولم يكن على الرجال إلاَّ القليل منها. كانت ليالي تهامة دافئة، وكانت

درجة الحرارة (٧٢) درجة غير أن الارتفاع فوق سطح البحر كان فقط (٩٠٠) قدم. يحتوي هذا الجزء من مشقة على انبعاج عريض يكون رأس الدلتا التي عن طريقها يشق الوادي طريقه عبر آخر مجموعة للسفوح الجبلية ليجري آخر مراحله لمسافة ٣٠ ميلاً عبر السهل. كانت الساعة الثانية صباحاً قبل أن أذهب إلى النوم غير أن البعوض كان وافراً ومزعجاً وقد نلت القليل من النوم قبل أن أصحو لتناول وجبة السحور. لقد كان هنالك ندى كثيف أثناء الليل.

لقد انتهينا الآن من أمر الجبال ولا يتبع الطريق بعد الآن وادي بيش وإنما كان قد ابتعد عن جانبه الأيسر فيما تبقى من سلاسل لسفوح جبلية فيما يليها ليحتضن حافة الأراضي المرتفعة حول قرية الحقو. كان معسكرنا على جانب الطريق على بعد (٣٠٠) ياردة من حافة الوادي في وسط سهل حجري ضيق. قمت بتسلق هضبة منخفضة في الصباح قبل مغادرة المكان، كان ارتفاعها حوالي (٢٠٠) قدم وذلك للمسح النهائي للمنظر. يدور الوادي هنا ناحية الجنوب، وكنت أستطيع رؤية مجراه عبر وفيما يلي السفوح الجبلية الخارجية ولمسافة الميلين تقريباً. ويتّصل به عند نصف تلك المسافة مسيل صخري يسمى شعيب قفل الذي ينحدر من التلال الواقعة إلى يسارنا. لم تكن قرية الحقو نفسها مرئية لنا، غير أنها تقع ناحية الجنوب الشرقي، كما نستطيع رؤية السلسلة المنخفضة والهضبات التابعة لمحاسل على مسافة في السهل. كان هنالك جبل مرتفع مرئياً لنا إلى البعيد ناحية الشمال الغربي عند أعلى السلاسل للسفوح الجبلية، بينما تقع السفوح الثلاثة لكل من واعر ويدا ناحية الشمال، وتمتد بقية تمنية في جوارها في سلسلة طويلة ناحية الشمال الشرقي. وقفت كتلة بيض ناحية الشمال الشرقي، بينما أمكننا رؤية جبل القهر بعيداً ناحية الشرق ومعه قمته الصباعية في سلسلة جبل الريث التي تقوم

القبائل فيها بزراعة -كما قال موسى- ليس فقط القمح ولكن أيضاً البن. تبدو يدا الآن وهي واقفة أمام سلسلة تمنية واعر إلاَّ أنها تقع أعلى من السفوح الجبلية، والتي تتمركز في سلسلة عالية تمتد شمالاً من الجانب الأيمن لبيش وتسمى ضهره -ينطقونها لهره-. كما أمكننا رؤية القليل من أرض الخبت -أرض منخفضة- كما يسمون تهامة، وذلك بظهور ضباب خفيف فوق المنظر.

الفصل الخامس والعشرون

منطقة صبيا[١]

يكوِّن شريط رافد يخرف حدوداً قبلية ثانية، إذ هو الحد الشرقي لأرض شهران التي تتضمن امتداد بيش من ملتقى يخرف إلى نهاية السفوح الجبلية، وجميع الأراضي الجبلية جنوباً بين يخرف وتهامة. كانت العلامة الحدودية الفعلية بين كل من الريث وشهران تقع على تل يسمى لقمه على بعد (٣,٥) أميال ونصف الميل من مشقة وعلى الجانب الغربي من يخرف، بينما تتبع الأطراف الخارجية للسفوح الجبلية للحقو، وهي متضمنة لكل من الحضر والبدو. لم تكن أرض شهران واسعة هنا وقد تم تقسيمها إلى أربعة أقسام قبلية كانت أقصاها، ناحية الشرق، حول ركان ويسكنها آل عسكر، وإلى غربهم بني معراج، ثم بني مأجور وأخيراً وايلة. ويتضح من ذلك أن التلال من عند يخرف إلى أسفل، وعلى كلا جانبي بيش تتبع لأرض شهران (الشام).

بدأتُ مسيرة اليوم ماشياً. وأوصلنا الطريق عبر مسيل قفل قليلاً قبل دخوله إلى بيش وعبر مقابر شهران على الجانب البعيد، إلى مدفنه تتكون من مقابر متطاولة معلمة بعناية بحافة من الحجارة وموضوعة فوقها الحجارة إلى ارتفاع قدم واحد أو قدم ونصف القدم. مررنا في تماس فيما يلي هذه مع جانب بيش المكسو بأشجار الدوم، وانحرفنا داخله فوراً داخل غابة خفيفة من أشجار الطلح

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن منطقة صبيا انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ص ١٧٢ ــ ١٧٤، العقيلي، **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية، مقاطعة جازان**، ص ٤٦ . (ابن جريس).

وشجيرات البشام، التي تستخلص من عصارتها مادة بلسم مكة القيمة (بلسم جليد). ضربنا على الطريق إلى الخلف الآن داخل السفوح الجبلية من الدلتا لنصل إلى مضيق لسلسلة الحلة التي منها يطلق على الطريق اسم درب (أو طريق) الحلة، وهو واحد من الطرق الرئيسة التي تؤدي من تهامة إلى الهضبة. لقد التقطت أول منظر للحقو من هذا المكان، أو بمعنى آخر من الهضبة التي تسيطر عليه من حافة التلال، والتي تتعرج بقلعة تسمى قشلة السيد -يعني الإدريسي-، وذلك لأننا الآن على حافة ملك الأدريسي التقليدي[١] -. لقد أمكننا الآن من ناحية الجنوب الشرقي رؤية البركانين الخامدين التوأمين واسمهما (العكوتين)[٢] وهما يسيطران على قرية الحسينية المهمة كما تقع السلسلة البركانية لجبلين إلى البعيد ناحية اليمين وتقع محاسل شيئاً ما ناحية الجنوب الغربي. تكون هذه السلسلة، حدوداً خارجية للسفوح الجبلية الحقيقية مع غطاء نباتي منخفض وتقع بلاد السافانا بينها، وقد تجرحت بالمسايل الصخرية التي تجري من حافة السفوح الجبلية تجاه بيش أو المصارف التي تقع ناحية الجنوب أكثر. تفصل عدة هضاب منفردة، بيننا وبين الحقو منضرة إلى الأمام عند حافة السفوح الجبلية والتي فيما يليها نستطيع رؤية نظم قمم كل من برم (تنطق برا)، حقو ورضى في نظام الريث. كما كنا لا نزال نشاهد النقاط الأساسية في كتلة تمنية ناحية الشمال.

---

(١) للمزيد عن تاريخ الإدريسي في منطقة تهامة خلال القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري، انظر: عبدالمنعم الجميعي، **الأدارسة في المخلاف السليماني وعسير (١٣٢٦ ـ ١٣٤٩هـ / ١٩٠٨ ـ ١٩٣٠م)**. (خميس مشيط: دار جرش للتوزيع، ١٩٨٧م) ص ٦ وما بعدها، محمد العقيلي. **تاريخ المخلاف السليماني** (الرياض: منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م) جـ٢، ص ٦٢٠ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) العكوتان: جبلان يقعان في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة صبيا، وهما العكوة الجنوبية والعكوة الشامية. للمزيد عن تاريخ هذين الجبلين في بعض كتب التراث، انظر: محمد العقيلي. **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية، مقاطعة جازان**، ص ١٦٦ ـ ١٧٢ (ابن جريس).

سلكنا سفح الجانب الأيمن لغليفة الثالث، على الجانب البعيد من سلسلة الحلة، في وسط كثافة لأشجار الطلح وأشجار الدوم المبعثر، وسرعان ما عبرناه على مسافة ١,٥ ميلاً إلى أسفل قبل اختفائه في السهل وعلى مسافة تعادل بعده من موقع التقائه مع بيش. ارتفعت السفوح الجبلية على يسارنا، الصف تلو الصف، إلى الخلف ناحية الريث، بينما يشق المجرى الأسفل لغليفة طريقه فوق سهل متموِّج بلطف، وهو كثيف الأشجار، سفحي، يتجه ناحية بيش. كان عبور المجرى التالي عند شقبان الذي يجري فوق أرض مشابهة يتكون سطحها من الشست الرمادي الشبيه بالألواح، والذي يميل على زاوية ٤٥ درجة من ناحية الشرق إلى الغرب. كنا نشاهد من حين لآخر لمحات من أشجار الدوم معلمة لوادي بيش الذي يمر إلى الشمال من سلسلة محاسل في طريقه إلى البحر. كانت الظروف المناخية في السهل المكشوف، مقارنة بمسيرتنا خلال أيامنا الأخيرة في الوادي المنحصر، لطيفة جداً وقد هبَّ علينا نسيم بارد من جهة الجنوب الغربي وكان جواً مثالياً لمواصلة المسيرة. كانت أشجار الدوم كثيرة في المعبر التالي وهو مجرى عكاث ومن بين أشجاره شجرة جديدة بالنسبة لي وتسمى الضبر (تنطق لبر). لقد عبرنا ثلاثة مجارٍ أخرى خلال نصف الساعة التالي وكانت كلها ذات خصائص مماثلة وكلها روافد لبيش – وهي سدينة، وضبيرة والعقيد – لنصل من بعدها إلى هضاب منضرة على الحافة الشرقية لأرض واسعة لحقول الدخن تمتد بعيداً ناحية اليمين وكان هذا أول العلامات الجادة لنشاط زراعي شاهدناه منذ مغادرتنا الهضبة. تعتمد هذه الزراعة على الري بواسطة السيول، وجزئياً من شعيب العقيد وجزئياً من شعيب الملاح، وهو مجرى سيل آخر يقع إلى ما يلي الهضاب التي كان وادي غيلها ظاهرياً وكأنه مستديم. كانت البلاد بصفة عامة

عارية وجافة ومـتموِّجة في لطف غير أن زراعة الذرة قـد ازدادت من حيث المسافة والكثافة ونحن نقترب من الحقو.

قررت أن نتـوقف قليلاً قبل الوصـول إلى الموقع الذي ستنتـهي إليه الرحلة، وذلك لننال بعضـاً من الراحة عند الظهيـرة بالقرب من أجمـة أشجار العـبال في وسط حقول شاسعة للدخن (دخن وذرة)، والسمسم (جلجلان) الذي يزرع بكثافة في هذه الأجزاء حيث توجد عصارات الزيت. تعرف هذه الأراضي التي لا تحتوي على مناطق مأهولة، والتي تمثل الأطراف الخارجـية للحقو، باسم الملاحي واتضح لنا أنها موقع لطيف جداً. تركت رفاقي يعـملون ما يرغبون وذهبت بمفردي أبحث لنفسي عن سـرير مريح فوق قطعة من نبـاتات الدخن الصغير وتحت ظـل شجرة علب لأستلقي، صحوت بعد نومة طويلة ومنعشة لأجد قرعة ماء بجاني بلا تفسير كـيف وصلت إلى هنا، ذلك لأنه لم تكن لـدينا أوان منزليـة من هذا النوع. ربما رآني أحـد عمـال الحقـول وأنا نائم هنا وترك لي الماء لأجل الوضـوء قبل صـلاة الظهر، لم يكن الماء للشرب وذلك لأننا لم ننته بعد مـن رمضان، وبالمناسبة، لقد تركتنا السيدة ذات القرعة ورفيقـاها عند منتصف الطريق أثناء مسيرة الصباح حيث توجه ثلاثتهم لبعض قـرى بيش. كنت آسفاً لفقد صحبتـهم، وكنت قد جازيتهم بكرم أكثـر، بأمل أن المرأة التي ليس من السهل تقـديم المكافأة لهـا مباشـرة، قد تستفيـد هي أيضاً. وأثناء مغادرتهم وعلى لسانهم كلمـات الوداع البسيطة، أزالت المرأة الشال تماماً عنها لتعيد ترتيب وضعـه من جديد وحينها كنت قد التقطت آخر لمحة لي لفينوس الريث.

تقع الحقـو على مسـافة نصف سـاعة سيـراً على الأقدام فـيمـا يلي المجرى العريض الصخـري لوادي طفشه والذي عند وسطه وصلنا إلى بئر الحـقو وهو بئر

جيد البناء في الحوض الحجري للمجرى وبه كمية كافية من المياه على عمق (٤,٥) قامات ونصف القامة. والذي بجواره كان هنالك حشد كبير من الرجال والنساء يقومون بسحب الماء لغرض احتياجاتهم المنزلية المسائية في رمضان. وكان معظمهم من أصل زنجي، وكانوا مرحين ودودين. كنت مهتماً في هذه اللحظة بطائر اللقلاق الذي كان يحلّق من قريب ثم قرر الذهاب إلى موقع آخر يقضي فيه الليل، وذلك لأننا لم نره بعد ذلك. لقد تمكنا من إدخال عدد من الدجاج الحبشي إلى حقيبة العينات المتحفية، وذلك خلال بقائنا ليوم واحد قصير في الحقو، والدجاج الحبشي طائر شائع في كل بلاد الجبال السفحية هذه غير أنها كانت المرة الأولى التي أقابله فيها! كما تمكنت من الحصول على طائر الباز وبعض الطيور النساجة الصغيرة إلى جانب طائر الصرد وبعض الحمام. بدت البلاد السفحية الغزيرة الأشجار وحقولها المزروعة بيئة مناسبة جداً لحياة الطيور بالمقارنة مع وادي بيش، وقد كانت طيور الحدأة والغداف التي تحلّق فوق الحقو ومحيطها هي الفيلق الرئيس.

أقمنا معسكرنا في بعض حقول الدخن التي تم حصادها على حافة أرض ذات شجيرات إلى ناحية الغرب من القرية التي تتألف من عشش وأكواخ مصنوعة من القصب والأعواد الخشبية على شكل حزم القش الموجودة لدينا؛ وتشبه التكل الأفريقي. لقد كانت في الحقيقة قرية أفريقية في إطار عربي وذلك لأن سكانها كانوا عنصراً زنجياً[1]، نقياً بالإضافة إلى أهل شهران الذين ينتمون إلى قسم عبس،

(١) لقرب منطقة جازان من الحدود اليمنية من الناحية الجنوبية، وكذلك من ساحل البحر الأحمر من الجهة الغربية، مما جعل كثيراً من العناصر البشرية الإفريقية واليمنية تتدفق إلى هذه البلاد إما للعمل في كثير من المهن والحرف المحلية، أو للتسول والشحاذة في القرى والأرياف والمساجد وعلى فوهات الطرق والممرات المختلفة. (ابن جريس).

الذين يكوِّنون الطبقة العليا، بينما يقوم الزنوج بالأعمال الزراعية والوضيعة للمجتمع. كشفت ملامح بعض أهل عبس عن علامات للمزج العنصري، بما في ذلك سمات الشيخ المحلي غانم بن مفرح، الذي -على الرغم من أن العنصر الذي يدخله كان خفيفاً جداً ولربما كان بعيداً- كان رجلاً مسنّاً جذّاباً يزيد عمره عن (٦٠) عاماً وهو شخصية محلية عظيمة، ورجل ودي المعاملة، ناعم الحلاقة، ووجهه طويل نحيل، يعد أنموذجاً لعرب نجد. وبرغم أنه الشيخ المحلي لهذه المنطقة، إلاَّ أن إدارتها كانت تحت إشراف موظف كانت قد عينته الحكومة السعودية، كونه أميراً ورئيساً للشرطة، وذلك لأهمية الحقو كأحد المنافذ الرئيسة التي تقود إلى داخل البلاد. كان هذا الموظف هو عبدالرحمن البواردي، وهو من مواطني شقراء البعيدة، وهو رجل لطيف طيب الحديث وشاب، كنا قد اجتمعنا معه لتناول طعام الإفطار وطعام العشاء، الذي تضمن الدجاج كطبق إضافي. رحبنا به إلى جانب الغذاء البسيط الذي كنا قد اعتدنا عليه. كانت هذه أول وظيفة مستقلة لمضيفنا في خدمة الحكومة، وقد مضى عليه حتى الآن أربعة أشهر، وتحت إدارته عشرون رجلاً ملحقون بمركز الشرطة وعدد قليل من الكتبة يقومون بالأعمال الإدارية العادية. لقد احتلت مراكز أدائه عمله وأداء عمل الشرطة سلسلة من العشش في مجمع متعرج مسوَّر بأعواد الخشب. كان رجلاً قنوعاً بهذا النمط من الحياة وبمجموعته وكان يشيد بأعلى صوته بالطقس الممتاز الذي يعم المكان وبغياب البعوض. لقد اعتمدت كل مزارع الدخن وغيره من المحاصيل على الأمطار أو السيول الموسمية، ولا يوجد ري بماء الآبار، وكان القليل من هذه الآبار لغرض الشرب. كان أبرز الأشياء هنا هو الغياب العام للمياه الراكدة وإنتاجها غير المحبوب ألا وهو البعوض.

جاء عبدالرحمن إلى معسكرنا للاستماع للراديو، حيث استمعنا منه إلى حديث السيد بولدون الإذاعي حول قرار الملك بالتنازل عن العرش وإفساح المجال لشقيقه ليصبح ملكاً لإنجلترا. لم يثر هذا الحدث الذي هزَّ الأرض اهتمام مجموعتي، وأدركت أنَّ عبدالرحمن كان لا يعرف شيئاً -لدرجة مدهشة- عن شؤون العالم الغربي والشخصيات المهمَّة من وراء الأحداث في بلاد مثل فلسطين والعراق. لم تمتد اهتماماته أو تطلعاته إلى أبعد من احتياجاته الخاصة[١]. لقد احتفل أطفال الحقو، في هذه الأثناء، بليلة رمضان بألعابهم النارية المزعجة وغير المثيرة وواصلوا إلى وقت متأخر من الليل. تجمَّعت السحب عند الفجر في السماء، وكانت الليلة خالية من الندى، على الرغم من أنه كانت هنالك لمسة رطوبة في الهواء. كانت درجة الحرارة الدنيا هي (٦٥) درجة وكان ارتفاعنا فوق سطح البحر لا يزال هو (٩٠٠) قدم.

لم تكن القلعة التي تقع فوق التل مأهولة -والتي ذكرناها سابقاً- وكان اسم القلعة الثانية هو «ماغص» وعلى الرغم من أنها تحظى ببعض العناية والاهتمام والصيانة عند الحاجة، تقف هذه القلعة على ارتفاع (١٠٠) قدم فوق القرية، وتسيطر تماماً عليها، وتحتوى القرية إلى جانب العشش على عدد قليل من المباني وحيدة الطابق، مع وجود شريط مزدوج من حجارة بيضاء كضرب من الزخرفة للجانب الخارجي الكئيب[٢]. لقد أمكننا رؤية قرية مسلية من هذا الموقع، إلاَّ أنَّ

(١) مما يظهر من كلام فيلبي أن أهل السروات كانوا على علم بما يحدث في العالم من صراعات مقارنة بأهل تهامة. وهذا ليس قول فصل، فالناس آنذاك في هذه الأوطان كانوا يعيشون في عزلة عن العالم لعدم توفر وسائل الإعلام عند كل الناس، وإن وجدت كالراديو مثلاً فلا توجد إلا عند الأمراء وربما بعض الأغنياء. بالإضافة إلى انعدام التعليم والمؤسسات التعليمية التي يمكن من خلالها تثقيف الناس وتوسيع مداركهم ومعارفهم بما يدور في عالمهم. (ابن جريس).

(٢) غالبية البيوت والمنازل في تهامة كانت من القش والأخشاب وسعف النخل وما شابهه، ويطلق على مثل هذه المنازل اسم «العشش» ومفردها «عشة»، وإن وجدت أبنية من الحجارة فهي قليلة جداً مقارنة ببلاد السراة. (ابن جريس).

الضباب كـان يحيط بها، وتقع إلى ما يلي الجـانب الأيمن لوادي بيش أثناء مروره ناحية النهاية الشمالية لسلسلة محاسل.

تتصل كل المجاري الصـرفية التي كانت قد اعتـرضت طريقنا من الحقو، إلى الضبيـرة مع بيش وعلى فترات أعلى هذا الموقع، غيـر أن كلاً من العقيـد وطفشه وقُرى تنحدر جميعاً إلى أسفل للتقابل بالقرب من النهاية الجنوبية للسلسلة نفسها، ثم تمضي كلُّها عبر السهل لتتصل مع المجرى الرئيس لبيش بالقرب من وإلى أعلى من قريتـه الرئيسة التي تسمى أم الخـشب، والتي أحياناً تسمى بيش. كـما أمكننا أيضاً رؤية قرية عشش، وهي ليست بالبعيدة وتتـبع بئر العصبة على الجانب البعيد لشعـيب قرى وبئـره التي تقع وسط المجرى. كـانت هذه البئر وبئـر الحقـو، هما البئـران الوحيـدان في هذه المقاطعـة. تقع إلى ناحية الـغرب من موقـعنا السلسلة الطويلة المنخفـضة التي تسمى غبر بعـيداً في السهل. لا يزال الحبيـل مرئياً لنا من جهـة الشمال الغـربي، ولكننا لا نرى قمم تمنـية، بينما يمكن رؤية مـعظم سلسلة جبل الريث ناحـية الشرق، حـيث تكَوِّن سلسلة جعوين العـالية الحدود الشرقـية لعبس. يحد هذا القـسم من ناحية الجنوب وادي ضمد وهو مصـرف جبلي يشابه بيش وهو بمثابة حدود القسم من ناحية الشمال، بينما تنغلق عليه من ناحية الغرب سلسلة الحدبـة على امتداد طرف السـهل. وتقر عبس بـصفتـها قسم من شـهران بالحكم المطلق لسعيد بن عبد بأنه الشيخ الرئيس للقبيلة وهو يقيم في شمال أبها.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حينما بدأنا مسيرتنا جنوباً عبر سهل تهامة. وكانت كل الأرض بين مجرى طفـشة ومجرى قرى مغطاة بالأشـجار، مع الكثير من مزارع الدخن المبـعثـرة في أراضٍ مقطوعة الشـجر، في وسط خليط لأشـجار الطلح والأراك والسيـسال والرين ونباتات أخرى. اسـتغرق وصولنا إلى البـئر في

شعيب قرى حوالي الساعة والذي يهبط من أطراف جبل الريث. كانت البئر نفسها مبينة من مواد بناء بدائية في البطن الحصوي للمجرى، وكان عمق مائه أربع قامات، ويجري بقربه غيل محدود الطول وغالباً ما تكون قد أنتجته السيول الأخيرة. لقد خلدنا إلى الراحة هنا ساعات قليلة قبل أن نضرب على الطريق مارين بقرية العصبة في سهل سافانا واسع، والذي التقطنا طريقنا من فوقه مصادفة وذلك لأنه لا يوجد ممر مطروق عبر الغابة.

كانت كل من أم الخشب، والملحاء والعصبة نفسها في هذه المنطقة لغابة السافانا -في الأيام الخالية وحتى وقت قريب- مواقع للإغارة على العبيد من أبناء الزنوج وبناتهم الذين كانوا يرسلون إلى نجد عن طريق بيشة. لقد منع هذا النشاط الآن[1]، وكان من مهام نقطة الشرطة في الحقو تطبيق المنع لهذه التجارة. وصلنا إلى مجموعة قليلة من البروزات الصخرية التي تقع وسط الغابة والتي كانت مملوءة بطيور الشقراق، والعجلة وغيرها، وتسمى مكسر، وإلى ما يليها يجري الوادي العميق المشجر الصخري، المسمى شعيب لحف الذي يمتد مسافة طريقنا كاشفاً له في جانبه عن الشست التحتي الملون بعروق الكوارتز. وجدنا فيما يلي هذا طريقاً مطروقاً فوق أرض صخرية مكسرة، لا تزال تكسوها الغابة، وكانت فيها أشجار البشام تفوق أشجار الطلح وتمتد إلى الفرع الثاني لمجرى لحف. عبرنا بعد ذلك سهلاً متموِّجاً في لطف من حصى كوارتزي تكسوه غابة سافانا كثيفة بينما كان يميل تدريجياً للاقتراب من مجرى مصرف معتبر ينحدر ناحية الجنوب. كان هذا هو وادي شهدان، وهو رافد لشعيب قرى، مثله مثل فرعي لحف، ومنه إلى بيش

(١) تجارة الرقيق كانت نشيطة في معظم حواضر شبة الجزيرة العربية، ولكن منذ بداية النصف الثاني من القرن الهجري الماضي بدأت تختفي قليلاً قليلاً حتى تم القضاء عليها وتلاشت تماماً. (ابن جريس).

نفسه. لقد كنا نسير فوقه مسافة على اليسار، وكذلك مسافة (١,٥) ميل ونصف الميل إلى البعيد، وكانت سلسلة جبلين تقع على يميننا على بعد نصف تلك المسافة حتى البقعة التي عندها يخترق المجرى السلسلة. توقفنا هنا لفترة في بطن الوادي الكثيف الأشجار الذي يبلغ عرضه هنا حوالي (٥٠٠) ياردة بالقرب من منبسط صخري مرتفع من الأرض، - ربما بقايا سلسلة - في وسطه.

تتبعنا الوادي عندما واصلنا المسيرة، مدة نصف ميل قبل أن نضرب صعوداً إلى خارجه إلى السافانا فيما يليه وعبر وادي أم كحل الممتلئ بالشجيرات. لقد غربت الشمس ولم تكن معنا قطرة ماء تساعدنا على تخفيف الظمأ ولا أمل في وجود الماء في هذا المكان إلاَّ في الحسينية، التي لن نصلها إلاَّ بعد أربع ساعات وذلك بسبب الصعوبة التي واجهتنا في العثور على طريقنا عبر المتاهة المتشابكة للغابة، وعبر بطون السيول المعترضة لنا في الظلام. لقد أفطرت على دخان الغليون وعلى قليل من التمر والفجل الذي جلبناه معنا من الحقو، غير أننا لم نضيع وقتاً كثيراً إذ واصلنا مسيرتنا على أمل أن نجد ماءً في أحد المجاري العديدة التي كان علينا أن نخترقها. كان أول هذه المجاري واسمه أم الخشب جافاً كأنه العظم، غير أن المجرى الثاني قد أسرَّ قلوبنا من على البعد، ذلك لأن شعيب الملحاء -وهذا اسمه- كان مملوءاً بالبرك الصخرية. اتضح لنا أن كل ما رأيناه على البعد كان سراباً. كان وجود الماء هنا حقيقة، وكان هنالك الكثير منه على امتداد كل الشريط لكل البرك التي في طريقنا، غير أنه كان ماءً مالحاً كماء البحر، وحتى جمالنا أزاحت وجهها عنه في امتعاض. انهارت كل آمالنا لأن شعيب وساع كان جافاً أيضاً. ولكن بينما كنا على وشك أن نفقد الأمل في البحث ونهيء أنفسنا لمصيرنا المحتوم حدث ما لم يكن في الحسبان، لقد كانت في مجرى الضبيرة -

وهو الرابع - بركة كبيرة لمياه السيول، تقع في بطنه الرملي وكان كل شيء بعد ذلك على ما يرام. لقد شربنا حتى اكتفينا وأخذنا معنا مؤنة كافية للطريق بتعبئة قربة أو قربتين من الجلد. لقد أظلمت الدنيا تماماً عندما عبرنا الجانب الثاني لضبيرة، مما جعل ملاحظة التفاصيل لمعالم البلاد التي نعبرها أمراً صعباً، كنت منتبهاً بعبور الوادي العريض إلى ما يلي هذا الموقع وبدخولنا إلى أرض واسعة لزراعة الدخن حول قرية ريجة. كانت الحقول ممتدة من هنا وإلى ما بعد، وقد شققنا طريقنا المتعرج بينها حتى دلَّنا كل من نباح الكلاب وأضواء الحسينية[1] في نهاية الأمر إلى معسكرنا.

ترتفع الحسينية إلى (٤٠٠) قدم فوق سطح البحر، غير أن الليلتين اللتين كنا قد قضيناهما هنا كانتا باردتين بشكل منعش، إذ كانت درجة الحرارة الصغرى (٦١) درجة مع رطوبة خفيفة في الهواء، علماً بأنه لا يوجد ندى للمرة الثانية، ربما بسبب أنَّ السماء كانت مليئة بالسحب جزئياً. كان لي سببان للتراخي في هذا الموقع. كنت متطلعاً في المقام الأول لزيارة بركان العكوتين، وأن أقوم بجمع عينة من التربة البركانية إلى جانب مسح البلاد من عند ارتفاعها المسيطر على المنظر. كما أنني كنت أحس بالضعف، في المقام الثاني، خلال اليوم أو اليومين السابقين، ويعزى هذا جزئياً إلى صعوبة الصوم في رمضان وجزئياً أيضاً بسبب أن دمي لم يتعاف بعد تماماً من التسمُّم الذي حدث له في الهضبة، فأنا مرهق ومعتل الصحة.

(١) الحسينية:ــ قرية في بلاد صبيا، وهي تقع شرق جبل عكوة الشمالية، وقد استوطنها الإدريسي واتخذها عاصمة لحكمة في تهامة خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري. (ابن جريس).

مهما كان الأمر فقد قضيت لـيلتين هنا، وعند تمام الساعة التاسعة صباحاً من اليوم الأول بدأنا رحلتـنا على ظهور الحمـير، التي أمدنا بهـا الرئيس المحلي وفي رفـقتي مـرشدان؛ وذلك لزيـارة البركـان الشمـالي الذي يقع ناحـية الغـرب من معسكرنا.

بينما كانت القمَّة الجنوبية تقع ناحية الجنوب ويجري بين الموقعين مجرى وادي نَخْلاَنْ الذي على جانبيـه تقوم الأكواخ المبعثرة وحقول الدخن في الحـسينية. كان الطريق يخترق أول الأمر الحقول، وهي تتضمن مساحات معتبرة من السمسم، إلى أن وصلنا إلى موقع انتـشار الأرض البركـانية، وكانت ذات لون أحمـر وعارٍ من النبات وكان الـطريق صعباً ويمتد على طـول قاعدة السلسلة ويعتـرضه خط صرف جار أحمد بن حسين الذي ينساب إلى أسفل من طرف القمة الشمالية، ويتصل مع وادي نخلان الذي هو رافـد لوادي بيش، ويصله على مسـافة أسـفل موقع تدفق وادي أم الخشب، الذي تتجمع فيه المجـاري المختلفة التي كان قد ورد ذكرها والتي تقع بينه وبين وادي ريجـة، ليمر من بعـد ذلك إلى الخارج على الجانب الشـمالي للعكوتين.

كانت المسيـرة صعبة فوق الحمم، غـير أنه لم يمض وقت طويل حتى وصلنا إلى مضيق منخفض عند الطرف الجنوبي لنتوء صخري يجري إلى أعلى ناحية قمة البركان التي وقفت على ارتفاع (١٠٠٠) قدم فـوق مستوى سطح البحر و(٦٠٠) قدم فوق مسـتوى القرية. كانت الفوهة التي تكسَّرت وكانت تفـتح ناحية الغرب، قد أحاطت بها جـدران الصخور البركانية الشديدة الانـحدار على الجوانب الثلاثة الأخرى، وكانت أعلى بقـعة فيها تقع على الطرف الشرقي. لا ندري مـتى خمد البركان، غير أن الحمم تشير إلى أن الفوهة كانت حديثة التكوين مثلها مثل غيرها

من المخاريط البركانية في منطقة تهامة، مما يغري بالتفكير في أن انفجارها كان معاصراً لتدفق براكين المدينة المنورة، حوالي عام ١٢٠٠م، غير أنه لا يوجد إثبات لدعم هذه الفكرة وأن الاحتمال الأكبر هو أن اضطراب تهامة عسير كان قد حدث في بداية العصر المسيحي، حينما كان هنالك نشاط بركاني واسع، ومن النوع المدمِّر الذي حدث فوق مستوطنات سبأ بما في ذلك مأرب.

كان المنظر عند فوهة البركان مثيراً للاهتمام أكثر منه مهيباً، فقد رأيت -ولأول مرة- منظر صبيا عاصمة الإدريسي[1]، وفيما يليها جازان على ساحل البحر الأحمر وقليلاً ناحية الجنوب الغربي. كما تقع ناحية الغرب قرية الملحاء الكبيرة التي كان المسجد المحلي ذو البناء المطلي بالجير الأبيض أبرز ما فيها إلى جوار أعشاشها المبنية من الوتل.

وقفت كتلة فيفا بقممها المختلفة واضحة ناحية الشرق من قرية الحسينية إلى جانب بئرها ومسجدها الأسطواني ذي السراديب، وبعض مبانٍ قليلة مدمرَّة كانت قد انتشرت فوق مساحة معتبرة على امتداد الوادي. تقع قرى كل من الحرف والعقبة وهيجة أم الرقع ناحية الشمال الشرقي أكثر وناحية الشمال، وكذلك الحقول الممتدَّة -والتي كنا قد سافرنا خلالها أثناء ظلام الليل حين وصولنا- على امتداد جانب وادي فسوة الذي ينحدر إلى شعيب وساع وهذا بدوره عبارة عن رافد لبيش عبر وادي الملحاء الذي يحتوي على البرك الصخرية المالحة. وقف البركان التوأم الواقع في جنوب عكوة -وليس بعيداً-، ناحية الجنوب، وعلى الجانب

(١) صبيا يطلق عليها قديماً أبو دنقور، ثم اختطت في القرن العاشر الهجري، وكان الذي اختطها هو الأمير/ دريب بن مهارش الخواجي عام (٩٥٨م). انظر: العقيلي. **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية، مقاطعة جازان**، ص ٤٦ . (ابن جريس).

الآخر من نـخلان، ويبدو أنه مـشابه للبـركان الذي نقـف عليه الآن. يفـتح كلا البركانين ناحية الغرب إلى جانب وادٍ من الصخور البركانية الواسع يبرز إلى البعيد في السهل على ذلك الجـانب، وينساب مـجرى نخلان في الفـجوة التي تقع بين الاثنين وهو في طريقه للاتصال مع وادي بيش.

اكتـشفـت أن رفاقي كـانوا قد غـادروا المعسكر بعـد عودتي من القـرية عند الظهيرة، وذلك للحصول على ما قـد يجود به سكان العشش في الجوار مما يساعد على الوقاية من الشـمس، ولم ينسوا أن يهيئـوا لي سقفاً لراحـتي، ولقد وجدت بالفعل عشة واسـعة شديدة النظافة ومريحة جداً تحت تصـرفي، كان شكل العشة على هيئـة خلية النحل، مـبنية على قاعـدة من طين والذي يكون سطحه أرضـية العشة وكـان مضغوطاً وأملس، لقد امـتدت طبقة الطين حـول العشة من الداخل وإلى ارتفاع قليل على الحافة وذلك ليمنع دخـول الماء من الأرض الخارجية، بينما كان بقـية التـركيب من أعواد الشـجر وهي مـرتبة بأناقة لتكسـب الجدار الداخلي سطحاً مستوياً، والذي تمَّ فيه غرز أوتاد خشـبية لتثبيت الأواني المنزلية. كان القش على الجانـب الخارجي للعشـة قد تماسك بواسطة الـعديد من الحبـال التي اتَّصلت معتمدة على قمة العشة، وهي نفسها متـماسكة فيما بينها بحبال أخرى ممتدة أفقياً حول محيط البناء وعلى مسافات[1].

تبايـنت العشش كـثيراً فـي ارتفاعهـا، غيـر أن هذه العشـة لابد وأن يكون ارتفاعها عشرين قدماً أو أكثر من الأرضية إلى القمة. لقد أعجبتني درجة نظافتها،

(١) لمزيد من الإيضاح عن طريقـة بناء العشة أو (العشش) في الأجزاء التـهامية من جنوبي البـلاد السعودية، وبخاصـة منطقة جازان انـظر: غيثـان بن جريس. **عسـير ١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ**، ص ٤٩ ـ ٥١ . (ابن جريس).

إلى جانب الزخرفة والتأثير الذي عكسه ترتيب الأواني المنزلية في مجموعات على الجدران. لقد كان على الأرضية ثلاث أو أربع لفات من الحصير المحلي لتقوم مقام المفارش أو السجاجيد حسب الحاجة، ذلك لأنهم كانوا ينامون على الأرض في هذه الأنحاء، وعلى الرغم من أنني قد شاهدت أسرَّة من الحبال ذات أقدام خشبية قصيرة في مناطق أخرى من تهامة. لقد تدلَّت من على الجدران صفوف القرع والقدور الخشبية ذات الأحجام المختلفة، وعدد من السلال المصنوعة من القصب أو السلال الجلدية. كان الأخير منها يشابه الأعمال البدوية في السودان. وقد وقفت عند زوايا الجدار جرار للماء كبيرة الحجم متنقلة من الفخار[1]. كانت هذه هي الخلفية التي قضيت الظهيرة عندها مستمتعاً بالراحة. ولقد لاحظت وأنا أتجوَّل في وقت لاحق أن القش الخارجي للعشش كان قد تم تجديده بأعواد جديدة وقد كان هذا ضرورياً لتخليص التركيب من الحشرات والأقذار. وكان المسجد كبيراً وشبيهاً بالبرميل ولكنه بيضوي الشكل، وكانت جدرانه وأرضيته ليست من الطين، وكان قشُّه أكثر خشونة مقارنة بالمساكن الخاصة، وقد تمَّ ربط القش ببدائية على أغصان الأشجار. تفخر الحسينية ببئرها الوحيدة وبمياهها الممتازة التي يصل عمقها إلى ثلاث عشرة قامة. ولا تروى المحاصيل هنا كما في أماكن أخرى بمياه البئر، إذ إنها تعتمد على مياه الأمطار والسيول، غير أنه يقال إنَّ المياه هنا جيدة بالدرجة التي دفعت الإدريسي المسن لأن يرسل عبيده وحميره من صبيا لجلب المياه من هنا لاحتياجات منزله.

(١) معظم مدن منطقة جازان، وبخاصة صبيا، وسامطة، وأبو عريش وغيرها تشتهر بصناعة الأواني الفخارية المختلفة في الأشكال والأحجام. (ابن جريس).

ويبدو أن المكان يحتوي على (٢٠٠) إلى (٣٠٠) عشة، ربما كان عدد سكانه حوالي (١٠٠٠) نسمة، وكلهم زنوج من أصل إفريقي وقد استقروا هنا فترات طويلة. وكانوا دائماً يتحدثون عن السيد الإدريسي بحب واحترام. لم يكن للناس هنا اهتمام بشؤون العالم، ولم يكن لهم إلاَّ اهتمام قليل بشؤون الجزيرة العربية بصفة عامة، والقليل جداً مما يقع خارج حدود حقولهم وقرى أسواقهم. يستدل المرشد الذي اصطحبته معي إلى العكوة على جبل فيفا بالمشاهدة وبالاسم، أما حكمه على بقية الجبال التي تقع داخل مجال رؤياهم كل يوم فهي بالنسبة لهم ليست قمماً فردية، ولكنها مواقع المأوى الباهتة لهذه القبيلة أو تلك، أو لأحد أقسام جيرانهم العرب، الذين حضروا ليقايضوا البن والموز، بالدخن والسمسم. ويطلق على السمسم اسم جلجلان ويرسل عادة إلى عصارات الزيت في صبيا[1]، وبنسبة أقل إلى عصارات (أبو عريش) وأم الخشب لاستخلاص الزيت، غير أن القرى الصغيرة لا تمتلك عصارات زيت خاصة بها. وإلى جانب قليل من الجهد للبذر وحصاد المحصول، ذلك لأن الحرث ليس ضرورياً هنا، وأن أمور الري هنا ميسرة والناس هنا وفي الحقو قد جذبوا انتباهي بكونهم أكثر ازدهاراً وأكثر حرية تجاه اهتماماتهم بالحياة مقارنة بأولئك الذين يقطنون الهضبة، والذين كان عليهم أن يكافحوا بشدة لأجل البقاء. لقد كانت المساحة المخصَّصة لمحاصيلهم محدودة جداً، تحكمها ظروف الطقس في كل سنة، وكان لديهم الكثير من الأبقار التي تؤمن لهم اللبن بالإضافة إلى الدخن الذي يُكوِّن غذاءهم البسيط.

(١) عصر السمسم في الأجزاء التهامية، وبخاصة في المناطق الممتدة من محائل والبرك والقنفذه شمالاً إلى سامطة وأحد المسارحة في منطقة جازان جنوباً، يتوافر بكثرة، بل يعد في بعض هذه النواحي من السلع التجارية الهامة التي تصدر إلى الأسواق المحلية في جنوبي البلاد السعودية. (ابن جريس).

لقد ثبطت المناشط المنزليـة في ليالي رمضان أي إغـراء بزيارة الناس لمعسكرنا للاستماع للراديو، ولذا لم يزعجنا أحـد، إلاَّ من نباح الكلاب طيلة الليل وتجولها حول معسكرنا بحثاً عن عظام تلعـقها. لقد لاحظت كذلك بعض القطط التي ربما جذبتها رائحة الطيور فأقبلت من القـرية، وقد كنت جمعت الكثير من هذه الطيور أثناء النهار بما في ذلك الحمـامة الحبشية وزوج من طائر اللقلق وأنواع مـختلفة من طائر البـاز، كما كـانت هنالك أيضاً طيـور السنبيـرد النيلية والأبلق الصـحراوي وحمام الصحراء العادي. ثم جلست بعد فـراغي من ملاحظة النجوم حتى الساعة (١,٣٠) صباحاً لأسـتمع إلى كلمة وداع الملك إدوارد لشعبـه. كان الحدث وكأنه قد وقع إلى البـعيد، غير أنـني هنا في الصحراء عند سفح هذه البـراكين الشابة، كنت أحس في قرارة نفسـي بأن صدعاً ما قد حـدث، وأن النظام القديم قد ذهب ليـحـفظه التـاريخ. ولعله كـان من المناسب وأنا أجلـس تحت النجـوم أنتظر هذه اللحظة الموعودة، أن يشـغل الراديو القدس هذه الفتـرة من الاستراحـة بأنغام من موسـيقى كـانت تبث من فندق الملك إدوارد، ثم أدرت المؤشر بعـدها إلى برامج مسـرح المنوعات الذي كان يبث من نيويـورك. لقد ضحك العالم ورقص حـينما رحل الملك عن العرش. لقد كنت سعيداً أن أكون بمفردي هنا في كاتدرائية[١] ليل الصحراء العظيمة.

كنا بالطبع قد أرسلنا ما يفيد بأمر حضورنا إلى صبيا، ولقد حضر الأمير عند الساعة التاسعة صـباحاً في اليوم الثالث عشر من ديسمبر، شخصـياً ومعه عربتان لترافـقنا إلى العاصمة القـديمة. كان اسمه عـبدالرحمن الغنيم وهو أحـد موظفي

(١) الكاتدرائية: كلمة يونانية تعني كنيسة الكرسي الأسقفي. (ابن جريس).

الخدمة المدنية السعودية، وكان حسن النية إلى حد ما، غير أنه كان شخصاً لا يهتم بشيء خارج حدود روتينه اليومي. لقد بدأ السفر سريعاً على ظهر السيارتين المثقلتين بالحمل على امتداد نخلان، الذي عبرناه على مسافة (٥٠٠) ياردة لنسلك الجانب الأيسر في براري من عشب الثمام المتكتل، التي تتخللها مساحات مزروعة وشرائط من غابات الطلح. لقد ركب خمسة منا في سيارة الأمير ووقف أحد العبيد بصورة خطرة على جانب السيارة وهو يتمايل نحو هذه الناحية أو تلك ليتجنب الأغصان الشائكة للأشجار والجنبات التي شققنا طريقنا خلالها بالسرعة التي يسمح بها الطريق الوعر. لقد كان مجرى نخلان يبتعد تدريجياً عن ممرنا ناحية اليمين داخل مجرى تكسوه جنبات قصيرة وكان طوله (١٠٠٠) ياردة مكوناً دهليزاً بين بركاني العكوة. ثم وصلنا سريعاً إلى طرف طريق الصخور البركانية وسلكناه، وقد انتشر إلى الخارج من عند المخروط الداخلي وليبرز إلى ما يليه إلى وادي سافانا واسع والذي بدوره كان قد أفسح الطريق إلى الصحراء ذات الأشجار القصيرة.

تقع فيما يلي هذه قرى صبيا بمزارعها الممتدَّة إلى البعيد، والتي وصلنا إلى طرفها بعد عشر دقائق. لقد كان اسم أولى هذه القرى هو الحسيني، وهي منطقة زنوج من المجموعة نفسها التي كانت قد سكنت في الحسينية، وكانت تحتوي على عدد كبير من العشش التي تشبه خلايا النحل وتقع على مسافة ميل واحد إلى الجنوب من طريقنا وعلى الجانب الأيمن لوادي صبيا، والذي يشق طريقه إلى البحر في استقلالية وقليلاً ناحية الجنوب من دلتا بيش العريضة. ثم وصلنا بعد دقائق

إلى قرية الخواجيه[١] الصغيرة التي تقع على جانب الطريق ومنها إلى صَلْهَبَة على بعد نصف ميل إلى ما يليها على جانب الوادي. ويتفرع الطريق بعد ذلك ليذهب ناحية اليمين إلى بيت السيد وهي قرية منفصلة من بيوت مبنية من مواد البناء، مكونة مقر سكن أسرة الأدارسة، ثم إلى ناحية الشمال إلى صبيا الجديدة التي كانت محطة الوصول المباشرة. لقد اكتملت المجموعة بالقرية الشبيهة بخلية النحل لمستوطنة قديمة، تسمى صبيا البالية، التي تقف قليلاً إلى الخلف ناحية الجنوب الغربي في الفجوة التي تقع بين صبيا القديمة وبيت السيد. ويمكن اعتبار كل هذه القرى أنها مكونة لبلدة صبيا التي تمتد على هذا الأساس فوق مساحة معتبرة يقدر عدد سكانها محلياً بحوالي (٢٥٠٠٠) نسمة[٢].

لقد واصلنا سفرنا عبر حقول الدخن بعد أن توقفنا لمسح المنظر من مفترق الطريق، ثم دخلنا صبيا الجديدة بالقرب من إحدى آبارها الخارجية، ويقع قريباً منا وعلى يميننا المسجد الرئيس للبلدة، وهو من مواد بناء قوية ومزخرف بالجبس من الداخل والخارج. ثم وصلنا إلى قرب مركز البلدة، بعد أن شققنا طريقنا عبر ممرات متعرجة بين قرى القش الكثيفة جداً إلى حيث يوجد بناء كبير مطلي بالجير

---

(١) يعود نسبة قرية الخواجية إلى الأمير. دريب بن مهارش الخواجي، الذي اختط مدينة صبيا عام، (٩٥٨م). (ابن جريس).

(٢) يقدر فيلبي عدد سكان صبيا عام (١٣٥٠هـ) بحوالي (٢٥٠٠٠) ألف نسمة، والعقيلي في عام (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) يقدر عدد قراها بـ (١٢٧) قرية، وعدد سكانها حوالي (٥٧٢٨٢) ألف نسمة، وصبيا تعد من كبريات محافظات جازان التي بلغ عدد سكانها في المدن والقرى والأرياف من السعوديين فقط في عام (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) حوالي (٩٦٨٤٨٦) ألف نسمة. انظر: العقيلي، **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية**، ص ٢٥، محمد صبري محسوب وآخرين، **دراسات في جغرافية المملكة العربية السعودية** (القاهرة: مكتبة رشيد، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) جـ٢، ص ٢٣٣ . (ابن جريس).

الأبيض ومزخرف بالجبس يملكه التاجر الرئيس المحلي واسمه أحمد البهكلي[١]. وتقع بجوار هذا مجموعة من مبان مماثلة كانت في السابق مقراً لسكن الإدريسي، غير أنه يشغلها الآن الحاكم السعودي، لتضم سكن أسرته ولتضم أيضاً مكاتب الحكومة التي كان من أهمها مكتب المحكمة الشرعية، وأقسام مالية الدولة[٢]. لقد خصصت لنا مجموعة من العشش بالقرب من هذه لتكون مقراً لنا، ولقد كانت عشتي نظيفة لطيفة وواسعة الأبعاد بالنسبة لي مع مسطبة من الطين للجلوس أو النوم عليها خارج العشة، وتقف كل عشة في حوش خاص بها تسورها الأعواد وتبلغ مساحتها ما يزيد على الأكر الواحد.

لقد نمت مستوطنة صبيا الجديدة بأسلوب متقطع متناثر حول مقر سكن الإدريسي الذي كان نفسه قد شيد على أساس التجربة كسكن يلجأ إليه صيفاً لقربه من الوادي أكثر بدلاً من القصر الرئيس (بيت السيد). لقد تحول المكان إلى خراب بعد حربه مع القوات السعودية أثناء المتاعب الحديثة نسبياً مع الإدريسي وقد تم هجره مؤقتاً، وبرغم أنه قد عاد إلى الحياة مرة أخرى بسرعة مدهشة، وبدا مظهره وكأنه قد أسس منذ زمن. كانت البلدة القديمة التي كان يقضي الأدارسة صيفهم فيها، تقع على جانب الوادي، إلى الأسفل، وكان يهددها تآكل السيول لها، وقد تمَّ هجرها تدريجياً في استحسان لصبيا الجديدة[٣]. لا يزال هنالك بعض السكان

(١) أسرة آل البهلكي من الأسر العلمية العريقة في بلاد جازان، بالإضافة إلى أنه ظهر منهم تجار ووجهاء وأعيان برزوا في مجالات عديدة. (ابن جريس).

(٢) لا زال بعض آثار هذا المبنى ماثلة للعيان، بل إن منطقة صبيا يوجد بها العديد من الآثار المتنوعة في أشكالها وأماكنها وعصورها، وهي جديرة بالدراسة حبذا لو تصدى لها بعض طلاب الدراسات العليا في إحدى الجامعات السعودية. (ابن جريس).

(٣) الخوف من أمطار الوادي يعد من الأسباب الرئيسة إلى نقل الأدريسي عاصمته من مقرها القديم إلى المقر الجديد (بيت السيد) في الحسينية. (ابن جريس).

في صبيا القديمة إلاَّ أن عددهم كان قليلاً. ولا تزال صبيا الجديدة تجد مؤنتها المائية من الآبار، غير أن مصدر مائها الرئيس كان صهريجاً موضوعاً في مجرى السيل ومدعماً ضد السيول ببناء مثبت بالأسمنت، ومثبت كذلك من الداخل حتى مستوى الماء الذي كان على عمق (١٠) أو (١١) قامة إلى أسفل. ويشرف المجتمع كله على هذه البئر وتقوم عصبة من العبيد بسحب المياه منها وصبها في الجرار أو العلب التي تحضرها الفتيات على ظهور الحمير من المنازل المختلفة مقابل نسبة صغيرة من الحبوب لأجل الصيانة. يكون كل من هذه البئر وبطن المجرى موقعاً للترفيه والنزهة خاصة عند الظهيرة ولكل السكان، ولقد كان في مثل هذه الأوقات بؤرة لمنظر مرح، وفيه يسمح للصبيان وللفتيات المحليين باللقاء ولكبار القوم بمناقشة مناشط اليوم والأخبار القاصية والدانية.

يكوِّن القطن هنا إلى جانب الدخن والسمسم محصولاً مزدهراً ويزرع على مساحات واسعة على مستوى متبعثر. كما يزرعون أيضاً نباتاً يسمى الحور وهو مصدر صبغة النيلة المشهورة في مساحة كبيرة أيضاً بما في ذلك الهضبة. ويستديم المحصول الذي ينتج عن البذرة لهذا النبات مدة خمس سنوات قبل استعادة بذره، ويماثل في ذلك برسيم نجد الذي يظل حصاده متكرراً مدة تتراوح من خمس إلى ثماني سنوات. لقد تم تثبيط زراعة النيلة حديثاً وذلك بسبب اجتياح أصباغ الأنيلين الأوروبية، ولعل مما يؤسف له أن النيلة الآن صناعة تحتضر. كما يجب زراعة بذور الدخن الصغير متكرراً عاماً بعد عام لكل محصول، غير أن محصول الذرة يحصد أربع مرات في السنة في بلاد تهامة هذه من بذر مرة واحدة. ويجلب الموز الأخضر الممتاز الشديد الحلاوة بكميات كبيرة من جبل الريث ومن الجبال الأخرى التي تنتج أيضاً عنباً ممتازاً.

يقال إن صلهبة التي تقع عكس التيار بالنسبة لصبيا الجديدة كانت النواة التي تطورَّت في نهاية الأمر لتكون صبيا. وتقع على جانبها القريب أطلال قلعة قديمة تعود إلى زمن الأشراف، أو إلى فترة ما قبل الحكام الأدارسة، والتي بدورها سبقت النظام التركي من عام ١٨٧٢م وما يليه. وتقع قرية الحسيني تجاه أعلى الوادي وإلى البعيد، بينما تقع على مسافة الميلين مع اتجاه الوادي، غرب صبيا الجديدة، قرية العدايا الكبيرة الشبيهة بخلية النحل وبأراضيها الزراعية التي تمتد تقريباً إلى قرب الكثبان الرملية على امتداد ساحل البحر. لم تكن صبيا نفسها بعيدة عن البحر وهي ترتفع قليلاً جداً فوق مستواه (حوالي ٥٠ قدماً) وقد كانت جازان مرئية لنا في غير وضوح تام وبها قلعتها المنظرانية التي تقف فوق قمة التل ناحية الجنوب الغربي. ويمر الطريق هنا فوق حقول مزروعة من على الجانب الأيسر لوادي صبيا، وإلى حدود بئر وقرية الغراء في أجمة لأشجار علب وغيره، تبطن هذه البئر من عند قمتها إلى سطح مائها باللبنات وتتوج بفم واسع مثبت بالإسمنت وتعمل هذه البئر عن طريق مجموعة من العجول المخصية وهي تقوم بسحب المياه عند عمق (١١) قامة. كما توجد بئر أخرى بين كل من الغراء وصبيا وعلى طريق جازان -وهو اليوم طريق سيارات مزودً بخط تليفون-. تسمى هذه البئر باسم (بئر لزكري) وتقع داخل أجمة أشجار بينما تكسو جوانب وادي صبيا التي تبعد عنها إلى الخلف بحوالي نصف الميل مجموعة من أشجار العلب. تبعد الغراء التي توجد بها آبار أخرى إلى جانب تلك التي تقع على جانب الطريق على مسافة نصف ساعة سفر بالسيارة من صبيا الجديدة، أو قل حوالي خمسة أميال.

كان العضو الرئيس في المجموعة التجارية لصبيا -كما ذكر من قبل- هو أحمد بهكلي، صاحب مؤسسة، وقد استقرت أسرته منذ زمن طويل في جازان.

ولقد حضر إلى هنا، ليس بدافع شخصي ولكن للعناية بمصالح شخص اسمه محمد يحيى الباصهي، الذي كان والده قد أعدم قبل ست سنوات بواسطة الإدريسي، وذلك بسبب تعاطفه مع النظام السعودي. لقد خلف والده أملاكاً واسعة هنا، من منازل وأراض زراعية ومصالح تجارية معينة، لأمر عناية ابنه، ولذا فقد استقر محمد يحيى هنا لإدارتها[١]. كانت صبيا شعلة من الضوء في تلك الليلة التي كنا نتمنى أن تكون الأخيرة لرمضان. غير أن ذلك لم يكن، إذ لم يشاهد الهلال الجديد. ويواجهنا تبعاً لذلك يوم آخر للصيام وقد سهر أهل صبيا بالولائم حتى الساعات الباكرة من الصباح، بينما ابتهج أطفالهم بالألعاب النارية والمفرقعات وارتفع نهيق الحمير، وصياح الديوك وشارك حتى الأطفال الرضَّع إذ أضافوا مساهمتهم للضجيج العام وذلك بالبكاء المتواصل خاصة ذلك الطفل الذي يقع -بجواري والمريض جداً- في التكل. كانت المراجيح والدوارات لا تزال تكسو ساحة السوق، حينما مررت عبر المكان بعد أيام في طريقي إلى فيفا، وكانت هذه الألعاب قد نصبت لإبهاج الأطفال خلال فترة الإجازة، كما قد بدأت شوارع البلدة وحياتها تدب عائدة إلى طبيعتها[٢].

إن صبيا مركز مهم لصناعة الزيوت (زيت السمسم)، ولقد رأيت واحدة أواثنتين من معاصرهم البسيطة وهي تعمل. كانت خشبة اللوحة المستوية للمعصرة مكونة من وعاء شبيه بالهون الذي توضع فيه البذور بينما يطوف حوله جمل وقد

(١) يحيى باصهي: يعد من وزراء الإدريسي الرئيسيين، وعند ظهور الحكم السعودي شكى الأدريسي في نوايا باصهي، وميله لابن سعود فقتله وأحرق منازله ومزارعه. وقد شاهدت في صيف عام (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م) بعضاً من بيوت باصهي وعقاراته مدمرة ويظهر عليها أثر الخراب والحريق. (ابن جريس).

(٢) هذه من العادات الاجتماعية، والمهن الاقتصادية التي لا زالت تمارس في أجزاء من منطقة جازان حتى اليوم. (ابن جريس).

غُطِّيت عيناه، ويقوم أثناء طوافه بتحريك اليد التي تدير حجر الرحى. يقي السقف المصنوع من الأعواد الحيوان من حر الشمس، غير أنني أحس بالشفقة ناحية الحيوان بسبب حركته غير النهائية في تلك الحلقة الصغيرة المفرغة، التي يصل قطرها إلى ضعف طول جسمه[١]. تجاور المقبرة طريق الحج الرئيس الذي يقود إلى مكة عند الضواحي الخارجية للبلدة وكانت مجموعة قبورها بائسة، وبالية وصغيرة، وقد برز من بينها قبر واحد، هو ضريح بسيط ولكنه كبير وله سقف محدودب قليلاً، مبني من الخرسانه، والذي تسجى بداخله البقايا للسيد محمد الإدريسي، الذي توفي عام ١٩٢٢م. لقد كان هو أول وآخر حاكم إدريسي مؤثر على تهامة عسير[٢]، كما أن ابنه قد خلفه من بعده واسمه علي، الذي كان قد أبعد عام ١٩٢٦م وذلك عند إنشاء قاعدة حماية سعودية على البلاد تحت الحكم الاسمي لأحد أعمامه واسمه الحسن الذي كان قد أبعد آخر الأمر إلى مكة وذلك عندما ألحقت تهامة عسير[٣] آخر المطاف إلى المملكة العربية السعودية، ولم يتم هذا بدون العصيان الذي ورد ذكره عام ١٩٣٠م.

كان لكل قسم من أقسام صبيا هذه مقابره الخاصة به غير أن مقبرة الحسيني التي تقع أعلى المجرى كانت كبيرة بصفة خاصة، وتملؤها قبور عديدة منخفضة، ومنتشرة فوق كل المساحة التي انتشر فوقها حصى صغير كوارتزي أبيض، ربما ليكسب الموقع لمسة مرحة.

---

(١) هذه من العادات الاجتماعية، والمهن الاقتصادية التي لا زالت تمارس في أجزاء من منطقة جازان حتى اليوم. (ابن جريس).

(٢،٣) إطلاق فيلبي على هذا الجزء اسم (تهامة عسير) غير صحيح، وإنما تسمى (تهامة جازان) أو (منطقة جازان) أو (منطقة صبيا)، مع العلم أن الإدريسي مد نفوذه لبعض الوقت إلى تهامة عسير، بل وإلى مرتفعاتها. (ابن جريس).

الفصل السادس والعشرون

جازان[1]

يدخل طريق جازان، فيما يلي مزارع الدخن الواسعة الانتشار وحقول السمسم الغراء، والتي تعترضها سدود (مساطب) عديدة لتنظيم السيول التي يقال إنها متكررة وغزيرة، إلى شريط عريض لصحراء ذات شجيرات قصيرة وتكثر بينها شجيرة العلقاء والحشائش المألوفة والتي تآكلت كتلتها بحركة السيارات خاصة خلال حملة عام ١٩٣٤م.

وصلنا إلى غابة أشجار السلم الكثيفة بعد سفر نصف ساعة من عند صبيا، وكانت هذه الأشجار تملأ تماماً المناطق السفلى الشبيهة بالدلتا لوادي ضمد، الذي ينحدر مخترقاً السهل من عند قاعدة كتلة فيفا. ثم يندفع الطريق عبر هذه الغابة ماراً ببئر تُسمى سلمة داخل مساحة واسعة مكشوفة داخل الغابة؛ وهي عبارة عن بناء صهريجي مستدير إلى مستوى الماء عند عمق خمس قامات، ثم يبرز الطريق إلى ما وراء الجانب الأيسر لمجرى ضمد ليتجه إلى سبخة واسعة مستوية، ينمو عليها العديد من لافندر البحر، ويبدو أنها كانت خليجاً صغيراً تابعاً للبحر، أو ربما كانت مجرى قديماً لضمد نفسه، ذلك لأن السيول الجبلية فوق هذا السهل الواسع المستوى قد تفعل الكثير وبأسلوبها الخاص. كانت كل هذه الأرض المستوية صلدة وقوية بما فيه الكفاية لتسمح بسرعة حركة ممتازة للسيارات، غير أن سلسلة من

(١) لمزيد من التفصيلات عن جغرافية وتاريخ منطقة جازان، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٣٧ ــ ٢٠٣، محمد العقيلي، **تاريخ المخلاف السليماني**. جزءان. (ابن جريس).

كثبان رملية -تدعى قوز، قيزان- منخفضة تقع قليلاً إلى الأمام، كانت قد اعترضت بين طريق السيارات وبين البحر، الذي بدأ لونه الأزرق العميق يشاهد فيما يليها. لم يكن هذا المسطح الصغير من الماء هو البحر نفسه، بل خليجاً كبيراً يسمى قوز الجعافر والذي يجد الحماية من الجانب البعيد بواسطة نتوء طويل مستوٍ ومقوس من الرمال ومبطن من الجانب الداخلي بشريط طويل من مستنقعات أخدودية.

يعبر الطريق الآن بين كثيبين رمليين مرتفعين يسميان بيبان جازان (البوابات) ثم يصل إلى سلسلة رملية طويلة منخفضة تسمى المنجارة وهي تطوق آخر المسطحات الملحية التي تفصلنا عن النتوء الصخري لجازان نفسها. كانت هذه هي دلتا وادي جازان، وتقع داخلها إلى البعيد، على يسارنا وعكس اتجاه أعلى الوادي، كل من بئري الحفائر وعمير[1] إلى جانب ما لا حصر له من جمال القوافل ذهاباً وإياباً بينهما وبين البلدة التي تسحب كل حاجتها من المياه منهما، ذلك لأنه ليس بالبلدة آبار حلوة الماء. كانتا هاتان البئران محروستين بعدد من القلاع، تسمى إحداهما قلعة السبخة التي تحرس مدخل جازان عبر المسطح الملحي. وينحدر تل جازان فيما يلي ذلك إلى أسفل حافة البحر، حيث يوجد عرن يسمى المطلع، والذي يكون خط دفاع داخلي طبيعي.

لم يمض وقت طويل حتى كنا عند عتبة باب مقر سكن الحاكم، وذلك لتحية محمد بن مهدي قبل توجهنا إلى مركز القيادة الذي كان قد أعده سكناً لنا. لقد كان مقره بناءً حديثاً عند قاعدة محط السفن الوحيد الذي كان قد تم بناؤه بغرض

(١) تعرف حالياً بالعميرية، وهي نسبة إلى اسم حافرها ويدعى عمير. للمزيد انظر: محمد العقيلي. **المعجم الجغرافي للبلاد السعودية**، ص ١٧٥ . (ابن جريس).

أن يستخدمه الكتبة المراجعون لمصلحة الجوازات والجمارك، والذي أصبح الآن مقراً لإقامتنا المؤقتة في جازان، وسرعان ما قمت بتنصيب نفسي وممتلكاتي في غرف الطابق الأعلى، تاركاً الطابق الأرضي لرفاقي بينما ذهب رجال الجمال والمرشدون المحليون إلى أصدقائهم المختلفين أو أقاربهم في الأقسام الشبيهة بخلية النحل داخل البلدة. انتشرت هذه المساكن بصفة عامة من عند الجزء الرئيس للبلدة وإلى أعلى التل مكونة ضاحية كبيرة متعرجة، بينما شغلت المباني الحكومية والمستودعات الخاصة ومكاتب التجار وما شابه ذلك المنطقة المنخفضة التي تقع على واجهة البحر، وقد كانت كل المباني من الحجارة المغطاة بالجبس من الداخل والخارج.

كانت كل المباني متداعية والبناء الذي نشغله ليس بأوفر حظاً. إلاَّ أن موقعه كان مثالياً. لقد سيطرت نوافذ البناء في الطابق الذي كنت أشغله على منظر شمولي للميناء وخط الساحل الجذاب عند حافة التل الناتئ وإلى قمته. كان يرسو بالميناء في حينها حوالي (٣٠) من السنابك من أحجام مختلفة في المرسى أو كانت معلقَّة للصيانة كما كانت هنالك صناعة آلات صيانة للسفن نشطة في هذا الميناء. لقد ترتبت أكياس الدخن وبالات أوراق الدوم والقصب في أكوام على صدر الساحل في انتظار الشحن، ومعظمها كما يبدو كان في طريقه إلى عدن. وكانت مصوّع ميناء آخر على البحر الأحمر والتي تتعامل معها جازان تجارياً، وذلك بشحن حوالي (٢٥٠٠) جوال من ثمار الدوم كل سنة لأجل صناعة العاج المزيف. كما كان الدخن الذي رأيته هو آخر شحنة تغادر الساحل العربي ذلك لأن الحكومة السعودية قد فرضت حظراً يمنع تصدير كل الحبوب.

قدمت الحكومة أيضاً أموالاً لبناء مدرسة جميلة على ساحل البحر، تقع بعيدة عن الميناء، داخل تجويف رملي لطيف مكوناً انبعاجاً في الدائرة[١]. لقد كان هذا هو أول انطباع لي عن جازان، وبعد أن نلت قسطاً من الراحة التي كنت أتطلع إليها وبعد أن قمت بالسباحة في البحر عند نهاية الرصيف، جلست في ردهة الحجرة أراقب الدقائق الأخيرة لشمس رمضان، وهي تتوقف ناحية أفق البحر الصافي ثم تغوص في بطء من خلفه مع انطلاقة ختامية للشعاع الأخضر المألوف. لقد انتهى اليوم وانتهى كذلك شهر رمضان. ولقد صمنا فقط (٢٩) يوماً بدأت في (١٦) ديسمبر، في ذلك اليوم حينما استيقظنا في سيل غربان وسرنا إلى الحُرَجَةَ، غير أن الناس هنا في تهامة قد صاموا ثلاثين يوماً.

ما أروعه من هدوء حينما يوقظ المرء في الساعات الباكرة ليس لأمر ضروري ومهم، ولكن لتناول طعام غداء غير مرغوب! وياله من كرم أن يجد المرء براد الشاي بجوار سريره حين يستيقظ من نومه، ويجد غليوناً ليدخنه في سلم وأمان قبل أن يعد المرء نفسه لمناشط اليوم التي بدأت في حالتي بغطسة في البحر. لقد اختفت كل الأحاسيس بالتعب التي كانت قد تراكمت خلال الأيام الماضية وبلمسة عصا سحرية، ولقد كان من الممتع أن يرتدي المرء أزياء نظيفة من قماش اللينن مرة أخرى. ثم توجهنا عند الساعة السابعة صباحاً من يوم الأحد، أنا ورفاقي، وقد كنا في أجمل ملابسنا ضمن الحشد المتعدد الألوان المبتهج إلى موقع التجمع بجوار

(١) جازان لا تخلو قبل منتصف القرن الهجري الماضي من بيوتات علم وفكر وأدب، لكن المدارس النظامية لم تفتح في منطقة جازان وغيرها من مناطق جنوبي البلاد السعودية مثل: ـ أبها، وبيشه، والظفير في بلاد غامد إلاّ عام (١٣٥٤ ـ ١٣٥٥هـ) . للمزيد انظر: غيثان بن جريس. **تاريخ التعليم في منطقة عسير ١٣٥٤ ـ ١٣٨٦هـ**. جـ١، ص ٥٢ ، ٦٤ . (ابن جريس).

المصلى، أو مكان صلاة العيد للشكر لله على إتمام صيام آخر قد أضيف إلى سجل حسنات المرء. كان المكان واسعاً ويقع بين الحدود الخارجية للعشش الشبيهة بخلايا النحل ومناجم الملح المحلية.

وكانت الأرضية من رمل أبيض، ولا يدل على الغرض من هذا التجمع الذي يحدث مرتين في السنة إلاَّ وجود محراب الصلاة المبني والمنبر[١]. وانتهت الصلاة القصيرة، بخطبة طويلة حتى الإملال، كان قد ألقاها القاضي المحلي، وهو رجل طويل، كثيف اللحية، جميل المحيا، بصوت مريح وموسيقي، وكانت المناسبة عظيمة لكل الأطفال الحاضرين، وهو أول حضور لهم لصلاة جماعة بعد أول تجربة لهم مع الصيام. إن الإسلام رؤوف بالأطفال ولا يصر على صيامهم أو الالتزام بأوقات الصلاة المفروضة، ولكن عندما يبدؤون هم بدافع ذاتي، أو طاعة لوالديهم فلا عودة بعد ذلك، وعليهم أن يتصرفوا بصفتهم رجالاً في كل أمور الطاعة الدينية. إن تأكيدهم للعقيدة بمحض رغبتهم المستقلة، يضع على عاتقهم الالتزام الذي يجب ألا يتم تجاهله بغرض الإفلات من العقوبة. كانت ملابس كل الأطفال قد تزينت بألوان قوس قزح، وهي مصنوعة من الحرير أو الستن إلى جانب أغطية الرأس الجديدة وكان كل الرجال قد ارتدوا أحسن ما لديهم، على مستوى الأمير وأتباعه في منتصف الصف الأمامي، إلى أفقر عامل في الموانئ أو معادن الملح[٢].

---

(١) من السنة في صلاة العيدين أن تكون في أرض مكشوفة خارج القرى والمدن إلاّ في حالة وجود عذر قاهر يمنع ذلك كالأمطار والحروب وما شابهها. (ابن جريس).

(٢) للاطلاع على مزيد من العادات والأعراف المختلفة في جنوبي البلاد السعودية، انظر: غيثان بن جريس. **عسير ١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ**، ص ٣٥ ـ ١٠٨، محمد العقيلي. **الأدب الشعبي في الجنوب** (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) (جزءان) (ابن جريس).

أشرف الأمير بعد الصلاة على مراسيم الاستقبال الرسمي للكل، وذلك في الفناء الواسع في مقر سكنه المتداعي. لقد احتلَّ القاضي موقع الشرف بجلوسه على يمين الأمير، بينما جلس إلى يساره أحد سادة الأدارسة. ثم قدمت فناجين القهوة وأكواب الشاي بالطريقة المألوفة عبر التاريخ وكانت المحادثات متقطعة، غير أن أكثر الفقرات التي كانت قدمت أثناء التجمع قد قوبلت باستحسان، كانت قصيدة جيدة فوق المعتاد، ألقاها الشاعر علي السنوسي الذي ربما كان ينتمي بقرابة بعيدة إلى أسرة السنوسي. ثم دعا الأمير كل الحضور بعد ذلك لتناول وليمة العيد التي تألفت من لحم ضأن ممتاز وأرز وقد وضعت في أنحاء الغرفة في حوالي عشرين من الأطباق ذات الأرجل. انتهت بذلك المهمة الرسمية، ويستطيع كل الحشد أن يتجول بحرية متنقلاً من منزل لآخر في زيارة الأصدقاء أو الموظفين للتهنئة بهذه المناسبة العظيمة ولتذوق ما لديهم من قهوة وحلوى.

قمت بزيارات لعدد من الموظفين الرئيسيين، كان من بينهم عبدالعزيز الضميري، وهو رئيس مصلحة المالية المحلي، وصالح بن إبراهيم النفيسي، مدير الشرطة، وعبدالله البسام وهو صديق قديم لي من أيام مكة ويشغل الآن وظيفة ضابط الميناء وهي وظيفة مهمَّة، ثم قمت إلى جانب هؤلاء بزيارة حسن البهكلي، وهو رئيس الشركة، والذي كنت قد ذكرت ممثّله في صبيا من قبل، كما رأيت وصول قافلة صغيرة من الحمير أثناء وجودي في منزله في السوق. وقد جلبت معها المؤنة اليومية من نبات القات الطازج وقد تمَّ لفها في أوراق أشجار الموز الباردة[1]. وستكون لي فرصة أخرى للحديث عن هذا المخدر المحلي الجبلي

(١) شجرة القات من الأشجار المرغوبة عند أهل جازان، يؤكل ورقها بحجة أنه يضفي على من يأكلها الاسترخاء والانبساط العقلي والنفسي والجسمي. ويتم الحصول عليها من منابتها الرئيسة في جبال فيفا وبلاد اليمن. والدولة تسعى جاهدة إلى محاربة استخدامها لما ينتج عن أكلها من أضرار جسدية واقتصادية، وربما أخلاقية. مع العلم أن هناك بعض الدراسات المعمولة حول هذه الشجرة وأضرارها، ولكن في رأيي لا زلنا نحتاج إلى دراستها من جميع الجوانب. (ابن جريس).

بتفاصيل أكثر. لقد اكتفيت هذه اللحظة بتذوق قطعة منه، ولم تكن مثيرة للاهتمام، وقد وعدني مضيفي أنه سيمنحني الفرصة ذات يوم لحضور جلسة للنادي المحلي لآكلي القات وذلك لكي أمنح العشب القيم جداً، التجربة الصحيحة تحت الظروف المناسبة لذلك. لقد تحدثنا حول هذا الموضوع أثناء اجتماعنا بالأمير، حينها أعلن القاضي بدون تقيد، أن النبات ليس محرماً ويمكن تعاطيه دون إخلال ديني. لقد كانت كل السفن رافعة أعلامها لأجل مناسبة العيد، وكان بعضها قد رفع أعلامه إلى علو عظيم، واكتسى البعض الآخر منها بأقمشة بهيجة تصنع منها الرايات إلى جانب الأعلام المختلفة الوطنية التي ترفرف فوق مؤخراتها. كما تحمل معظم السنابك العلم السعودي ويرفع غيرها العلم الأحمر اليمني، كما قد رفع القليل منها ولعله من مصوَّع العلم الإيطالي، ثم أطلقت المدافع التي تقع بجوار القلعة من فوق الجبل تحياتها وعلى فترات وذلك بعد صلاة العيد ثم واصلت ذلك أثناء اليوم وعند مواعيد الصلاة. لقد كان صباحاً مرحاً وممتعاً بالنسبة لي، وقد خذلني شيء واحد، هو البريد الذي كنت أظن أنه قد تراكم بانتظاري، ولكنه لم يصل بعد.

قمت بمرافقة مدير الشرطة لزيارة القلعة التي تقع على رأس التل بعد أن نلت شيئاً من الراحة كما قمت بإطلاق النار على طيور النورس وغيرها من طيور البحر التي كانت تملأ صدر البحر والميناء. لقد تمَّ بناء هذه القلعة قبل أربع سنوات تحت إشراف الحكومة السعودية، حسب التصميم الذي أعده خالد القرقني وهو من أبناء طرابلس والذي ظلَّ على رأس العمل عند ابن سعود مدة طويلة يشغل وظيفة وزير بلا وزارة، وشارك في التصميم مهندس نجدي يسمى القفيدي. وتحتل القلعة موقعاً مسيطراً على قمة التل بلا شك، وقد بنيت من الصخر المحلي الذي كان قد قطع من جوارها، وهي عموماً بناء جيد التركيب مفصلة من الداخل بأجنحة مريحة

للحامية الدائمة إلى جانب حوض كبير منحوت في الصخر لتخزين مياه الشرب التي يتم جلبها من آبار عمير التي قيل إنَّ مياهها أكثر حلاوة من مياه الحفائر. تتألف قوة الشرطة التي يرأسها صالح النفيسي من (٥٠٠) رجل منتشرين في مساحات كبيرة من بلاد تهامة، منخفضها ومرتفعها. لقد كانت فرقة شرطة جازان مكونة من مئة من الضباط والرجال، وقد تبادل أداء الواجب في هذه القلعة حوالي ثلاثين منهم. كما كانت هنالك مراكز أخرى تحتوي على قوة من ٢٠ إلى ٣٠ رجلاً، والذين كانوا يترددون على جازان لأجل التغيير من مراكز القيادة في كل من الحقو وصبيا، والعارضة، وفيفا، والموسم، وصامطة، وبني مالك، وجبل حريص، وأبو عريش، وجزر فرسان، ووعتان، والخوبه، وبلغازي، والشقيق، وقنا وعل البحر والقحمة، التي تقع إلى البعيد ناحية الشمال على الساحل.

لا تعد قوة شرطة مكوَّنة من (٥٠٠) رجل كبيرة لمثل هذه البلاد الواسعة غير أنني أعتقد أن مهمتهم كانت سهلة في حفظ الأمن وذلك لأن سمعة ابن سعود وحدها كانت كافية لإسكات المخطئين. إلاَّ أنه قد تحدث برغم ذلك بعض المشاكل وقد علمت أنه خلال شهر رمضان قد تمَّ قطع رأسي رجلين من رجال القبائل وتمَّ ذلك علناً في جازان وبحكم القاضي، وذلك لعلاقتهما بجريمة قتل كانت قد وقعت في جبال تهامة. ينتمي صالح نفسه إلى أسرته المشهورة في القصيم وكان موطنه هو قرية الخضراء بالقرب من بريدة وهو حفيد لعبدالله النفيسى الذي كان وكيلاً لابن سعود في المجالين الدبلوماسي والتجاري في الكويت مدة امتدت إلى ثلاثين عاماً. إنني أتذكره على أي حال في عام ١٩١٧م وهو هناك، وذلك عندما تدعمت ثقة مليكه فيها.

يبدو أن أصل النتوء الصخري لجازان هو من قبة ملح مثله مثل كل الظواهرالمماثلة في جنوب الجزيرة العربية ولربما كذلك في جزر فرسان التي كانت أعمدة الملح فيها تغوص إلى أعماق بعيدة[١]، كما لاحظ ذلك مهندسو شركة شل حينما كانوا يبحثون عن النفط بإذن من الإدريسي قبل قدوم الحكم السعودي. كما يقع شريط من الجبس فوق طبقة الملح هذه في هذا النتوء الصخري، ويبدو أنها تمتد إلى القمة، وتكون بالقرب منها صخرة صلدة تصلح لعمليات البناء. لم يزد ارتفاع التل عن (١٠٠) قدم فوق سطح البحر، ويشغل مساحة تقدر بـ (٢) إلى (٣) أميال مربعة.

ولم تكن تلك القلعة السابقة التي كان قد أنشأها الإدريسي[١] على القمة ولكنها منفصلة وتقع قليلاً إلى غرب القلعة السعودية، ويقود إليها طريق جيد من البلدة، والذي لا بد أن يكون قد استخدم لنقل إحدى المدافع الإيطالية في يوم ما إلى موقعها هناك خارج أطلال القلعة التقليدية، حيث لا تزال موجودة لتكون تذكاراً لنظام قد انطوى. كما توجد على أي حال قلعة ثالثة إلى أسفل، عند قاعدة التل وقريباً من مستوى البحر على بعد (٢٠٠) ياردة من حاجز الماء. كانت هذه هي القلعة الأصلية التي أسسها الأشراف[٢]، وكانوا هم الحكام الفعليين للمنطقة حين وصول الإدريسي الأول من إفريقيا بين عامي (١٨٤٠م) و(١٨٥٠م)، والتي كان قد احتلها الأتراك حينما قدموا إلى عسير واليمن بعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ[٣]،

(١) للمزيد عن جزر فرسان، انظر: إبراهيم عبدالله مفتاح. **فرسان بين الجيولوجيا والتاريخ**. (مطبوعات نادي جازان الأدبي، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م)، ص ٥ وما بعدها (ابن جريس).

(٢،٣) لمزيد من الإيضاح عن تاريخ منطقة صبيا وما حولها من بلاد جازان منذ عهد الأشراف إلى عهد الأدريسي، انظر: **تاريخ الخلاف السليماني**، للعقيلي. حـ١، ٢٦١ وما بعدها. (ابن جريس).

وكان ذلك نتيجة طبيعية لافتتاح قناة السويس. لقد كان محيط جازان مبرقعاً بمراكز المراقبة الصغيرة إلى جانب هذه القلاع المركزية العظيمة، وذلك عند كل مناطق النقاط الرئيسة. وكان واحد منها يقف على مطلع عرن، وآخر يحرس معادن الملح، كما كان آخر يسيطر على تقاطع الطريق عند الدلتا (قلعة السبخه)، كما كان هنالك اثنان لحراسة آبار كل من الحفائر وعمير، ويوجد آخر على الكورنيش (قلعة بحرية) وأخيراً تقع قلعة العشيما على الجانب الداخلي الجنوبي للنتوء. لقد كانت جازان جيدة الحماية، بينما توجد إلى مسافة ناحية الجنوب وعلى طريق اليمن وعند قرية المضايا قلعة أخرى تعود إلى أيام الإدريسي.

كان اسم مؤسس نظام الإدريسي في جازان هو أحمد الإدريسي[1] الذي قدم إلى الجزيرة العربية -ويجب تذكُّر هذا- من قارة أفريقيا، ولم يأت وهو غازياً وإنما جاء بصفته رجل دين مشهوراً ومدرساً. لقد كان نظامه في عزلته الاختيارية روحياً مستديماً في صفته ولم يكن دينياً مؤقتاً، غير أن البلاد كانت حينها بلا قائد وكانت غير متماسكة مما دفع الناس إلى أن يقوموا بزيارته لإقامة العدل بينهم وبين قبائلهم وقد أخذوا يندفعون إليه أفواجاً بسبب تفوقه الروحي، وقد أحاطته هذه التوجهات بالضرورة، وبمرور الوقت بزخارف من السلطة شبه المؤقتة. ولم يحاول الإدريسي الأصل أو ابناه الاثنان بالرغبة في تحدي السلطة المؤقتة للأشراف، إلاَّ أن النظام التركي كان هو الذي أزاح الأشراف عن السرج، تاركاً للإدريسي سلطته الروحية وهيبته دون تدخُّل. لقد استمرَّ هذا الوضع حتى عام ١٩٠٨م أو ١٩٠٩م حينما

(١) هو من أتباع الطريقة الصوفية الأحمدية من مدينة القيروان، استقرَّ في صبيا سنة(١٨٢٩م)، بعد فترة طويلة من التنقل بين مصر ومكة واليمن. أما عن علاقة الأدارسة مع اليمن وعسير والدولة السعودية فيمكن الرجوع إلى كتاب: «**تاريخ المخلاف السليماني**»، لمحمد أحمد العقيلي، حـ٢، ص ٦٢٠ وما بعدها، عبدالمنعم الجميعي، **الأدارسة في المخلاف السليماني وعسير**، ص٩ وما بعدها (ابن جريس).

أصرَّ الأتراك على تحجيم أمور الشرع أو القانون الشرعي في محاباة لقوانينهم الوضعية، وقد قاد هذا إلى الكثير من المتاعب في كل من اليمن وعسير. لقد اضطرَّ الأتراك للانسحاب مؤقتاً من عسير في وجه التمرد الذي وقع، وانتهز محمد ابن علي -وهو الحفيد الأكبر لأحمد الإدريسي- هذه الفرصة التي أتاحها هذا الموقف لإقامة دولة مؤقتة كان هو أول حكامها. ثم توصَّل سريعاً إلى تفاهم ما مع الأتراك كما ساعد مادياً على دخول الشريف حسين إلى أبها لنجدة الحامية التركية هناك، ولم يكن هذا إلاَّ التصاقاً جسدياً صعباً، وذلك لأنه خلال الحرب العظمى -وبعد ثورة الحجاز- قام الإدريسي بإعلان الحرب على الأتراك ونال اعترافاً بريطانيَّاً بوصفه حاكماً مؤقتاً على المخلاف السليماني أو جازان. ثم الاعتراف بالإدريسي سيداً على كل جنوب تهامة حتى الحديدة، وكان ذلك عندما ترك الأتراك الجزيرة العربية عام ١٩١٩م وإلى الأبد تحت شروط الهدنة.

لم يكن هذا الترتيب مريحاً للإمام يحيى، الذي -في غياب القوات البريطانية لحماية مرشحهم- لم يجد صعوبة في إخراج الإدريسي من الحديدة وإلى خارج تهامة اليمن إلى موقعه الصحيح شمال ميدي. لقد حدث هذا عام ١٩٢١م، وقد توفي محمد الإدريسي في العام التالي[1]، تاركاً عرشه غير الثابت لابنه الشاب عديم الخبرة واسمه علي، الذي كنت قد أشرت إلى خبرته من قبل. لقد استمرَّت سلالة الإدريسي، وبرغم كل السلطة التي استمتعت بها لأكثر من (٧٠) عاماً وذلك بسبب اعتبارهم الديني، استمرت لمدة (١٧) عاماً فقط في السيطرة الفعلية على القوة السياسية. لقد فقد الأدارسة الآن كلاً من الظل والأصل للسلطة وأن من تبقى من أفرادها الذين قد سمح لهم بالسكن في جازان، مثل سيد العابد،

(١) محمد بن علي الإدريسي توفي عام (١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م)، وولادته كانت في عام (١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م). (ابن جريس).

والذي كنت قد قابلته في حفل العيد الذي أقامه الحاكم وقابلته مرة أخرى في منازل أخرى، فإنهم يتصرَّفون كمواطنين عاديين دون عمل مدني أو ديني وعلى معاش تدفعه لهم الحكومة السعودية. كان بقيتهم بالطبع يقيمون في المنفى، ولربما كان من المفيد أن نسجل للتاريخ الأجيال التي خرجت من صلب الإدريسي الأول الذي كان قد عاد لزيارة أرض أسلافهم الذين هربوا من الجزيرة العربية بعد هزيمتهم في معركة فخ بالقرب من مكة في زمن هارون الرشيد[1].

أحمد الإدريس (من إفريقيا ١٨٤٠ ـ ١٨٥٠م)

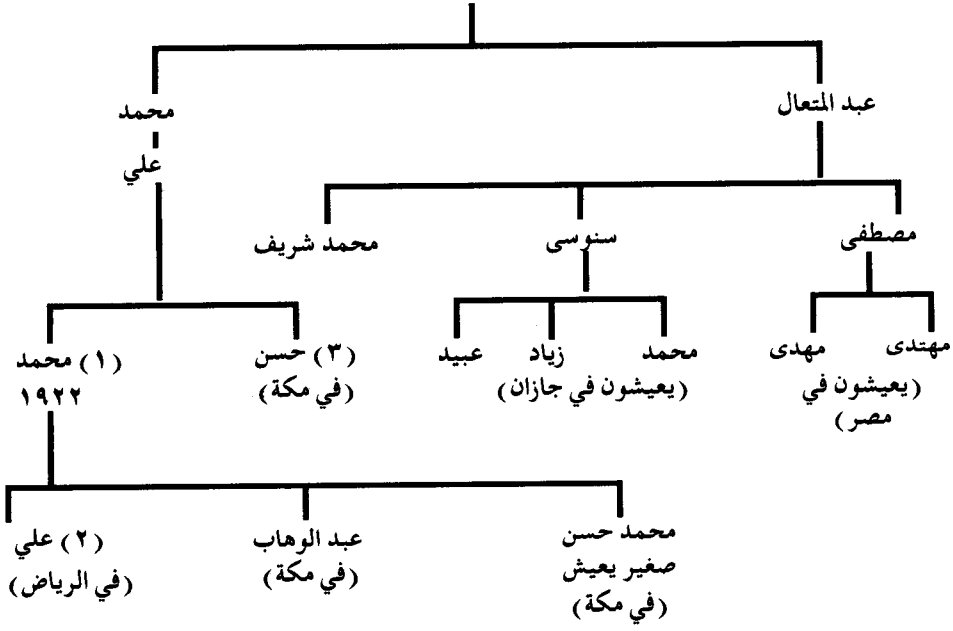

ملحوظة: الأرقام (١و٢و٣) تشير إلى الحكام السياسيين في هذه الأسرة. لقد أبعد رقم (٢) عام ١٩٢٦م وعين مكانه رقم (٣) الذي أبعد عام ١٩٣٠م لقد أدى السيد مصطفى دوراً مهماً في المفاوضات بين البريطانيين والإدريسي أثناء الحرب العظمى وهو يعيش حالياً في مصر، وقد توفي هناك قبل عام ١٩٣٦م.

---

(١) موقعة فخ لم تقع بالقرب من مكة المكرمة في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، وإنما حدثت عام (١٦٩هـ/ ٧٨٥م) في عهد أخيه الأكبر (الهادي)، انظر: الطبري. **تاريخ الأمم والملوك**، حـ٨، ص ١٩٢ وما بعدها. (ابن جريس).

كانت الصناعة الرئيسة في جازان، إلى جانب بناء السفن ومناشط ذات علاقة بالبحر، هي بالطبع معادن الملح. ويتكون كل الجزء الأسفل من النتوء الجبلي من صخر ملحي ممتاز. وقد أقيم فيه معدن ضخم تحت سيطرة وملكية الحكومة. كما يوجد بالقرب من مداخل مواقع العمل، مخزن متداعي يحتوي على ما مقداره حمولة حوالي (٧٠) جملاً من الملح المعبأ الجاهز للتوزيع. ويحتوي كل كيس على حوالي (٩٢) عق (٤٠٠) درهم أو (٢,٥) رطلين ونصف الرطل بالتقريب، وتتكون حمولة الجمل من كيسين، أو ما يعادل (٤٦٠) رطلاً، وقد تم صنع الأكياس محلياً من الحصير الخشن. وتقوم الحكومة ببيع الملح مباشرة للتجار بسعر ثلاثة ريالات للحمل الواحد زائداً نصف ريال لاستخراج شهادة البيع، بما يعادل ريالاً واحداً لكل (١٤١) رطلاً وعلى المشتري أن يحاول الحصول على أفضل الأسعار في الأسواق المحلية التي يستطيع الوصول إليها.

يكون هؤلاء السماسرة من البدو الذين يعملون في نقل الأحمال على جمالهم، وكانت هنالك مجموعة منهم شاهدتهم أثناء زيارتي هذه، من قرية المسارحه[1] مما يلي أبو عريش وهم يقومون بتحميل جمالهم بما كانوا قد اشتروه. ولا يوجد تصدير لهذه المادة عن طريق البحر. كما توجد غرفة عليا أعلى المخزن يعمل فيها الكتبة الذين يدونون هذه المعاملات، إلاَّ أن هذه الغرفة قد هجرت منذ زمن، مفضلين عليها عشة من الأعواد تقع قريباً من الموقع وتؤمن وقاية أفضل من حرارة الشمس.

(١) قرية المسارحة تقع جنوب جازان بحوالي (٥٥كم)، ويطلق عليها أحد المسارحة، وربما أطلق عليها اسم (الأحد) فقط. (ابن جريس).

كان المعدن الفعلي عبارة عن حفرة كبيرة أبعادها ما بين (١٠٠) إلى (٤٠٠) ياردة ويختلف عمقها ما بين (٣٠) إلى (٤٠) قدماً، وتمثل أسلوب التعدين الذي كان متبعاً لعدة أجيال ولعدة قرون. كان عمق التربة المكشوفة حوالي (٢٠) قدماً وتعلوها طبقة من الرَمْل ذات لون بني داكن، ولربما كانت هذه تمثل طبقة الجبس المتآكلة السفلى، والتي تكون إلى مسافة أعلى، صخرة جميلة صلدة شبيهة بالرخام. ينتمي كل من الملح والجبس إلى العصر الميوسيني[1] مع عدد من الصدوع يخترق الحنبرة كما تأكدت من ذلك لاحقاً من جهات متخصصة. ويتم تفكيك السطح الملحي باستخدام أصابع الديناميت التي توضع داخل ثقوب تعد بالمثقاب، ثم تجمع بعد ذلك الكتل المكسرة من الصخر الملحي داخل الأكياس دون أي محاولة لتشذيبها. ويكون الناتج الثانوي للمعدن هو نوع من الملح الخشن الذي تكون بعامل التبخُّر في قاع الحفرة بعد الأمطار أو السيول. وكان هذا الناتج يباع في السابق بسعر ريال واحد مقابل ثماني صفائح عبوة أربعة جوالين جازولين فارغة، لمناطق تمليح وتجفيف الأسماك غير أن الحكومة السعودية أوقفت هذا التعامل مع الملح الرديء لتدفع بمجففي الأسماك أن يشتروا الصخر الملحي المرتفع الثمن الذي تقدر مبيعاته الشهرية بحوالي (٥٠٠) جمل أو (١٠٠) طن تقريباً، ويكون دخله لمصلحة المالية حوالي (١٧٥٠) ريالاً.

يمثل إنتاج كل من الكلس (النورة) وجبس الجص (جبس) من خام الجبس المحلي صناعة أخرى مهمة في جازان. وتستخدم هذه المواد في معظم الحالات

(١) عصر جيولوجي يمتد من حوالي (٢٥-٣٠) مليون سنة وخلاله انفصلت الجزيرة العربية عن القارة الإفريقية، (ابن جريس).

محلياً في الميناء نفسه وفي كل من صبيا وأبو عريش ومراكز أخرى. كانت اليابان هي المورد الرئيس لمعظم واردات البلدة، وخاصة البضائع التي تباع بالقطعة، والخردوات الرخيصة والمواد الغذائية مثل الأناناس المعلَّب - بسعر (٩,٥) ريالات لصندوق يحتوي على (٤٨) علبة عبوة رطل واحد-، ولبن الكرميلة - (٧) أرطال لكل (٣,٧٥) ريالات -، والترامس اليابانية - بسعر (٢,٢٥) ريالين للترمس الواحد- غير أنها لم تكن جيدة الصناعة مقارنة بالمواد الرخيصة من المصدر نفسه، التي تباع في موانى حضرموت.

حافظت الحكومة السعودية -كنوع من التنازل على سبيل الاتفاق، وكتقليد قديم، وإحساساً بحالة السكان الفقراء- على نظام الضرائب أو الجمارك القديم والذي يعادل (٨٪) من القيمة، مع تحديد نسب خاصة تتراوح ما بين (١٠٪) و(١٢٪) على البضائع الكمالية مثل مواد الحرير، وبين (٢٠ - ٢٥٪) على التبغ والسجاير حسب أنواعها. على أن يدفع الفرق بين الجمرك المحلي وبين التعرفة السعودية على كل البضائع التي يعاد تصديرها من جازان إلى منطقة الحجاز أو منطقة أبها، وذلك عند مراكز المراقبة في منطقة رجال ألمع أو في أبها أو في موانى الحجاز طبقاً للحالة. وتمر كل البضائع التي تأتي عن طريق البحر إلى جازان عبر عدن ويتم تخليصها هناك على ظهر بواخر صغيرة بواسطة وكلاء للتجار المحليين. ولا تستطيع السفن الكبيرة الوصول إلى ميناء جازان؛ وذلك لوجود حيد بحري رملي يكون بارزاً فوق سطح البحر، وذلك عند انخفاض المد ويمتد شمالاً عبر المدخل عند الطرف البعيد للنتوء؛ كما توجد فجوة في هذا الحيد تسمح للقوارب الصغيرة بالعبور ويبلغ عرضها (٥٠٠) ياردة وهي جزء من اللسان.

ويتعرض البحر على امتداد هذا الساحل إلى حركة عنيفة للمد والجزر وقد يصل الفارق من أدنى مستوى للماء والخط الذي يحدد أقصى حد للمد بحوالي

(٤٠) ياردة. يكون جانب من حاجز الماء وذلك عندما ينخفض مستوى الماء، مرتفعاً وجافاً أو تحيط به مياه ضحلة جداً، وحتى عند الطرف البعيد، حيث كنت أستحم عند مدرج الهبوط، فقد كان البحر ضحلاً مع وجود طين متين في القاع وعليه بعض الأعشاب البحرية. كانت ذروة المد في هذا الوقت تقع عند غروب الشمس وكانت أدنى درجات الجزر تحدث بعد (١٢) ساعة لاحقة.

جذب صخب شديد انتباهنا ناحية البلدة، عندما كنت أنا وصالح النفيسي عند القلعة عصر يوم العيد مستندين على حاجز السقف نراقب صفوف الجمال غير النهائية، وهي تعمل بنشاط بين البلدة وبين الآبار على رأس المجرى. ويعود سبب الصراخ إلى اشتعال النيران في مجموعة من العشش التي تقع على الجانب القريب من البلدة ومن أسفلنا، وسرعان ما انتشرت النيران والدخان في كل الموقع. ولم يستغرق وصولنا إلى موقع الكارثة وقتاً كبيراً، ولعل النار قد شبت من شرارة انطلقت بإهمال من أحد المطابخ، وحينما وصلنا إلى هناك كان ما لا يقل عن (١٢) عشة قد تدمَّر بينما يحاول حشد كبير من الناس وقف انتشار الحريق. لقد كان الوقت لا يزال عند بداية المساء لحسن الحظ.

وقد خمدت النيران تدريجياً داخل فجوة يغطيها جدار من اللبن، ولم يحدث ضرر كبير، غير أنني علمت أن تكلفة بناء هذه العشش الشبيهة بخلايا النحل كانت في حدود (١٠٠) إلى (١٢٠) ريالاً للعشة الواحدة وكان إجمالي قيمة ما قد فقده هؤلاء الفقراء هو (٦٠٠) إلى (٧٠٠) ريال. لقد تم تحذيرهم في الروايات الشعبية من عدم عقوقهم والامتناع عن ميلهم بالاعتداء المتكرر على أطراف المقبرة المهجورة التي تقع على جانب التل، وقد استمعت خلال هذا الحشد إلى من يقول بالرأي بأن ضحايا هذه الكارثة قد نالوا ما يستحقونه من عقاب

إلهي. كما كان هنالك التخوُّف من أن النيران قد تمتد إلى محطة اللاسلكي الحكومية في قلعة الأشراف المهجورة، وإن حدث هذا فإن مخزون الوقود لن يؤدي إلى تدمير المحطة فقط ولكنه سيزيد بشكل خطير حجم انتشار النيران. ولقد أمكن تجنب ذلك الخطر المحتمل، ولم تفقد أية أرواح ، غير أنني لم أكتشف ماذا حل بهؤلاء القوم الذين باتوا بلا مأوى ولو مؤقتاً.

وصلتني الدعوة في اليوم التالي، التي كان قد وعدني بها حسن البهكلي لحضور جلسة القات. لقد وجدت مضيفي وقد وجَّه الدعوة أيضاً إلى عدد كبير من الشخصيات الكبيرة في المجتمع المحلي لتناول وجبة الغداء التي كانت قد تأخرت، وذلك حين وصولي لمنزله، حيث وجدت شقيقه معه وقد حضر من صبيا. كانت وجبة الطعام قد انتهت عند الساعة الثانية ظهراً وبدأ اجتماع الأعضاء الكبار لنادي القات بحزم عند الظهيرة. كان عدد الحضور حوالي (٢٥) شخصاً وقد ضمتهم غرفة الاستقبال الطويلة الرئيسة التي انتشرت فيها سرائر الحبال المنخفضة ليجلس عليها الجمع. كما انتشرت النارجيلة[١]، وكان يوجد حوالي الدستة منها، وكانت من أحجام مختلفة داخل الغرفة وذلك لاستخدام الضيوف لها، وقد وقع اختياري على واحدة خفيفة منها ومن الطراز الحمي بدلاً عن الطراز الثقيل (الجراك) وهي خليط من التبغ القوي إلى جانب عدد مختلف من النباتات العشبية العطرية. لقد انتشرت كذلك جرار المياه بالإضافة إلى الأسرة والنارجيلة في مواقع ملائمة ووضعت بجوارها الأكواب والكؤوس، وقد خصصت لي جرة معينة من مياه صبيا، التي يقال عنها إنها أفضل وأحلى من مياه آبار عمير. هكذا كان الإعداد لجلسة القات.

(١) النارجيلة: ــ هي ما يعرف اليوم بـ (الشيشة). (ابن جريس).

لقد تم إحضار لفائف الموز الضخمة وتم كشفها بينما كنا نتحادث ونحن جلوس فوق الأسرة. وقد تم فحص المحتويات بدقة وحذر. ثم قدم إليَّ طقم من الأوراق التي كانت قد اختيرت بعناية، وقد نال كل شخص آخر نصيبه منها ثم بدأت عملية المضغ. لم تكن هنالك مراسيم للحفل وكان كل فرد يتحرك على مزاجه، ويتحدث مع جاره أو أن يلزم الصمت برغبته، كان هذا هو الروتين اليومي لنادي القات، الذي كان يجتمع ظهر كل يوم عند الساعة الواحدة أو الثانية ظهراً حتى غروب الشمس. وكان كل عملهم هو فقط مضغ الأوراق العصارية وقد وُضِّحت لي كيفية ذلك. وينصح بتناول جرعات صغيرة من الماء من حين لآخر ليظل الحلق رطباً وأثناء ذلك تدور فناجين القهوة على فترات، ويساعد هذا على إخراج الخصائص المقوية الكامنه للنبات. ويظل المرء وهو يمضغ الورقة باستمرار، ويبتلع العصارة ثم يلفظ على فترات الأنسجة المستهلكة في المبصقة. ويقال إن مدمنوا القات يدخلهم إحساس بالابتهاج أثناء هذه العملية، ويتبعها إحساس لاحق بالكآبة. ومضغ القات عادة تتملك المرء لدرجة أنه إذا لم يتعاطاه في أحد أوقات الظهيرة يدفعه هذا الحرمان إلى التوسُّل للحصول عليه، كما في حالة مدمن الحشيش. وبحكم الإجماع العام فإن هذه العادة خطرة، وسيئة على الأعصاب وتنتهي بصاحبها إلى الضعف. وكنت قد مارستها لمدة ساعتين في ذلك اليوم دون أي رغبة في الخوض في التجربة مرة أخرى ودون أن أحس بأي شعور قوي من أي نوع كان لذيذاً أم لا. يبدو لي أن مضغ القات هو كمضغ الحشيش وهذا هو كل ما يمكنني أن أدلي به نتيجة لتجربة واحدة والتي لا رغبة لي إطلاقاً في تكرارها[1].

(١) فيلبي جرب أكل شجرة القات وذكر عدم جدواها وأنني أنادي جميع من يتعاطاها أن يترك استخدامها ويدرك مضارها الصحية والاقتصادية والاجتماعية. (ابن جريس).

لقد أصبحت أحداث الجلسة فاترة فانتهزت فرصة غريبة لأعتذر وأنسحب لأداء مناشط أكثر فائدة. لقد كنا جلوساً بهدوء لمضغ القات حينما وقع ضجيج فجأة وضوضاء بين النساء في الجوار. لقد اعتقدت بناءً على التجربة السابقة أنه قد شبَّ حريق مرة أخرى، غير أن الأمر لم يكن كذلك، لقد كان الأمر أسوأ من ذلك فقد تم إحضار جثة لصبي على التو وسلمت إلى والدته في عشة مجاورة. وكانت هي التي بدأت الصراخ حينما رأت ابنها الميت، وفي لحظة التقطت كل امرأة على مدى السمع الصراخ، واشتركت كل امرأة في كورس النياح. لقد أصبح منزل تلك المرأة المنكوبة منذ تلك اللحظة قبلة أنظار لكل امرأة في البلدة. ويتواصل الصياح مع وصول كل وفد من الزوَّار، وبقوة شديدة وكأنما قد واجه العالم كله نهايته السيئة. لقد كان الأداء مدهشاً ولا بد أنه كان محنة كبيرة على والديِّ الصبي، واللذين سيكونان قد لحقتهما إهانة بالغة إذا تركا لمصيبتهما يحتملانها في سلام. لقد أحضر الصبي وهو ميت. وكان قد ذهب في الصباح في صحبة الجمال لإحضار الماء من الآبار، ووجد ميتاً على جانب الطريق. كان هذا هو كل ما في الأمر. ولا يوجد ما يكشف عن كيفية حدوث ذلك، ولا يوجد ما يمكن عمله غير دفن الصبي على أنغام عويل جماهيري. وكان كل ما يمكن إيضاحه هو أن الصبي قد يكون قد سقط من على ظهر جمله، ولا يوجد طبيب في جازان للقيام بتشريح للجثة لمعرفة السبب الحقيقي للوفاة[1].

ذهبت لأداء صلاة الجمعة (١٨ ديسمبر) في أول أيام إقامتي القصيرة في جازان في الجامع، وهو مبنى كبير ورائع وقد تم إنشاؤه حديثاً، وتكفلت أسرة

(١) عادات النياحة على الميت تتفاوت من مكان لآخر، وكانت في الغالب تمارس بنوع من المبالغة لعدم وجود الوعي الديني بين الناس، ولكن بعد انتشار التعليم والتفقه في الدين أدرك الناس حرمتها فتركوها، واعتدلوا في مراسيم جنائزهم. (ابن جريس).

البهكلي بذلك. يقع المسجد عند منتصف المسافة بين حاجز الماء وقلعة الأشراف القديمة وكان بناءً كبيراً، ويتم الدخول إليه عن طريق أبواب على جانبيه الشرقي والغربي والتي كانت تقود المصلين إلى ساحة مكشوفة تحتل ما يقدر بثلث البناء. كانت بقية البناء مغطاة بصف من الأعمدة الجذابة، مكون من خمسة أروقة تمتد طولياً مرتبة من الشرق إلى الغرب، ومن أربعة أروقة في العمق مرتبة من الشمال للجنوب، مع وجود قبة عريضة تعلو كل رواق. ولقد كانت كوة المحراب عند الجدار الخلفي على الجانب الشمالي، ويوجد بها منبر خشبي مترنح للخطيب. كان المسجد هو البناء البارز في البلدة بلا شك والتي كانت منازلها المبنية آيلة للسقوط وليست ذات قيمة فنية معمارية. إن جازان في شكلها المعاصر، هي مدينة حديثة، برغم أنها كانت قرية لصيد الأسماك، ومركزاً لصناعة الملح عبر القرون حينما كانت العشش الشبيهة بخلايا النحل كافية لإيواء السكان. كان أقدم مبانيها هو قلعة الأشراف، وحتى هذه فهي الآن في حالة مدمرة وكثيرة الرقع، ولربما لا يزيد عمرها عن القرن الواحد بينما يعود تاريخها إلى بداية القرن التاسع عشر[١].

يقترح العالم المحلي تفسيراً غريباً لاسم جازان والذي ينطق أحياناً جَيْزان. ويعتقدون حسب رأيهم أن جازان نطق أفسد الكلمة الأصلية جازان، والتي تسجل حقيقة إنشائها بواسطة مجهول ومشكوك فيه، وبطل من أبطال الماضي الذي «جا» ثم «زان» والتي يكون لشرحها لتعني «هو جاء وهو بنى»، ويبدو الأمر بسيطاً، ولربما خيالي تماماً، ذلك لأن الاسم قابل لاشتقاق آخر أكثر قرباً من الطبيعة. تغطي ساحل البحر على جانبي النتوء تلال رملية وسلاسل رملية من الطراز الذي يسمى «قوز»، ويحفظ العديد من هذه التلال الرملية بهذا المعنى كجزء من

(١) المقصود بالقرن التاسع عشر، أي (الميلادي)، الموافق القرن الثالث عشر الهجري. (ابن جريس).

أسمائها، فمثلاً «قوز المنجارة» عند حافة مسطح الملح في الدلتا. و«قوز» يجمع على «قيزان» وتخفيف «القاف» الثقيل إلى «جيم» الخفيف هو ظاهرة مألوفة في الجزيرة العربية مثال ذلك «خرج» بدلاً من «خرق» و«جاسم» بدلاً عن «قاسم». وعليه، تكون جازان بدلاً عن قيزان وتحل بذلك المشكلة. لقد عرضت هذا التفسير على الأمير وعلى غيره، إلا أنني لست متأكداً تماماً بأنهم قد اقتنعوا به[١].

يرجع أصل الأمير محمد بن ماضي إلى قرية الروضه في منطقة سدير التابعة لنجد. لقد كان رجلاً عظيماً ضخماً ذا سمات مستبشرة، وهو رجل عمل أكثر منه فيلسوفاً، وكثير الشفقة تجاه الفقير والضعيف، ويبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً وقد كان حاكماً من قبل على ضبا التي تقع على ساحل الحجاز الشمالي، حيث خلفه هناك شقيقه تركي، حينما تم نقله هو إلى جازان وذلك حوالي عام ١٩٣٦م. لقد كان سلفه واسمه شويعر[٢] قائداً لقسم من جيش الأمير فيصل، وذلك أثناء الحرب اليمنية عام ١٩٣٤م وقد تم تعيينه بعد ذلك ليكون مسؤولاً عن هذه المنطقة الحدودية المهمَّة، وقد توفي وهو يشغل هذه الوظيفة، مخلفاً زوجته وطفله الصغير. لقد قام محمد بن ماضي في سبيل التخلص من أسرة سلفه هذه وذلك بزواجه من الأرملة وتبني الطفل، وبذلك حل لنفسه مشكلة السكن واستقرَّ في منزل مريح بمجرد وصوله. لقد وجد أن هذه الترتيبات كانت مقنعة جداً كما حافظ على مستوى مائدة ممتاز، والتي كنا نتردد عليها عند كل مواعيد الوجبات الرئيسة اليومية خلال فترة إقامتنا هنا. لقد كان محمد يعامل الطفل الصغير

(١) لمزيد من التوضيحات عن تاريخ المخلاف السليماني (منطقة جازان) خلال العصور الإسلامية المختلفة، انظر: العقيلي، **تاريخ المخلاف السليماني**. (جزءان) (ابن جريس).

(٢) شويعر: الاسم الصحيح هو حمد الشويعر، انظر: عبدالرحمن السبيت. **رجال وذكريات مع عبدالعزيز**، ص ١٨١، ١٨٢ (ابن جريس).

وكأنه ابنه، وكم سرني إحساسه وقلقه على سلامة ورفاهية هذا الطفل، الذي كان جذاباً وفاتنا.

كان كل من محمد والقاضي كثيري المساعدة وفائقي اللطف نحوي ونحو فرقتي، وكثيراً ما كنت أجد محمداً وهو على استعداد بما لديه من خطط لتنفيذ تجولاتي بينما أصبحت جازان هي مركز الرئاسة لي. لم يسمح محمد بالتأكيد للعشب أن ينمو تحت قدميه ولم أكن مستقراً في جازان - التي جئتها في ثلاث مناسبات فقط - مدة أطول تجعلني أملّ البقاء فيها. لقد كنت مقيماً، في المرة الأولى مثلاً في هذا المكان مدة خمس ليال فقط، حينما كانت كل الترتيبات جاهزة للمرحلة التالية للعمل، وفيما يخص هذا العمل فقد كانت لدى الأمير التوجيهات الكاملة من الرياض. كما لا توجد مزايا محددة في محمد بن ماضي، إلاّ أن فطرته السليمة في الحكم على الأشياء كانت مثيرة للإعجاب. يبرز هو ومعه إبراهيم النشمي التابع لنجران في شريط ذكرياتي للطفهما ولكفاءتهما، ولقد كان كرمهما خارج إطار اللوم، وكثيراً ما كنت أعجب لما عليه ترتيباتهما المالية مع الحكومة. إذ إن مرتب الحاكم - حسب ما استطيع من تأكيد له - لمحافظات مهمة مثل أبها ونجران وجازان يصل إلى (١٦٠٠) ريال - (٨٠) جنيهاً استرلينياً ذهبياً- شهرياً، والتي عليه منها أن يتحمل التكاليف المالية لحاشيته التي يتراوح عدد أفرادها بين (٢٠) و (٣٠) رجلاً، بينما يتحصل الرجال على (٢٠٠) ريال في السنة كمرتب لكل فرد، إلى جانب ما يحرك أسنانهم[(١)].

(١) لمزيد من المعلومات عن رواتب موظفي الدولة في جنوبي البلاد السعودية خلال عصر الملك عبدالعزيز، انظر: غيثان بن جريس. **عسير في عصر الملك عبدالعزيز**، ص١٨١ ــ ٢٤، ابن جريس أيضاً «قراءة في مخصصات مقاطعة جيزان وملحقاتها من الموازنة العامة للمملكة عام (١٣٦١هـ) في أثناء حكم الملك عبدالعزيز» **دراسة منشورة في مجلة بيادر الصادرة من نادي أبها الأدبي** عدد رمضان (٢٥) (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) ص ١١٥ ــ ١٣٩، كما نشرت هذه الدراسة في كتاب:ـ **دراسات في تاريخ وحضارة جنوبي البلاد السعودية**. (جدة: دار البلاد للطباعة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) ص ١٦٣ ــ ١٨٦ (ابن جريس).

قمت بزيارة الأشقاء البهكلي وأهله في منزلهم للوداع، وذلك في عصر اليوم السابق لبداية رحلتي إلى فيفا. وقد وجدت من بين المدعوين السيد عبيد الإدريسي. وكانوا قد اجتمعوا لحفل القات. لقد تحدثنا عن زيارة روزيتا فوربز (Rosita Forbes) إلى جازان قادمة من السودان بواسطة الدهو -مركب شراعي- عام ١٩٢٢م، حيث أعدَّت لها مقابلة مع محمد الإدريسي قبل وفاته بأشهر قليلة. ويبدو أن هذه المقابلة قد تمت في الميناء، إذ أنها لم تقم بزيارة أيّ من صبيا أو «أبو عريش». كان هذا هو كل ما تذكره مضيفي على أي حال، وغيره من الذين كانوا يتذكرون سفرها بحراً إلى ميدي. لقد جاء السيد ماكسويل دارلنج (Maxwell Darling) أثناء استكشافاته الخاصة بالجراد، عبر صبيا إلى جازان في مارس ١٩٣٦م، بينما وصل إلى جازان عبر صبيا أيضاً مهندسان تابعان لشركة الزيت العراقية، وهما السيد بايك (Pike) والسيد والفورد (Walford)، وهما في طريقهما إلى جزر فرسان وكان ذلك أثناء زيارتي لهذه الأجزاء، وذلك لقيامهما بدراسة لكل الطريق على محور البوصلة دون أن يتأكدا من صحة أسماء الأماكن في البلاد التي قد قاموا بمسحها. لم يتغلغل أي رحالة أوروبي إلى أعماق تهامة عسير مطلقاً قبل نهاية الحرب العظمى. وكما لوحظ مما قد ورد أعلاه، فإن الزوار الأوروبيين للمنطقة لم يكونوا كثيري العدد خلال فترة الجيل الماضي، غير أن إنشاء طرق السيارات وحركة مناشط مهندسي المعادن[١] قد يتوقع منها أن تجعل هذه المناطق النائية للجزيرة العربية معروفة أكثر مع مرور الأيام[٢]. ومن المناسب الإشارة إلى زيارة كانت قد تمت إلى جازان قبل قرن من الزمان من وقتنا هذا.

---

(١) قام بزيارة المنطقة العديد من الخبراء الأوروبيين والأمريكيين في ذلك الوقت. (المؤلف).

(٢) وهذا فعلاً ما حصل، فلقد أصبحت جازان وغيرها من أجزاء جنوب المملكة العربية السعودية معروفة وهامة، لما تمتاز به من غطاء نباتي جيد، وما يتوفر فيها من موارد زراعية واقتصادية أخرى، بالإضافة إلى أنها صارت من أكثر أجزاء المملكة العربية السعودية تأهيلاً بالسكان. (ابن جريس).

لقد وصل إلى جازان -عن طريق البحر- في الرابع من مارس (١٨٣٥م) فرنسيان هما إي. كومبس (E.Combes) (وم. تاميزيه) (M.Tamisier) إلى محافظة أبو عريش الصغيرة[١]. لقد انخفض حجم التجارة، التي كانت ذات اعتبار كبير، منذ أن أسس محمد علي باشا نظام احتكار السلع على كل المنتجات العربية، خاصة السنا والبن. لقد احتلت البلدة برغم صغرها، مساحة كبيرة تغطيها مبانيها المبعثرة. يوجد في الناحية الجنوبية حصن مهيب تحيط به مبان عديدة مدمرة. وكانت المساكن في هذا الوقت من عشش مستديرة ذات أسقف هرمية وغطاء طيني كثيف من الداخل، وكانت مؤثثة فقط بالأسرة والفخار المنزلي. ويحيط بكل مجموعة من العشش سور من الأعواد الخشبية مكونة عالماً بحاله.

لقد كان حال نساء البدو اللاتي يقمن بزيارة جازان مختلفاً كثيراً عن أولئك اللاتي كنا قد عرفناهن في أماكن أخرى، فالنساء هنا غير محجبات ويرتدين أسماقاً زرقاء وقبعات من القش على رؤسهن. وكانت نسوة البلدة أيضاً غير محجبات، وكن يرتدين أزياء كتلك التي ترتديها النساء في القنفذة، وكان القليل منهن يضعن قميصاً إضافة إلى القماش الطويل والعباءة والقناع كما هو الحال في تلك المنطقة. وكن يقمن بتصفيف شعورهن إلى أربع خصلات رشيقة تصل إلى الكتف، ويضعن أكاليل الأزهار والأعشاب العطرية على جباههن. كان الرجال يرتدون أغطية رأس صوفية ويصففون شعورهم بعناية كبيرة وبالكثير من الدهن. كان السوق المحلي مكوناً من متاجر شحيحة البضائع تقوم ببيع الدجاج بأسعار

(١) لا ندري ما هو السبب في إطلاق فيلبي اسم (الصغيرة) على محافظة أبو عريش. فهي من المدن الرئيسة في منطقة جازان، وتبعد عن مدينة جازان ناحية الجنوب بحوالي (٣٠) كم، وكانت المقر الرئيس لحكومة الشريف حمود بن محمد أبو مسمار التي ظهرت في أوائل القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي). للمزيدا انظر: العقيلي، **تاريخ الخلاف السليماني**، جـ٢، ص ٤٤٧ وما بعدها. (ابن جريس).

منخفضة جداً وأحياناً تقوم ببيع الفاكهة والسمك. وكانت الحدود الحجازية اليمنية في هذا الوقت عند رأس حلي.

كما لوحظ أن الأمطار الموسمية في اليمن تسقط في الفترة من منتصف يونيو وحتى نهاية سبتمبر. وكان هنالك ندى كثير خاصة على الساحل. كما اشتمل إنتاج اليمن على الدخن والشعير والبن والتبغ والمر والبخور... إلخ. كانت حمير اليمن كبيرة الحجم وقوية، وكانت الحيوانات المفترسة نادرة، وحيوانات الصيد متوافرة. كانت هنالك معادن للحديد والملح الصخري، والكبريت، والرخام السماق. وكان الخشب شحيحاً[١] وأما بعر الإبل فيستخدم وقوداً للنار[٢]. لقد أمضى المسافران الفرنسيان ساعات قليلة في جازان، ثم واصلا رحلتهما إلى بندر اللحية اليمنية التي تقع شمال الحديدة.

(١) الخشب ربما كان شحيحاً في الأجزاء الساحلية من جنوبي الجزيرة العربية، أما الأجزاء المرتفعة، والممتدة من الطائف حتى صنعاء فإنها من أغنى أجزاء الجزيرة العربية بالأشجار والنباتات المختلفة. (ابن جريس).

(٢) استخدام بعر الإبل في الوقود عادة عرفت عند سكان الجزيرة العربية منذ القدم، وهذا الأمر يحدث إذا لم تتوفر الأخشاب الصالحة للوقود، وهي عادة غالباً ما تكون عند أهل البوادي أكثر من أهل تهامة، وذلك لتوفر الإبل عندهم بأعداد كثيرة بعكس السهول والسواحل البحرية. (ابن جريس).

الفصل

السابع والعشرون

جبال تهامة

الفصل السابع والعشرون

جبال تهامة[١]

لقد استعدت صحتي بخلودي للراحة، وبتناول الغذاء الجيد وبالاستحمام في البحر في جازان، وذهب عني إرهاق رحلة رمضان الطويلة، وأستعد الآن لمغامرات أكثر. لقد أخذت حمامي المعتاد عند نهاية الرصيف صباح اليوم التاسع عشر من ديسمبر، وذهبنا جميعاً لتناول وجبة الفطور في منزل الحاكم، وقد بدأت بألذ أنواع الكيك، الذي قامت بصنعه مضيفتنا. ثم طلبنا الإذن بالسماح لنا بالمغادرة من كل من محمد بن ماضي ومن الموظفين الآخرين الذين كانوا قد دعوا معنا للفطور، وعدنا لنضع اللمسات الأخيرة للاستعداد للمغادرة إلى فيفاء. وضع الأمير سيارة وشاحنة تحت تصرفنا للمرحلة الأولى من الرحلة حتى السفوح التلية إلى قرية العَيْدَابي، حيث تمت الترتيبات هناك بتجهيز الحمير والجمال لبقية الرحلة. لقد تجاوز الوقت الظهيرة حينما انتهينا من فرز العفش الذي سيصحبنا من ذلك الذي سنتركه خلفنا.

تتبعنا الطريق الرئيس حتى صبيا، وكنا نأخذ الأمور على علاتها، ونتوقف مراراً لمراجعة اتجاهات البوصلة السابقة، ولذلك فقد استغرق وصولنا إلى منزل ابن غنيم ساعتين كاملتين، حيث كنا قد تلكأنا في شرب القهوة والشاي مدة نصف ساعة قبل أن نواصل السير. وواصلنا سيرنا على طريق الحسينية حتى مسجد الخواجية فيما يلي مفترق صبيا الجديدة - بيت السيد، ثم استدرنا مباشرة على

---

(١) لمزيد من الإيضاح عن مرتفعات تهامة التابعة لمنطقة جازان انظر: عبدالرحمن الشريف. **جغرافية المملكة العربية السعودية**، جـ٢، ١٧٧ ــ ١٨٥ . (ابن جريس).

طريق السيارات إلى اليمين وهو يمتد فوق صحراء عارية إلاَّ من عشب الثمام ناحية النهاية الشمالية لقرية الحسيني، وهي مجموعة معتبرة من عشش على هيئة خلايا النحل وتغطي مساحة ميل مربع. ثم انحدرنا تدريجياً فيما يلي هذه إلى أرض صعبة ناحية الضفة اليمنى لوادي صبيا، وتتبعناه من خلال الأشجار الكثيفة من الطلح والعلب والأراك والطرفاد، وغيرها من الغطاء النباتي البري لنمر بجوار مستوطنة خمين الصغيرة المبنية من القش. كان هناك الكثير من مزارع الدخن على جانبي المجرى الكثيف الأشجار، والذي بدا لنا أحياناً كأنه غابة وليس مسيلاً للوادي. كان علينا أن نبتعد ما استطعنا عن مسلكه لنتحاشى تلك المعوقات ووصلنا دون تأخير كثير إلى قرية الجخيرة التي انتشرت عششها بين أجمة أشجار الدوم المتعرجة، وقد رأيت كتلاً من أعواد الدَّخن مكدَّسة في وسطها.

واتصلت حافة حقل الحمم البركانية لعكوة مع حافة القرية عبر الأزمان، على شكل جلمود ارتفاعه (٢٠) قدماً يمتد من الشرق إلى الغرب، وقد تراكم الكثير من الطمي بينها وبين الضفة اليمنى للوادي، الذي يبعد مسافة (١٠٠٠) ياردة، وشقَّ طريقنا سيره فوق هذا حتى وصلنا إلى المجرى مرة أخرى عند الموقع الذي يلتف فيه الجلمود البركاني ليكون ضفته اليمنى، على ارتفاع (٣٠) قدماً ويكسوه شريط كثيف من أشجار الأراك والطلح، ينحني الجلمود سريعاً ناحية الشمال ماراً بقرية صغيرة تسمى جرّ مسعود في وسط الكثير من الروابي الطينية التي يكسوها الغطاء النباتي النموذجي. كان الطريق في أحد أجزائه تالفاً بسبب الأمطار والسيول، للدرجة التي اضطرتنا للتوقف لإصلاحه قبل مواصلة السير.

تعرف هذه الأرض التي يكسوها الطمي والروابي الصغيرة والغابات باسم الخَروجَه. وقد كان سطحه رملياً غير أن السير فيه كان صعباً فوق ممرات ضيقة بين

الروابي الصغيرة، بينما انتشرت حقول الدخن والسمسم في المنطقة مما زاد من هذه الموانع في طريق تقدمنا. وصلنا نهاية الأمر إلى موقع ملتقى مجاري سيل يسمى المجمع غالباً، وقد سمي بذلك لأنه تجتمع فيه أودية صبيا ودامس وقصى وتكوِّن مجرىً واحداً. ويتصل في هذه البقعة وادي قِصِي، الذي يأتي من ناحية الشمال الشرقي مع وادي صبيا، الذي يقبل من ناحية الشمال ماراً بقرية أم الغلف الصغيرة التي تقع على بعد (٥٠٠) ياردة، تجاه أعلى الوادي. ثم صعدنا في جهد إلى أعلى البطن الحصوي لوادي قصي بعد أن عبرنا موقع اللقاء، ثم خرجنا منه إلى ضفته اليمنى لنشق طريقنا من خلال أرض شجرية تكسوها أجمات الأراك، وتعترضها حقول متفرقة، ذات مدرجات وسدود للدخن. بدأ الطريق يدور الآن فوق سهل حصوي متموج بين مجريين، وأهم ما يميزه هو وجود مقبرة واسعة ذات قبور محاطة بالحجارة المنخفضة، التي يبدو أنها تخدم القرى الصغيرة التي قد ورد ذكرها إلى جانب قرية أخرى تقع أعلى وادي صبيا على ضفته اليمنى، واسمها (سَمْرَة). بدا سطح الأرض يرتفع تدريجياً الآن، وكان السير فوقه أصعب بكثير مما سبق فوق الحصى، وقد غطت أشجار الطلح والبشام والصبار – من نوع السيسال – الأرض، دون الحديث عن الحشائش التي تنمو في كتل بين كتل الطمى والرمل. ألقينا نظرة من هذه الأرض المرتفعة على الشرائط الكثيفة للأشجار والشجيرات التي تعلّم مجرى واديين على كل جانب وتفصلهما مسافة ميل واحد.

بدأت أسطح البلاد تتفكك تدريجياً ونحن نقترب من أطراف السفوح التلية التي يمكن رؤيتها أمامنا وهي تطوق خط تقدمنا على اليمين. لقد كانت البلاد أرضاً عارية متموجة، ذات غابة شحيحة الأشجار وقد تشققت بالعديد من خطوط الصرف التي تسمى في جملتها رقبة مسيحلة، وقد انتشرت فوقها أعداد كبيرة من

أشجار نخيل البَلْميط[١]. ثم يبرز بعد قليل لسان بازلتي على امتداد سلسلة طولها ميل واحد، تسمى تلعة تُربة من السفوح التلية إلى مسارنا ثم اتجه إلى السهل المتموج الذي كان قد تخطط بشرائط منخفضة من البازلت في موجات متعاقبة. كان أول سلسلة السفوح التلية الخارجية التي علينا صعودها غير معروف، ويغلب على الظن أنه (جبل المشاف)[٢] الذي كانت قمته المنخفضة حوالي (٦٠٠) قدم فوق سطح البحر. يقع وادي قسي الآن بعيداً عن طريقنا، وهو الوادي الذي في وسط التموجات البازلتية التي تقع أمامنا، قد عبره مجرى لحجة عَضَد الذي ينحدر ليتصل به مرة أخرى بعد عدة أميال ناحية الجنوب الشرقي. لم نعد نرى وادي صبيا الذي دخل السفوح التالية إلى الخلف منا. ويقع منبعه -فيما يُعتقد- في مكان ما على جانبي جبل الريث.

بدأنا نمر بقطعان الضأن على ضفة لحجة عضد الكثيف الأشجار، الذي تتبعناه إلى بعض المسافة، وكان هذا بشيراً لنا بأن المناطق المأهولة ليست ببعيدة عنا وقد تأخر الوقت كثيراً. لاحظت أن العديد من أشجار الطلح هنا مصابة بنموات غزيرة لنبات الهدال الطفيلي. ثم وصلنا سريعاً إلى مزارع العَيْدابي وحقول الدخن الصغيرة، وقد تلاحقت فيها المدرجات جزئياً عند السفوح السفلى وجزئياً في أحواض صغيرة عند القاعدة. وتتكون القرية نفسها التي ترتفع إلى (٩٠٠) قدم فوق سطح البحر وهو -تقريباً- نفس مستوى ارتفاع الحَقو، من ثلاث مجموعات منفصلة من أعشاش مصنوعة من الأعواد، وقد استقر بنا المقام بجوار واحدة منها - كانت تتكون من ثماني عشش صغيرة محاطة بسور من أعواد ومن عشة واحدة منفردة تقع إلى خارج السور - لقضاء الليل. ويسكن القرية الصغيرة جماعة آل

(١) نوع من النخل قصير مروحي السعف، وهذا النوع من الأشجار تتوافر بكثرة في السهول التهامية الواقعة بين سفوح جبال السروات الغربية وبين ساحل البحر. (ابن جريس).

(٢) جبل المشاف: هو الاسم الصحيح وليس (المشاث) كما أورد فيلبي. (ابن جريس).

بلغازي، وهم قسم من خولان، الذين يسكنون كذلك قرية الحناية الأكبر حجماً والتي تقع على مسافة منا ويبدو أنهم يرتبطون بقرابة مع اليَهانية (خولان)[١] قسم من فيفاء. وتحتل المستوطنات المبعثرة في العَيْدابي -والتي يبدو أن هذه القرية كانت أكبرها- حوضاً ضحلاً يفصل أرض الحباطة البازلتية المرتفعة التي كنا نعبرها من عند تلعة تربة إلى الأمام عن السفوح التلية الفعلية التي تبدو وكأنها من الشست.

كان اسم الرجل العجوز الذي أشرف على إرشادنا من صبيا هو عبدالله خبَّاش من الجخيرة. لم تكن معرفته بالبلاد واسعة، غير أنه يغطي هذا النقص الخطير. كان قد أحضر لي قطعة من صخر أسود وذكر أنه يوجد في جيوب صغيرة بين سلسلة الحباطَة ويطلق عليه محلياً اسم (كُحْل)[٢] ويستخدم في تجميل العيون. لقد بدا لي هذا الصخر الأسود وكأنه الماغنيزيوم. لقد كان رئيس بلغازي المحلي - أو عسكر جندي كما يحلو له أن يسمي نفسه ويدعى يزيد، ولقد استرقت السمع إليه وهو يلقن عبدالله أسماء العلامات الأرضية المختلفة لينقلها هذا بدوره إليَّ، ومنها اتخذت قراري بأن أتحصل على المعلومات مباشرة من فم الحصان كما يقولون. ولقد استغنيت عن خدمات عبدالله مقابل ريال واحد لأتعابه أعيد إلى أهله مع السيارات التي عادت، بينما وافق يزيد في تطلع على أن يحل مكانه. ثم قمت بإرسال ابن هذيل لشراء بطارية جديدة لجهاز الراديو الذي لسبب ما - ربما الارتجاج الشديد أثناء السفر- رفض أن يؤدي وظيفته حينما وصلنا إلى

(١) لمزيد من التفصيلات عن هذه القبائل ومواطنها انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٧٩ ــ ١٨٠ . (ابن جريس).

(٢) هذا النوع من الكحل كان يستخدمه كثير من الناس في أجزاء عديدة من الجزيرة العربية وحتى أواخر القرن الرابع عشر الهجري، وربما بعض كبار السن في البوادي والأرياف لا زالوا يستخدمونه إلى اليوم. (ابن جريس).

المعسكر. لقد كـان هذا أمراً خطيراً، إذ أنه في غياب الدقة في مـعرفة الوقت فإن المرء لا يستطيع أن يعمل في تثبيت المواقع، وقد كنت أرغب في تثبيت موقع فيفاء بدقة شديدة، وذلك لأن فيفاء علامة أرضية مـهمة جداً. لقد كان عليَّ أن أستفيد من الظروف السـيئـة هذه، حتى لو تمكن ابن هـذيل من العثـور على البطارية في جازان، فهو لن يصل إليَّ إلاَّ بعد عدة أيام.

صحـوت على صوت عويل مـرتفع ينبعث من ناحـية المعـسكر المجاور لنا، وذلك في الصباح الباكر، حينما كانت الشمس تحاول الظهور من فوق كتف القمة البعيدة لجـبل العُرّ، ناحية الجنوب الشرقي. وقد أوضحت الاستـفسارات أن امرأة متقدمة في السن جداً قد ماتت، وتواصل النواح لساعة كاملة، ويبدو أن الموضوع ما هو الا استـعراض لولولة منظمة لا يصـاحبها إحسـاس. كنا - مع ذلك - بعد قليل على الدرب مـرة أخرى تاركين القـرية لجنازتها، ولم يـبد يزيد أيّ رغـبة - لحسن الحظ - ليبقى من أجل التشييع.

بدأ مجـرى عَضَد كأنه مـسيل صغيـر، ينحدر من انطواء في السفـوح التلية الخارجية، وسرعان ما وصلنا إلى وادي قصي مرة أخرى، بعد مغادرتنا للمعسكر، والذي تتبـعنا ضفـته اليمـنى في اتجاه الشمـال الشرقي بين كـثافة الغطـاء النباتي السفـحي من نوع صبار الشـيمة ذي الأشواك والأزهار الـصفراء، وكذلك شـجرة العَـدَن الغريبـة الشكل ذات الأزهار الوردية، وهي مـصدر للبـخور، وتنمـو إلى ارتفاع (٦) إلى (١٢) قـدماً ويضيق سـاقها إلى أعلى عند قـاعدة منتفخـة درنية. ويجري غيل عنيف في الوادي نفسه فوق بطن حصـوية، ويستمر لمسافة إلى حيث قرية صـغيـرة تسمى الحـمى، تقع عند حافـة أرض الحباطـة المرتفعة. تتـبع هذه المستوطنة قـوم عبس (قحطان)، الذين يرتبطون بصلة قرابة مع أهالي الحـقو. لقد

كانت غابات قصي مملوءة بالطيور من بينها العجلة، وتسمى هنا أبو معول، وفي كثافة، كما كانت في وفرة كذلك طيور القنبرة طويلة الذيل والتُّمَيْر الأسود، كما لاحظت بعض طيور أبو مطرقة وهي بجوار الماء، وشاهدت أحد أعشاشها الضخمة على إحدى الأشجار[١]. يقول يزيد إن وادي قصي ما هو إلا استمرار لوادي الجَوّة[٢]، الذي ينبع من الجرف الذي شاهدته عند ممر عَلَبين[٣].

نحن الآن داخل منطقة السفوح التلية، وسرعان ما عبرنا قصي وغديره المرتفع الذي يبلغ عرضه (٢٠) ياردة وينحدر ماؤه فوق الجدول الحصوي، متجهاً إلى حقول قرية أم الرماد، وهي مستوطنة أخرى تتبع بلغازي. ويقع قسم آخر من القرية الصغيرة إلى يسارنا وبه مسيل عميق نسبياً ترتفع ضفتاه إلى ١٠٠ قدم، ويفصلهما الشست الذي من فوقه يقع طريقنا الذي أخذ يرتفع تدريجياً إلى حيث مضيق في سلسلة منخفضة في بلاد عارية وجافة. ثم تركنا وادي قصي الآن من خلفنا، وتواجهنا سلسلة من جبال وهضاب تقع على مسارنا الشرقي ناحية وادي عَيْبانَ. كما يوجد عدد من القرى المتفرقة فوق قمم السلاسل، كان من بينها كَدَرَة عافية وهي على بعد (٣) أميال، وغلفة، وهي مستوطنة كبيرة، إلى البعيد وتقع على يميننا وتطل على مجرى عيبان. كنا قد أرسلنا مسبقاً الجمال والعفش في صحبة سعد للسعي الجاد، للوصول إلى موقع لنهاية الرحلة حيث سنقضي الليلة،

(١) هذه المناطق التي يتحدث عنها فيلبي في هذه السطور الوسط بين سهول تهامة وسفوح جبال السروات الغربية؛ ولهذا فهي تجمع صفات البيئتين من حيث تنوع الأشجار وتنوع الطيور المختلفة في ألوانها وأحجامها. (ابن جريس).

(٢) أعالي وادي الجوة يتبع لقبائل قحطان في بلاد السراة، وتخترق هذا الوادي طريق متوسطة الصعوبة تسلكه السيارات من السراة إلى أراضي تهامة. (ابن جريس).

(٣) ممر علبين أحد المنافذ بين السعودية واليمن في بلدة ظهران الجنوب لقبائل وادعة. (ابن جريس).

غير أن قافلة حميرنا قد رسمت لوحة جميلة وهي تنطلق في طريقها من فوق ومن بين سلاسل السفوح التلية المنخفضة. يشير تركيب هذه الأرض إلى تجمع كبير من القباب الكبيرة ذات الأحجام المختلفة مجتمعة معاً في شيء من الفوضى وتفصلها عن بعضها البعض سلسلة مسايل تنحدر إلى وادي عيبان. يسمى واحد من هذه باسم شعيب معروك وبه بعض الزراعة التابعة للحناية على ضفتَيه، بينما ألقينا نظرة من قمة السلسلة إلى ما يليها حيث شبكة وادي عيبان الذي تصب كلها فيه.

يمكن رؤية ما يقارب نصف دستة من القرى، على مساحة يبلغ نصف قطرها ميلين، وهي تقع على رؤوس السلاسل والهضاب، فوق السفوح الجبلية ونحن نطيل النظر إلى الخلفية الرائعة للجبال الكبيرة، وقد بدت قريبة منا وشامخة من فوقنا، وعندما كانت تعبر السماء سحب متقطعة. تقع قرية غلفة ناحية الجنوب أسفل كتلة صخرية هرمية الشكل ومعها كدرة عافية. لقد تعرجت أكبر هذه القرى من أمامنا ناحية الجنوب الشرقي، على حافة منحدر للشاطئ البعيد لعيبان، وتسمى الحناية، وتقع قرية خطوة الحجوة الصغيرة بينها وبين معتقة وهي مستوطنة مهجورة على قمة تل هرمي صغير. وتقع قريتان صغيرتان إلى ناحية الشمال الشرقي، وهما الحرف وثاهر الغدير من فوق سلسلة تبعد حوالي ثلاثة أميال إلى الخلف منا، وتقع شهران على سلسلة أخرى مع بعض المدرجات المعدة للإمساك بمياه الأمطار، التي تزرع عليها المحاصيل. لقد كانت معظم مساكنهم أكواخ من الحجارة مع بعض العشش المصنوعة من الأعواد وتكون مبعثرة فيما بينها. ويقع سوق هذه الأرض السطحية التلية في عيبان ويسمى سوق عيبان أو سوق الخميس والذي - للغرابة- لا يقع في وادي عيبان ولكن يوجد أسفل كتلة فيفاء في وادي جوراء. ويتصل وادي عيبان، مع المجرى الكبير فيما يلي حافة السفوح التلية إلى

أعلى موقع التقائه مع وادي ضمد، الذي كما قد رأينا يجري إلى البحر قليلاً إلى الشمال من جازان. ولا يرتفع عيبان إلى أكثر من سلسلة الحرف، بضفافه العميقة وأشجاره الكثيفة ومجراه الذي يبلغ عرضه (٣٠) ياردة. ثم هبطنا مجراه، وبعد أن وصلنا إليه عبر مسيل ضحل شجري، حيث توجد بئر واسعة الفم مبنية تقع على الضفة اليسرى واسمها الغاوية ثم صعدنا مرة أخرى إلى الحناية.

لقد أكرم الشيخ المحلي وفادتنا هنا، وكان اسمه مفرح أم جرو، ويزعم أنه الشيخ الأساسي لقبيلة بني الغازي، والتي تعادلها في الأهمية يَهَانِية فيفاء، وبني حرَيص، وبني مالك، وأقسام أخرى ترجع من خولان. لقد وفرنا تَزوّدنا بالبن مقابل وجبة الطعام -وهذه بضائع نادرة في القرى الفقيرة- وذلك في داخل خيمة من القضبان التي يبدو أنها كانت مركزاً اجتماعياً، وكانت باردة ممتعة. ويطلقون على المدرجات الزراعية هنا لفظ دموم (وجمعها دمامين)، ويتم بناؤها على مجاري مسايل صرف صغيرة كانت قد تكونت بواسطة انطواءات التلال[1]، وكثيراً ما تكون منظرية، بأكواخها الحجرية المدورة المنعزلة أو التي قد تتجمع من اثنتين أو ثلاث لسكن مراقبي المحصول.

كان الجو حاراً عند الظهيرة، وقد واصلنا -وفي مشقة- صعودنا إلى التل وهبوطنا حتى وصلنا إلى طريق مستو وعريض يقود إلى أسفل، إلى وادي جوراء عند معتقة التي تبعد عنا الآن مسافة نصف ميل ناحية اليسار، والتي كانت أطلالها

(١) هذه الأجزاء الواقعة عند سفوح جبال السروات الغربية توجد بها الأراضي الزراعية الكثيرة التي تكثر فيها المدرجات الزراعية المبنية بالحجارة كما عند أهالي السروات الممتدة بلادهم من صنعاء حتى بلاد الطائف. وفائدة هذه المدرجات أنها تحفظ تربة المزارع من الانجراف، كما أنها تفصل المزارع بعضها عن بعض فتصبح كل مزرعة معروفة بحدودها ومعالمها الأرضية. (ابن جريس).

عبارة عن مركز حربي قديم لـلإدريسي. كانت الضفة اليمنى لجوراء في هذا الموقع منحدرة باعتـدال إلى جرف ارتفاعه (١٥٠) قدمـاً، وبه ممر يقود إلى أسفل الوادي العريض، والذي في بطنه يجري غدير ذو اعتبار تحفه ضفاف معشبة منحدرة ناحية كتل الآجمات. لـقد وصلت جمالنا مؤخراً لهـذا المكان على الرغم من أنها كانت قد سارت قبلنا بفترة طويلة، وأننا قد تباطأنا في الطريق. لقد قررت أن نتوقف في هذا الموقع اللطيف، لنهيئ للجمال فترة راحة لبداية تالية للسفر، وكان معنا مفرح الذي رافقنا من الحناية. لقد كان مفرح هذا رجلاً مُرْهَقاً ويبدو عليه المرض، ولربما كان ضـحيـة لمرض السل، على الرغم من أنه يعزي حـالته الصـحيـة إلى الحُمَّى الواسعة الانتشار في هذه القرى، التي تعتـمد على مياه الغيل الجارية في أوديتهم. بدا مجرى جوراء وكأنه ذو امـتداد كبير، وقد احتلَّ كل المساحـة التي حللنا فيها. لقد انتهزت هذه الفرصة المناسبة واغتسلت جيداً في مياهه الباردة المنعشة، ثم أدينا صلاة الظهر فوق أرض معشبة خضراء على حافة الغدير.

كانت السـاعة الرابعـة مساءً حـينما امـتطينا حمـيرنا، وواصلنا سـيرنا أعلى الوادي، وقد انحدرت السفوح العظيمة لكتـلة فيفاء إلى أسفل المجرى على جانبنا الأيمن. أينمـا نظر المرء فإنه يجـد آثار الناس ومساكـنهم، التي بدت وكأنهـا قلاع صغيـرة أكثر منها منازل، وعادة مـا تكون منتصبة منفـردة على بعض الهضاب أو القمم العـالية، وأحياناً أخرى تكون فـي مجموعات صـغيرة حين يسمح مـستوى الأرض بذلك. لم أر مثل هذا المشهد من قبل. إن فيفاء مدينة جبلية، وقد انتشرت مساكنها فوق مـساحة واسعة في كل موقع ملائم، بينما مُلئت الفـراغات المعترضة بحقول ذات مدرجات، المدرج تلو المدرج من القاعدة إلى القمة. ويُعْتَقد محلياً أنه يوجد في فيـفاء حوالي (٦٠٠٠) مسكن من هـذا القبيل، وأعتقـد أن هذا تقدير

صحيح وأن عـدد سكانها يبلغ (٢٥٠٠٠) نسمة. لقـد كنا على ارتفاع (١٢٠٠) قدم فوق سطح البحـر عند مياه غيل جورا، ويرتفع سوق عـيبان بحوالي (٢٥٠) قدماً فوق ذلك، بينما تقع قمة فيفاء على ارتفاع (٥٧٠٠) قدم فوق سطح البحر. ويقدر طول محـورها الرئيس من ناحية الشمال الشـرقي إلى الجنوب الغربي، من نهري جوراء وضمد بحوالي خمسة أميال ويصل أعرض موقع له إلى ثلاثة أميال. ويقدر أن نصف المساحة الإجمالية للمنطقة تشغله مساكن أو مدرجات زراعية[١].

لقد كنا نسـير أحياناً في الوادي، وأحيـاناً أخرى عبر الألسنة البـارزة لقاعدة فيفاء، ثم مـررنا بحافة جلمود سلسلة معتقة علـى اليسار والتي من عندها ينحدر المجرى إلى الخلف داخل منعطف حاد بين ضفتين مـرتفعتين. ثم مررنا بقرية المَرْمَا الصغيرة بعد ذلك، وتقع فوق نتوء على الضـفة اليسرى، وبحقول ذات مدرجات وبقصر جيـد البناء وببعض الحصون التي تحرس نهاية فيـفاء. ظل النهر الجاري في رفقتنا كمـا وقفت بعض المنازل لقرية خطوة على ضفته اليـمنى قليلاً إلى الأمام، بينما تقع قـريتا سرأم القـرع على الضفاف المقـابلة فيمـا يليه. لقد كـانت معظم حقولها إلى الأسفل وداخل المجرى، إلاَّ أن القريتين نفسيهما تقومان فوق سلاسل تطل عليه -ربما لتـحاشي مرض الحُـمّى (سَدَمْ) المنتشر في هذه الأودية ذات مـياه الغيل. وكانت هنالك امـرأة تقوم بسحب الماء من بركة نحتـتها من داخل الرمل، وبعيـداً عن الوادي وذلك لأغراضهـا المنزلية، وكنت قد توقـفت لأشرب من الماء الذي احتـفظت به في القَرْع[٢] التي كانت تسـتخدمـها لملء القـربة الجلدية، لقد

(١) للمزيد عن تاريخ وجغرافية بلاد فيفاء، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، حـ٢، ص ١٨٠ – ١٨٥ . (ابن جريس).

(٢) تسمى هذه الأداة محلياً بـ (الشِقْفَة) وتصنع من القَرْع واليقطين بعد تجفيفه وتجويفه. (المراجعون).

ناولتها ريالاً مقابل كرمها هذا، ثـم واصلتُ سيري لأصل سريعاً إلى حقول سوق عـيبـان -وهي أحواض ذات حـواجز بنيت من طمى الوادي، وبهـا حقـول ذات جدران حجـرية متسلقة فوق السفـوح على الضفة اليمنى، ومن خلفهـا على هيئة المدرجات. لقد كانت قرية كئيبة ذات منازل وحيدة الطابق، ومبنية من الحجر فوق مسطبة مـسطحة ترتفع إلى حوالي (٣٠) قدمـاً فوق وادي جوراء عند الزاوية التي تكوِّنها ضفتها مع الضفة اليمنى لمسيل شعيب القات، الذي يهبط من سلسلة خَدُور المجاورة، والتي من ورائها ارتفعت سلسلة مَصِيْدَةُ ذات القمم الثلاث وكتلة صُماد المنعزلة. كانت أكواخ سوق عيبان منتـشرة في مجموعات صغيرة من (٤) أو (٥)، وكانت كلهـا مسـتديرة الشكل وكان السـقف فيـها مسطحـاً ومن اللبن ومدعـماً بالأعمدة. ويشـتمل السوق على ساحة صغـيرة مكشوفة تقع بين القرية الصـغيرة وسفح التل، وهو مؤثث بصفيَّن طويلين للأكشاك وتفصلهما حواجز من الحجارة، وكانت كلها ذات سـقف من القش المدعم بأغصان العلب والبشـام العطري. كما كانت جوانب التل مغطاة في كثافة بشجرة تسمى المظ ثمارها عنبية.

ينحدر مسـيل بَيْضَان الذي يجري مقـابل القرية من سفح فيـفاء، ليصب في جوراء داخل دلتا واسعة كثيفة الشجيـرات، وقد تم إعداد معظم مساحتها للزراعة وجهزت بالمدرجـات، كما انحدر العديد من المسـايل الأخرى إلى هذا الموقع الذي ينتهي على مساحة نصف ميل أعلى القـرية داخل منحنى حاد ناحية اليمين وحول صخرة بارزة. لقـد حجب ضباب خفيف من ناحـية الجبال قمم فيـفاء عن مجال الرؤيا، غـير أنه يبـدو أن كل بقعـة في كل مكان صـعوداً إلى أعلى قـد شغلهـا مسكن. لقد كان الوادي إلى أسفل هادئاً وساكناً ورطباً وموحلاً، ذلك لأننا كنا قد انحبـسنا كلية بين السلاسل على الضـفة اليمنى والجوانب العـالية لفيفـاء. وكانت أدنى درجة حـرارة ليلاً هي (٦٣) درجـة، غير أن درجـة الحرارة في الليلة التـالية

بلغت (٦٨) درجة، ولقد كان علينا قضاء اليوم التالي كله هنا وذلك بسبب عدم وصول فريق الحمالين من فيفاء لنقل عفشنا.

لم يكن زوار سوق عيبان مثيرين للاهتمام، غير أننا ابتعنا منهم جَدْياً للعشاء، وعدداً من الدجاج (خمسُ دجاجاتٍ بريال واحد) لعشاء الليلة التالية. وكان يزيد الذي رافقنا من العيدابي، قلقاً يفكر في الذهاب إلى وطنه، لحضور مأتم المرأة العجوز، التي كانت قد توفيت في ذلك الصباح ولاستقبال التعازي من الزوَّار المتوَقَّعين. لم ينتظر يزيد لتناول العشاء معنا وذهب بمبلغ الريالين بدلاً من الريال الواحد الذي كان يتوقعه. تناول طعام الغداء معنا كل من مفرح والرجل الآخر، الذي أقبل من قرية الحناية، ولم يكن أي منهما مفيداً لنا، وقبل أن يستأذنا، فقد أخذ كل منهما ريالاً مقابل خدمات اليوم. كما وجدت ولدهشتي وسروري أن جهاز الراديو استعاد عافيته دون أن أحسب لذلك أي حساب، بعد ما كان عليه في الليلة السابقة، وبدا الاستقبال بصورة طبيعية.

تمكنت من استقبال أخبار العالم كالعادة، أثناء قيامي بتحزيم وإلصاق الرقع على ما تحصلت عليه اليوم من عينات، والتي تضمنت أول عينة من طائر الفردوس، صائد الذباب الذي كان الذَكَر منه ذا ذيل طويل جداً، وطائر الصرد الذي لم أشاهده من قبل. كما تحصلت أثناء النهار على طائر الحجل الصخري العربي العادي، وعلى طيور أخرى عديدة. كما قمت بجمع كمية وافرة من المجموعة النباتية الغنية، والتي- ومن الغريب جداً - بدا أن الناس في هذه الأنحاء يعجبون ليس باستخداماتها العملية، أو الرعوية أو الطبية، وإنما بتأثيرها الزخرفي. لقد رأيت العديد من الرجال أثناء النهار، وهم يضعون أكاليل أعشاب عطرية خضراء على رؤوسهم أو ينسجونها في شعورهم، بينما يرتدي آخرون قبعات

مهيبة من سعف النخيل مع ريش طيور كبيرة قاتمة[١]. وكان ذلك هو عامل الأناقة الذي ينعدم في ساكني الصحراء. يعد وادي جوراء من سوق عيبان حتى قرية بَيْضَان إلى أعلى قليلاً وفي مقابل الوادي محدداً الحدود الجنوبية لبلغازي. ويبدو أن حدودهم شمالاً كانت عند وادي قصي وسلسلة مصيدة، والتي من عندها إلى سوق عيبان تمتد الحدود الشرقية[٢].

في الصباح كانت هناك طبقات كثيفة من السحب تغطي فيفاء، امتدت إلى حوالي (١٠٠٠) قدم من الوادي، وقد اهتزت حواسي بفعل صوت مزمار راعٍ يعزف لحناً رقيقاً من جانب الجبل، كنا نتوقع وصول فريق الحمالين عند الفجر ولم ننتبه للحقيقة المهمَّة أن اليوم كان يوم الاثنين، وهو يوم السوق في فيفاء نفسها. لم يحضروا على أي حال، ولما كان كل النقل فوق الجبال محصوراً للحمَّالين من البشر، وذلك بسبب صعوبة النقل بالحيوانات فوق الصخور الشديدة الانحدار، كان علينا أن نلزم الصبر. لقد تم تنبيهي - بالمناسبة - بأن معظم الحمَّالين سيكونون من النساء، وكنت أفكر إن كنَّ سَيَكُنَّ في كفاءة أخواتهن في جبال الهملايا، حيث تستطيع النسوة هناك رفع أثقال مدهشة. لقد اشتمل فريق الحَمَّالين حين وصوله في صباح اليوم التالي على عدد متساو من الرجال والنساء - حوالي درزن من كل جانب- وكان بعض النسوة متناهيات في الصغر لا يزيد طولهن عن ثلاثة أقدام ونصف القدم. ارتدى كل النسوة ثياب خارجية فضفاضة تصل إلى

(١) هذا النوع من اللباس لا زال منتشراً ومستخدماً عند بعض سكان تهامة وبخاصة القاطنين في المناطق الجبلية الريفية من سفوح جبال السروات الغربية. (ابن جريس).

(٢) للمزيد عن سوق عيبان، والمعروف بـ (سوق الإثنين) في بلاد بلغازي، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص ١٨١ ــ ١٨٢ . (ابن جريس).

أسفل الركبة، بينما ارتدى الرجال ما يغطي العورة فقط. وعندما جاء موعد التقسيم، كان جهاز الراديو وواحدة أو اثنتين من المعدات الثقيلة، من نصيب الرجال. في الواقع لم أعتقد أن أياً من هؤلاء النسوة يمكنها حمل هذه الأشياء، إلاَّ أنهن وتحت ثقل احمالهن كنَّ يمشين مشية متأرجحة نشطة. لقد كنَّ متسلقات جبال ماهرات.

عموماً، فقد أمضيت يوماً جميلاً في التجوال حول المكان، ومعي بندقيتي وشبكة صيد الفراشات، مكتشفاً بعض الأماكن من أعلى الوادي ومسيل بَيْضَان الكثيف الشجر، والذي استمتعت فيه بإغفاءة القيلولة بين أشجار الأراك المتداخلة مع نبات الغَلَفْ [1] الذي ينمو بازدهار في كل مكان. ذكرتني كتلة فيفاء الضخمة بجبل هرمون، ولكن بدون قلنسوته الثلجية، وهي قمة مهيبة، أو هي هضبة مدعمة من كل الجهات بكتوف ضخمة من صخر شديد الانحدار. فيفاء عموماً، عبارة عن أحزمة متتابعة من المدرجات التي أدهشتني، كانت هذه المدرجات متقطعة في السفوح السفلى، بينما تكون متقاربة لدرجة الالتحام عند ارتفاع (٣٠٠٠) قدم. وقد كشفت هذه المدرجات عن حب المغامرة والصناعة عند أهل هذه الجبال مقارنة مع أهل وادي بيش الكسالى، وقد أدهشني فشلهم التام في الاستفادة من وادي جوراء نفسه ومياه غيله المستديمة الوافرة، وكان تفسيرهم لذلك أنهم لا يستطيعون مواجهة السيول الموسمية التي كانت تنهمر بكميات هائلة، فتجرف كل شيء في طريقها إلا ما امتنع. وحتى الآن لا أستطيع أن أتخيل أنه في يوم ما،

---

(١) الغَلَفْ: شجر متسلق إذا وجد ما يتسلق عليه وإلا زحف على الأرض، أوراقة خضراء في حجم راحة الكف، وقد تكبر أو تصغر، ويؤكل مطبوخاً، وفي طعمه بعض الحموضة، وكذلك كان يستخدم لتضميد الجروح، وللمزيد عن نباتات بلاد تهامة والسراة، انظر: **كتاب النبات للدينوري**، وبخاصة الجزءان الأول والثاني، كما انظر: غيثان بن جريس، **صفحات من تاريخ عسير**، جـ١، ص ٣١ ــ ٤٣ . (ابن جريس).

ربما في المستقبل غير البعيد، سيكون في مقدور الحكومة السعودية ترويض هذه الأودية الجبلية العظيمة في مشاريع كبيرة لري منخفضات تهامة -وهي أرض في حجم الدلتا المصرية-.

لقد كانوا أناساً محبين للاستطلاع، هادئين، مختلفين تماماً عن كل الآخرين في الجزيرة العربية. يمكنهم الوقوف دون حراك، وأن يطيلوا النظر ناحيتي وأنا أعبر غير أنه إذا توقفت مثلهم وأطلت النظر ناحيتهم، فإنهم يتململون كالأطفال ويذهبون في حال سبيلهم وكأنهم قد نسوا شيئاً ما، يحمل معظمهم هراوات طويلة، ويحمل بعضهم بنادق بدلاً عنها - بشكل أفقي فوق الكتفين من خلف العنق - ويدلون أذرعتهم من فوقها إلى الأمام[1]. كما كانوا يغطون الجزء الأعلى من أجسامهم مع برودة الصباح بقطعة من القماش، وعندما تشتد الحرارة يلفونها حول الأُزُر التي تغطي عوراتهم.

لقد استيقظت مبكراً عند وصول الحمالين، في الثاني والعشرين من ديسمبر. تبدو قمم فيفاء الآن واضحة وصافية في حزام من الهواء الخالي من الضباب الذي يقع بين طبقة سميكة من السحب، وبين جداران من ضباب كثيف بدأ يصعد إلى أعلى الجبال من الأودية على الجانبين. ثم اختفى هذا المنظر فجأة باتصال السحب مع الضباب، ولم نكد نر شيئاً من الأجزاء العليا للجبل، حينما بدأنا الرحلة عند الساعة (٨,١٥) صباحاً، كانت هنالك لمسة رطوبة واضحة في الجو غير أن الندى لم يكن كثيفاً أثناء الليل. يوافق هذا اليوم بداية الشهر الثامن لجولاتي، وفي أحوال كثيرة فقد جلب لي تجارب فاقت كل تجاربي السابقة. لقد تم حمل الشنط

(١) هذه العادات كانت منتشرة بكثرة في أجزاء عديدة من جنوبي البلاد السعودية، مع العلم أن بعض البدو وكذلك سكان الأرياف والرعاة لا زال بعضهم يمارسها حتى الآن. (ابن جريس).

على الأكتاف بين الكثير من الصراخ والجهد، وانطلقنا تاركين الجمال والحمير لتسلك طريق وادي جورا، إلى موقع تم تحديده لها حيث سنقابل الجميع هناك بعد يومين.

سلكنا الشاطئ الجانب للمجرى مدة عشرين دقيقة، عبرنا خلالها فم مسيلين هما قَعْصِنْ وجَيْران، عبر عشب وغطاء نباتي لا يزال مبتَّلاً بالندى، ثم استدرنا عند مسيل السَرِبْ، وهو مسيل ثالث أوصلنا خلال نصف ساعة قضيناها في صعود شاق إلى البرك الصخرية العظيمة في الوغرة[١]، تتكرر كلمة الوغرة كثيراً في هذه المنطقة! تعني بركة صخرية يضاف إليها اسم المسيل التابع لها – وذلك عند الضرورة – لأجل تحديد أيٍّ منها هو المقصود. وتقع هذه البرك الصخرية – العميقة والشفافه والممتلئة بالأسماك الصغيرة، – فوق وأسفل جرف كبير، يبلغ ارتفاعه (١٠٠) قدم، وعرضه (٥٠) ياردة عبر الوادي. تتصل هذه البرك بواسطة انسياب خفيف لشلال يمر إلى أسفل من على واجهة الصخر الشديد الانحدار – والمكوَّن من الشست الذي قد أملسته المياه وبلونه الأزرق الساطع، والذي تنحدر المياه من فوقه، خاصة أثناء السيول كأنه صورة مصغرة لشلالات نياجارا[٢]. لقد كان وهداً صغيراً جميلاً كثيف الشجر، وكانت أشجاره ضخمة قد تقطّرت الرطوبة من جذورها العارية، ومن السراخس ومن غطاء نباتي آخر، بينما انتشر فوق أغصانها المتشابكة أوراق نبات والهدال[٣]. ثم انسدَّ طريق مرورنا إلى أعلى

(١) الوغرة: هي الاسم المحلي للعين الحارة. انظر: العقيلي، **المعجم الجغرافي**، ص ٧٦ . (ابن جريس).

(٢) شلالات نياجرا: هي الشلالات الموجودة في كندا والقريبة من حدود الولايات المتحدة الأمريكية من الجهة الشمالية. (ابن جريس).

(٣) الهدال:ــ نبات يحمل ثماراً بيضاء صغيرة، ويستخدم للزينة، وكذلك غذاء لبعض المواشي مثل الأغنام والماعز. (ابن جريس).

المسيل، بواسطة الجرف الذي كنا قد استدرنا من حوله، لنصل إلى الجانب الأيمن لمضيق السرب الذي يجري شرقاً ناحية الجبال.

ويسلك طريقنا السَرِبْ إلى فترة ما، ثم يتخذ الطريق بعد ذلك ناحية مسيل مروة الرافد، الذي تركناه بدوره لنتبع السبجة، وهو مسيل آخر ناحية الشمال الشرقي. كنا لا نزال على السفوح السفلى المنخفضة لفيفاء، وكنا على حوالي (٣٠٠) قدم فوق وادي جوراء، بعد مسيرة ساعة كاملة متقطعة. لقد كانت الغابة الكثيفة الشبه مدارية ممتلئة بالطيور والفراشات وعدد من حشرات أخرى، غير أنني رأيت فوق كل هذا مجموعة صغيرة فقط من قردة البابون في منطقة فيفاء، وربما يعزى هذا لوجود حركة الإنسان.

لقد صعدنا الآن هذا المنحدر الذي يقع بين مردة والسبجة لنصل إلى قرية السَرْبَة الصغيرة، وهي عبارة عن مجموعة من الأكواخ المدورة المسقوفة بالطين يبلغ قطر الواحد منها عشرة أقدام، وتقع على قمة سلسلة تطل في انحدار شديد على المسايل من الجانبين على عمق (٢٠٠) قدم أسفل منا. وتنقسم مردة نفسها من عند مسيل الجَرْفَة بنتوء مماثل، وهي موقع لالتقاء كل هذه المصارف أعلى شلال الوغرة، التي تكوِّن بعد ذلك مجرى السَرِبْ. ومن خلال هذه النتوءات المتجاورة والمنخفضة قليلاً عن مستوى ارتفاع القرية الصغيرة، يعترض الشست بواسطة حزام - سمكه حوالي (١٢) قدماً - من المَرْمَل[1] الأصفر والبنفسجي، والذي كنت أعتقد أنه يشبه ترسبات المغر (البوكسيت) التي كنا قد قابلناها في أجزاء أخرى من هذه البلاد التلالية. لقد كان واضحاً أنها نوع من بعض الصخور المتحولة، وربما

(١) المَرْمَل: نوع من الطين يستعمل كالسماد في بعض الأحيان، ويوجد في أجزاء عديدة من مناطق جنوبي البلاد السعودية. (ابن جريس).

كانت عـرقاً من الرخـام يقع تحت جرانيت رمـادي وفوق الشست الـذي يبدو أنه ينتهي عند هذه المرحلة.

ينتهي نتوء السـربة عند صخرة عالية، على ارتفـاع (٢٤٠٠) قدم فوق سطح البحر، إلى الشـرق من القرية الصغيرة، الذي نظرنا من فـوقه إلى أسفل في خط مسـتقـيم إلى شلال الوغـرة، ونقطة بداية انطلاقنا عند سـوق عيبـان. وتقع إلى الجنوب منا وعلى حـافة حـرف أسود يطل على مـسيل الجـربة إلى أسفل، قـرية صغيرة بالاسم نفسه بحقولها ذات المدرجات الصاعدة والتل من ورائها. لقد رأيت ناحية القرية النسوة الحاملات لعفشنا وقد سلكن طريقاً مختصراً لتصل إلى الطريق الرئيس أمامنا بالقرب من الجَرْبَة. واصلت النسوة الحمالات سيرهن وهن يغنين ولا يبـدو، أنهن يفكرن في أمر حـملهن، بينمـا لا يزال الرجـال بأحمـالهم الثقـيلة مـتـخلفين إلى الوراء. كنا لا نزال نصـعـد فـوق الطريق الملتـوي، الذي لم يكن منحدراً وذلك لأنه كـان يصعد مـن مستـوى إلى آخر. كانت هنالك حـقول ذات مـدرجات عند هذا الارتفـاع على كلا الجـانبين، إلاَّ أنه فـقط، حينمـا نصل إلى ارتفـاع (٣٠٠٠) قدم فـوق سطح البحـر، يكون الطريق الذي سلكناه قـد دخل بالفعل في منطقـة الزراعة بالمساطب والتي تبـدو أنها مرتبطة مع وجـود الجرانيت اللين للسـفوح العليـا. كان عـرض المساطب التي كـانت تتبع الخطوط الـكفافـية للتلال، بضع خطوات بينما ترتفع الجدران المدعمة التي تفصل الواحد عن الآخر، بين قدمين إلى أربعة أقدام. وقد تكون الحقول ذات المدرجات أحياناً عريضة ويصل ارتفاع الجدران من (٨) إلى (١٠) أقدام. وتعتمد هذه الـعوامل -كما يعتقد- على صفة السفح.

توقفنا لالتقاط الأنفاس عند صخرة ضخمة ناتئة ترتفع إلى (٣٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، حيث ينتهي نتوء السَرَبَة عند سفح كتف ضخم يمتد إلى هذا الموقع من جهة الجنوب الشرقي. ثم تطلعنا من هذا الموقع ناحية الجنوب على امتداد جوانب فيفاء، وفوق قرية عين مبراه الصغيرة ومساطبها، وتليها قرية أخرى صغيرة، عبارة عن مجموعة من المراحيض حول مسكن جميل يشبه القلعة، ويسمى حصن القَهبَةَ. كما توجد قرية مماثلة وسط الحقول عند الموقع الذي توقفنا فيه بجوار ضريح مبني كبير، ارتفاعه قدمان ونصف القدم وعرضه قدمان، على جانب الطريق، وتسمى هذه القرية دحبة. وصلنا بعد قليل إلى قرية سلعي وهي عبارة عن مجموعة من نصف دستة من الأبراج الأسطوانية، عند حافة بعض المدرجات حيث كان الناس حينها يقومون بالحراثة لبذر محصول الشعير التالي. وقفت على مسافة إلى أعلى طريقنا عند ارتفاع (٤٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، قرية حيدرة المنظرية، مظللة بأبراج كل من المحماة وغاوي، قليلاً إلى أعلى السفح ناحية الجنوب، بينما شمخت ناحية الشرق أبراج كل من الغَارب والعَبْسية.

بدأنا نقترب الآن من منطقة القمة التي كانت عبارة عن كتلة من المدرجات والمباني المبعثرة المتباينة الشكل، تتفاوت أشكالها من هيئة الكوخ إلى القلاع المهيبة. لقد بدت المدرجات تعج بالبشر في الدوائر التي ترتفع حوالي (٤٦٠٠) قدم فوق سطح البحر، وذلك أثناء اقترابنا منها، وسرعان ما اتضح لنا السبب وراء ذلك؛ وهو أن كل السكان في المنطقة قد حضروا لاستقبالنا، وقاموا بإطلاق النيران من بنادق المسكت المختلفة الطراز بواسطة حرس الشرف الذي اصطفَّ على المسطبة السفلى للقلعة، من وراء الشيخ المحلي واسمه جابر، الذي تقدم إلى الأمام لمبادلتنا التحيَّة ولإدخالنا في مملكته. لقد أمكننا الآن أن نرى العديد من القرى التي تقع

على قمم التلال التابعة لـبلاد بني مالك، فيما يلي فيفاء ناحـية الشمال الشرقي، والتي سنقوم بزيارتهـا عما قريب. كـانت قرية ختيبـه، من بين هذه القرى، ذات أهمية لأنـها كانت موقعـاً لمركز شرطة بني مـالك. لقد رأيت من عند هذا الموقع أيضاً أول شجرة بن في فيفاء، بينما بدأ العرعر الآن في الظهور.

ثم عبر الطريق موكب من اليراسيع من صف واحد، يصل طوله إلى قدمين، ويقال إنها تطلق وهجاً فسفورياً بالليل - بينما كوَّن حرس الشرف، -وحقيقة، كل السكان المتفرجين- موكـباً آخر منافساً، من خلفنا ومن أمامنا لمرافـقتنا عبر الطريق الملتوي، من خلال قطع الأرض التي يملكونها، وهم يغنون أثناء مشيهم على إيقاع نغم حزين يـكاد يكون جنائزياً. كانت المرحلة التـالية هي قلعـة النقيل وهي أكـبر القـلاع بين هذه الحقـول ذات المساطب وتقع عند ارتفـاع (٥٠٠٠) قدم، حـيث تقابلنا هنا مـرة أخرى مع الحشد السكاني ومع حـرس الشرف المكون من (٢٠٠) رجل، والذين أطلقوا عدة قذائف للتحية وذلك حيـنما تقدَّم شيخهم للترحيب بنا وهو الشيخ علي بن يحيى، واحد من الرؤساء الرئيسين لفيفاء وقد أشار إلى موقع منزل أسرته، وهو بناء يشبه القلعة يسمى المروح، ويقع عند الطرف الشمالي لقمة فيفاء، والتي كانت مبرقعة على طول امتدادها بمبان أخرى مماثلة.

التفَّ الموكب الحشدي الجـديد حول أجسامنا النحـيلة من كلا الطرفين، وقد تدعَّم بالشيخ وبعض حاشيته، ثم واصلنا متـابعة الممر المتعرج، والذي يجري عبر المدرجات التي تقع من فوقنا ومن تحتنا. لقد تحرك الموكب في صفين طويلين وهم يغنُّون أناشيـدهم الجماعيـة حتى وصلنا آخر الأمـر إلى مركز الإمارة عند السـاعة الثالثة مساءً ويقع فوق الهضبة العريضة للقمة، وهو ليس بأي حال عند قمتها التي تقع ناحية الشمال الشرقي على بعد نصف ميل، وتعلوها أطلال قلعة قديمة تسمى

العَبْسية. يتكون مركز الإمارة الذي يصل ارتفاعه إلى (٥٢٠٠) قدم فوق سطح البحر، من قلعة نموذجية ملحق بها العديد من المراحيض، ومبان مستقلة، وتتجمع كلها تحت الظل الوافر لشجرة البانيان (الأَثْبْ)، وتسمى هنا التَّالق، وعليها كتل من الجذور المتدلية في الهواء من أفرعها الضخمة سميكة الأوراق. لقد كانت القلعة في موقع مسيطر وتطل إلى أسفل على المدرجات المتراكبة، التي خصصت في هذا الإقليم المرتفع لزراعة البن والقات والموز، بينما يزرع في الحقول السفلى كل من القمح والشعير. كما تزرع كذلك فاصوليا عريضة الأوراق، ممتدة الساق فوق جدران المدرجات وتتعلق عليها كما يفعل العنب، ويُحد فراغ مستوٍ بالقرب من مركز الإمارة من أحد جوانبه المقبرة، بينما يتم حجز بقية المساحة لمناشط سوق الاثنين المحلي، وقد أعدت له أكواخ قليلة العدد تقوم مقام المتاجر.

كان عبدالهادي -وهو رئيس المركز- مثله مثل محمد بن ماضي في جازان، مواطناً من أبناء الروضة في سدير[1]، وهو رجل نشط، جاد التفكير، وشاب، ويبدو أنه على تفاهم تام مع هؤلاء الناس، في هذا المركز النائي المنعزل البعيد، وسط قبائل حاشدة. وبناءً على الاعتقاد المحلي، فإن هؤلاء الناس ينتمون إلى مذهب الإمام الشافعي السني، غير أن عبدالهادي الذي كان حاذقاً وحازماً في

(١) من الملاحظ أن معظم رجال الإدارة في أجزاء عديدة من جنوبي البلاد السعودية أثناء زيارة فيلبي لهذه المناطق كانوا من نجد وربما من الحجاز. ومن يتتبع أسماء وتاريخ جميع رجال الدولة في هذه الأجزاء يجد أن أعداداً كثيرة منهم هم من فئات المتعلمين، من أصول شامية، أو مصرية، وربما عراقية وسودانية وهندية وغيرها. وهذا الموضوع جدير بالدراسة من قبل الباحثين وطلاب الدراسات العليا في الجامعات السعودية. للمزيد انظر: غيثان بن جريس «التعليم وحركة التحول التاريخي في منطقة عسير خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي)». **دراسة منشورة في مجلة بيادر الصادرة من نادي أبها الأدبي**. عدد (٢٠) (١٤١٨هـ / ١٩٩٧م)، ص ٢٩ ــ ٤٦ . (ابن جريس).

أمـور الدين، يرى غـير ذلك، وأفـتى بأنهم زيديـون (شيـعـة)، وذلك بناءً على طقوسهم الدينية[١]. ويجادل عبدالهادي، بأنهم مثلاً، يصلون منفردين مثل الزيود وليسوا جـماعة، ويحتوي أذانهم على فـقرة مؤثمة هي: حـيى على خير الأمل، بدلاً من حـيى على خـير العـمل[٢]، وأخـيراً فـهم يصلون حـسب الوقت الذي يلائمهم على مستوى الفرد بدلاً من الالتزام بمواعـيد الصلاة، ويجمعون بين صلاة الظهر والعـصر، وبين صلاة المغرب وصـلاة العشاء[٣]، وهذا يسمح به عند السنة أثناء السفر فقط.

ربما كانت الحقيـقة أن أهل خولان لا يأخذون أمر دينهم مـأخذ الجد، ويبدو أنهم لا يزالون يحتفظون بـبعض الطقوس الوثنية لأسلافـهم ولعل انبهارهم الذي يشبـه الزاغ الزراعي نحـو الأشياء البـراقة بعض من بـقايا هذا الاتجاه، قـد يكون لإكليل الأعشـاب العطرية الذي يضعـونه فوق رؤوسهم، كـما تم وصفـه، يقبل التفسير على أسس صحية شخصيـة كمطهرات مثلاً، غير أنه لا يوجد سبب مقنع يمكن أن يفسر أسـاليب تزيين الشعر التي كنت قد لاحظتـها في هذا الجزء الأعلى من فيفاء. لقد كانوا يستخـدمون أي قطعة من قماش براق اللون أو خرقة لذلك، كما تستـعمل ورق صناديق سيجار البحاري المقـوى الأصفر اللون والأغطية الملونة للكراميلة للغرض التزييني نفسه.

---

(١) المذهب الشافعي كان السـائد في الأجزاء التهامية، وأجزاء من المناطق الجـبلية، أما المذهب الزيدي فكان منتشراً في بلاد صعده وصنعاء وما حولهما. (ابن جريس).

(٢) هذا قول غير سليم، وبخاصة في الأجزاء التهـامية فهم منذ ظهور الإسلام إلى اليوم وهم يؤذنون بالآذان المعروف عند أهل السنة والجماعة. وربما يكون بين سكـان هذه البلاد من كان على المذهب الزيدي المنتشر في صعدة وصنعاء، ولكن مع هذا كله فهم قلة قليلة، مقارنة بأهل صعده وما حولها فهم يذكرون عبارة «حي على خير العمل في أذانهم» لأنهم على المذهب الزيدي (كما ذكرنا). (ابن جريس).

(٣) وهذا الجهل بأمور الديـن يعود إلى الأمية المنتشـرة في هذه البلاد، وإلى عدم وجود الدعـاة والمؤسسات العلمية التي تنور الناس في أمور دينهم. (ابن جريس).

شيء آخر من مخلفات الماضي البعيد، يمكن الإشارة إليه بما يمكنني أن أصفه بأنه الأسلوب المحلي لأداء لعبة الكريكت المحترمة. كنت قد شاهدت مباراة حية أثناء فترة ما بعد الظهيرة، يستخدم رجل المضرب عصى طولها (٣٠) بوصة، ثم يرمي إلى أعلى بقطعة صغيرة من خشب - (٤) إلى (٦) بوصات طولاً - ثم يضربها فتنطلق مندفعة في الهواء ناحية اللاّعبين، والذين كان هدفهم هو الإمساك بالكرة بقطعة من قماش، تمسك مكشوفه بكلا اليدين، ويعيدونها بأسرع ما يمكنهم إلى رجل المضرب، وإذا فشل هذا في إصابتها بالعصى فإنه يخرج حينئذ من اللعبة. تكثر أمثال هذه الألعاب الأثرية بين أطفال الجزيرة العربية، وربما حافظت لنا هذه الجزيرة على أصول ألعاب أكثر تعقيداً، فلقد كان أصل لعبة البولو هو الشام أو الصين، وكان من المثير للدهشة أن نقابل مثل هذه اللعبة في قمة هذا التل النائي. تسمى هذه اللعبة مزَاقَرَة[١].

لقد أشرت إلى أهل فيفاء بأنهم مجموعة اليهانية من خولان، غير أن هذه المجموعة تشتمل على أكثر من ذلك، وتتضمن كلاً من بني مالك، بني حريص، وبني جماعة، بالإضافة إلى أهل فيفاء. وينقسم أهل فيفاء إلى قسمين رئيسين هما: آل عبيد، ويقطنون في القسم الشرقي من الجبال، وآل عطا يتملكون الباقي[٢]. وينقسم هؤلاء إلى أقسام عديدة وأسر، وتحمل أسماؤهم الأبراج

(١) للمزيد عن الألعاب الرياضية ووسائل التسلية قديماً في جنوبي البلاد السعودية، انظر: غيثان بن جريس. **عسير ١١٠٠ ـ ١٤٠٠هـ**، ص ١٠٨ ـ ١١٦ ، وكتاب: **أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية**، ص٢٦٤ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) تنقسم قبائل فيفاء إلى قسمين رئيسين هما: آل عبيد وآل عطا، وينضوي تحت كل قسم عدد من القبائل، وكل قبيلة تنقسم إلى عدة أفخاذ. وجبل فيفاء بصفة عامة ينقسم إلى قسمين شمالي ويسكنه آل عبيد، وجنوبي ويسكنه آل عطا، ويعد نَيْد الضالع حداً فاصلاً بين القسمين، للمزيد من الإيضاح عن بلاد فيفاء، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، حـ٢، ص ١٨٠ ـ ١٨٥ . (ابن جريس).

والقرى الصغيرة التي يعيشون فيها، حيث يشير الاسم إلى رابطة، وحسب ما أستطيع تأكيده، فإن تحت القسم الوحيد الذي يزعم بأن له اعتباراً خاصاً هو الذي يتكون من مجموعة بني حكم التابعة لآل عطا، والتي تحتل القمم الثلاث الشرقية من فيفاء، وهم يتمتعون بموقع مسيطر[1] مما يؤهله بمرور الوقت ليصبح قسماً. ولا تبدو هنالك أي فكرة حول شجرة نسب قبائل أهل فيفاء، ولم أكتشف أي شيء فيما يخص كلاً من عبيد أو عطا، اللذين تمت التسمية عليهما لهذين القسمين.

يعود نسب الشيخ علي نفسه إلى أربعة أجيال إلى الوراء عبر أسرته الخاصة، وهو: علي بن يحيى بن شريف بن جابر بن علي. ومن هؤلاء قفز النسب عبر القرون إلى سنحان بن فرحان، ثم قفز عبر قرون أكثر إلى خولان بن عامر وهكذا. كما لم يكن لديه إثبات لموقع كل من عبيد وعطا في شجرة النسب، سوى أنهما أبناء أحمد، كما أنه لا يبدو عليه الاهتمام بالموضوع؛ لقد كان رجلاً طاعناً في السن، جذاباً برصيد كاف من كياسة العالم القديم، التي تقوم الحضارة الحديثة في كل مكان بطردها من آخر معاقل دفاعها، وذلك بظهور أجيال جديدة لا تعرف من هو يوسف. وعلى الرغم من سنوات عمره، فمازال علي سليماً معافى يسير معنا وبخطوته الخاصة، على رأس حرسه الخاص من النقيل إلى عند مركز الإمارة، ثم رافقني فيما بعد إلى العبسية بعد وجبة الطعام الممتازة التي كان عبدالهادي قد أعدها لحضورنا، وعلى الرغم من أننا قد وصلنا بعد الظهيرة لنستمتع بها، فقد توقف علي في جمود، حينما اقترحت عليه بأن كلانا قد تقدم به السن، وكلانا لا يقدر على الإسراع في السير على هذه التلال، فالتفت ناحيتي يسألني عن حقيقة عمري، ولما عرف بأن عمري خمسون عاماً علّق بأنه يكبرني

(١) إن هذه القمم الثلاث تقع في الناحية الجنوبية الشرقية من فيفاء. (ابن جريس).

بعشر سنوات، إذ إن عمره كان ستين سنة، كان عمره بالتأكيد سبعين عاماً وربما أكثر، وهو رجل عجوز عظيم ويحكم رعاياه كأنه بطريرك.

قمت بمقابلة جابر شيخ كل السوق (مركز الإمارة) العَبْسية وكان رجلاً شاباً وأقلَّ جاذبية، وبناءً على قول عبدالهادي، فهو شخص غير مُرْضٍ خلال التعامل معه، ذلك لأنه كان ينفر من اقتحام الحكومة لهذه المرتفعات الفطرية. لقد قام جابر هذا بمساعدة السيد عبدالوهاب[1] وبعض متمردي الإدريسي أثناء حرب اليمن، حينما تطلَّبت مقاطعة فيفاء مراقبة دقيقة لمركز محتمل للاضطراب.

أراد عبدالهادي أن يأوي مجموعتي داخل وحول مركز الشرطة، حيث يجد هو الحماية من ضباب الليل الجبلي، ولقد شرحت له الأسباب الجغرافية لرغبتي في أن نعسكر في القمَّة نفسها، وقد استجاب في سهولة بعد أن اتفقنا على أن نهبط إلى مركز الشرطة لتناول وجبات الطعام. كانت الساعة الخامسة مساءً حينما صعدنا لنجد مسطبة نموذجية لنعسكر عليها؛ تقع أسفل القمة بحوالي (٥٠) قدماً (٥٨٠٠ قدمٍ فوق سطح البحر) والتي كانت عبارة عن مجموعة من حجارة متساقطة من القلعة الأصلية التي ربما يرجع تاريخها إلى فترة الإدريسي، كانت القلعة مربعة الشكل وذات تركيب ضخم، مبنية من حجارة جرانيت وكانت تقف داخل مساحة مسوَّرة بجدار، إلى جانب حصون مستديرة عند الزوايا. لقد كانت بالطبع مهجورة تماماً وقد نمت فوقها الأعشاب الضارة.

---

(١) هو عبدالوهاب بن محمد بن علي الإدريسي، وكان أحد قادة ومعرفي الجيش اليمني الذي احتل فيفاء في سنة (١٣٥٢هـ). للمزيد انظر: محمد العقيلي. **تاريخ المخلاف السليماني**، حـ٢، ص ٦٦٢ وما بعدها (ابن جريس).

ما كدنا نستقر في المعسكر حتى تجمَّعت فوقنا السحب حاجبة كل شيء. لقد استقرت السحب في وقت لاحق من المساء، في شريط سميك قليلاً إلى أسفل من مستوى القمة التي كانت واضحة، وكذلك السماء من فوقها. كانت شرائط السحب الكثيفة من حولنا وكأنها تتحرك في كل الاتجاهات. فالتي كانت تقع قريباً منا تتجه جنوباً والتي تبعد ناحية تهامة تتحرك في الاتجاه المعاكس. ويبدو لنا وكأننا نسبح في بحر من السحب تسوقها الرياح في كل اتجاه. لقد ارتفع الضباب سريعاً ليطوقنا بطبقة رقيقة من القناع المائي الذي عمَّ كل شيء، بينما ظل الراديو جيد الاستقبال، علمت من خلاله بفوز انجلترا في المباراة الثانية في استراليا. كانت الأرض والأسرّة وكل شيء مبتلاً بالماء في الصباح وكان الهواء رطباً بارداً، كانت درجة الحرارة (٥٧) درجة فهرنهايت ثم انخفضت إلى (٥٢) درجة أثناء الليل، غير أنها ستكون دافئة عما قليل، ذلك لأنني كنت أطل ناحية الشمس وهي تصعد من خلف قمم الجبال ناحية الجنوب الشرقي، لتطفو فوق شريط طويل مستقيم من الضباب الذي غطى كل السفوح المرتفعة والأودية إلى أسفل. تُسَمَّى مثل هذه الكتل المطوقة من السحب محلياً «عماة»[1] ذلك لأنها تحجب كل العالم عن الرؤيا البشرية.

ثم حجبت السحب مرة ثانية -بعد يوم صافٍ- كل المنظر ومدة ساعة قبل الغروب، بينما شمخت في وقت لاحق من الليل القمم العظيمة، بما في ذلك العبسية وكأنها جزر فوق بحر هادي من سحب بيضاء تتلألأ في ضوء القمر، الذي

(١) عماة: أوردها فيلبي باسم (عماية) والمقصود بها الضباب. ولفظة (عماة) تكاد تكون كلمة دارجة عند معظم سكان جنوبي البلاد السعودية. وتظهر العماة (الضباب) على الأجزاء المرتفعة من بلاد السراة الممتدة من الطائف حتى بلاد قحطان ونجران خلال فصل الشتاء وأحياناً في فصلي الخريف والصيف. (ابن جريس).

يقتـرب من كمالـه. أستطيع أن أرى وبوضوح سلسلة الجـبل الأسود تدور ناحـية الكتل العاليـة لكل من النظير ورازح، وهي نقاط جـبلية يمنية خارجـية تطل على سفوح الحدود، بينمـا نهضت على الجانب الآخر الكتل الضخـمة لكل من الحشر وبني مالك. ثم ذهبنا إلى مركز الإمارة لتناول العشاء بعد غروب الشمس مباشرة، وعدنا ومعنا عدد من الزوار كانوا يرغبون في الاسـتماع لأخبار العالم، وكان أبرز ما فيها تلك الليلة هو انتهاء اللجنة الملكيـة من مهمتها في استطلاع الرأي المحلي، والإشارة إلى موعد مغادرتها الذي اقترب.

قضيت النهار مـتجولاً بين المدرجات الزراعية، حيـث رأيت الكثير من نبات القطن وقد نما بصـورة متقطعة، إلى ارتفـاع يعادل الأشجار الصغـيرة. ويتم جني هذا القطن للاستخدام المحلي، غير أن النباتات تظل نامية لأعوام ويبدو أنها تزدهر في مثل هذا الطقس. كمـا كانت نباتات زراعة التبـغ وافرة أيضاً، على الرغم من أنها مـثبطة رسمـياً. كما كـانت أشجار العـرعر في كثافـة وكذلك شجـرة السرو (السَنَعْبِر) ذات الأغـصان العطرية. كما كانت هنالك أيضاً بعـض أشجار الخوخ، وهي ليست كـثيرة العـدد إلاَّ أنها مزهـرة الآن، كما أن حـجم ثمرة الموز المحلي صغـير، وغليظة صـفراء وهي من درجة مـتدنيـة مقارنة مع الموز الطـويل الرفيع الأخضر، الذي يستورد بـكميات كبيرة من النظير وما جاورهـا. وتشتمل الحبوب هنا على الدخن والشعير وبعض القـمح الذي تتلقى الحكومة منه عائداً سنوياً يقدر بـ (١٢٠٠) ريال على حـساب نسبـة العشر، وهـذه هي الجملة النهائيـة التي يتم استلامها بعـد تسديد تكلفة الجمع التي تأخذ شكل نسبة مقربة مـخصصة لمختلف الناس، الذين تكون لهم علاقة بمراحل المبايعة المختلفة.

وتقسم الحبوب إلى عشرة أكوام، تحت إشراف الخراصين، ويقوم الرئيس المحلي (تحت قسم) لكل منطقة، باختيار كومة للحكومة، ويشرف على مراجعة هذا العمل الشيخان الرئيسان لكل من آل عبيد وآل عطاء واللذين بناءً على تقريرهما، يتم رفع نصيب الحكومة إلى المخزن الرسمي مع تخفيض (١٠٪) للشيخ الرئيس و(١٠٪) أخرى للرئيس المحلي، و(٥٪) للذين يقومون بالتقدير. ويكون نصيب الحكومة تبعاً لذلك هو (٧٥٪) من عشر كل محصول الحبوب[١]، ولما كانت هذه الكمية مقيَّمه على (١٢٠٠) ريال، فإن قيمة كل المحصول في المتوسط في العام ستكون (١٦٠٠٠) ريال، وهذا المبلغ ليس بالكبير على عاتق سكان يبلغ عددهم (٢٥٠٠٠) نسمة. كما توجد إلى جانب ذلك بالطبع، محاصيل أخرى، غير أن محصول البن ليس كبيراً ويدعم خزينة الحكومة بما يعادل (٥٠) ريالاً فقط في السنة، أما الفاكهة فهي معفية من الضرائب[٢].

يبدو الأمر غريباً أن تعاني منطقة مثل فيفاء من شح المياه، وبصورة متكررة على الأقل في مرتفعاتها العليا حيث لا توجد آبار أو حتى أحواض للإمساك بمياه الأمطار. وتعتمد إمدادات المياه على نشاط النسوة اللاتي يجلبنها من الشقوق المختلفة والبرك في الأجزاء العليا من المسايل العديدة، ويحملنها في قرب من الجلود ليقمن ببيعها مقابل ثُمن الريال للقربة الواحدة، وهو السعر الذي كان سائداً أثناء زيارتي، أو بأكثر من ذلك في الموسم الجاف، حينما يضطررن للذهاب إلى

---

(١) للمزيد عن الأوضاع المالية والإدارية في منطقة تهامة وأجزاء من جنوبي البلاد السعودية، انظر: مبارك المعبدي. **النظم المالية والإدارية في تهامة عسير**، ص ٣٩ وما بعدها، غشيان بن جريس، **عسير في عصر الملك عبدالعزيز**، ص٨٣ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) إعفاء الفواكه من الضرائب يعود إلى نص شرعي عند فقهاء المسلمين الأوائل. (ابن جريس).

مسافات بعيدة إلى أسفل، حيث توجد برك الوُغْرَة التي لا تنضب. وقد يقفز سعر القربة الجلدية الواحدة في بعض هذه المناسبات، عند القمة إلى نصف ريال.

تختلف أنماط مباني السكن في فيفاء، فمنها ما هو عشة صغيرة، من طابق واحد، تكون مستديرة أو مربعة ويكون سقفها من الطين. أو تكون برجاً صغيراً مستديراً من طابقين أو تكون ما يشبه القلعة من طابقين أو أكثر مبنية من الحجر. يبدو أن هذا الطراز الأخير خاص بهذا الجزء من البلاد، ويستحق أن يوصف. يستدق البناء الدائري من قاعدة عريضة إلى سقف ضيق. يتم سقف الطابق الأرضي الكبير بالطين ويقوم على أعمدة مع وجود فتحة عند إحدى الزوايا تقود إلى أرضية الغرفة التالية عبر سلم أو درجات من الطين تبرز عند الجدار. ويكون سقف كل من الطابقين الثاني والثالث حيث غرف المعيشة لصاحب الدار وأسرته مسقوفاً جزئياً، بمعنى أن يكون وسيلة لدخول الهواء والضوء دون الأمطار. ويعزز من غرابة هذا الترتيب حقيقة أن الحجرتين تفتحان في اتجاهين مختلفين، وذلك بهدف السماح للسكان باستخدام أي منهما عند الحاجة حسب حالة الطقس في أي وقت أو أي يوم. فإذا كانت الشمس متألقة في الغرفة العليا مثلاً، تكون الغرفة السفلى مظللة، وإذا كانت الأمطار تضرب في إحداهما، تكون الأخرى جافة، لقد كان من آثار هذه السمة الغريبة للفن المعماري المحلي، أن تتخذ هذه المباني مظهراً ملتوياً أو حلزونياً وهو مظهر جذاب في خلفية الحقول ذات المدرجات. ويكون الطابق الأعلى المكشوف جزئياً مسقوفاً بالأعواد أحياناً، ويكون في حالات أخرى مبنياً من الطين. كانت كل المباني من الحجارة غير أن الطموحة منها تكسوها طبقة من طين سميكة وخارجية، وتعد النوافذ بصفة عامة غير ضرورية.

يجري محور رأس فيفاء وقمته الرئيسة الخمس من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، بين الأودية العميقة لكل من جوراء وضمد، وهما يصرفان

صفحاته من كلا الجانبين. ولا يصل أي من هذين الواديين إلى جرف السراة، ذلك لأن منبع كليهما كان على الجنبات أو في السفوح التلية لجبال بني مالك، وإلى ما يليها، ويجري وادي دَفَا إلى أسفل من الجرف ليتصل ببيش. ويتكون وادي جوراء من مسيلين عظيمين هما عرقين وطية، وينحدران من الزاوية التي تنحصر بين جبال بني مالك وجبال الحشر (بني حريص) ومن الأطراف الشمالية لجبال الحشر. ويقع مكان التقائهما لتكوين جوراء على مسافة أميال قليلة ناحية الشمال من موقعنا عند العبسية بالقرب من قاعدة الطرف الشمالي لفيفاء. ويبدأ وادي ضمد في سلسلة منخفضة نسبياً وضيقة تفصل رأسه عن مجرى وادي دفا الذي سنصل إليه في وقت لاحق. كما ترسل الأطراف الخارجية الشديدة الانحدار، من الرف المرتفع العظيم بالقرب من قمم بني مالك، روافد عديدة تضخ في وادي ضمد إما مباشرة أو عبر مجرى معتبر يسمى الفِرَعْ، وذلك عن طريق مسايل عديدة منها: الجنِّية، والجوَّة، والخَبْيَة، وغيرها، وكلها تقوم بتصريف التلال السفحية الجنوبية لبني مالك إلى داخل منحنى ضمد الذي يدور حول العِزَّة الطويل البارز. يتلقى ضمد أيضاً تصريف مياه تلال حاجزية أعلى مثل كتفه وغيره، على جانبه البعيد على الحدود اليمنية، ويلتقي كل من جوراء وضمد في نهاية الأمر في مكان ما على سهل تهامة، إلى ما يلي الطرف الجنوبي الغربي لفيفاء[1].

تغطي قمم بني مالك وهي: العليلي وحبس وآل سلمى وجبل الحشر وهرم هجيدة العظيم خلف الفجوة بينهما، مسافة الربعية في البوصلة عبر الشمال بينما

(١) لمزيد عن بلاد ضمد ووادياها انظر: عبدالرحمن الشريف. المرجع السابق، جـ٢، ص ١٥٢، ١٧١ . (ابن جريس).

تجري من ورائهم ومكوناً الجانب الأيمن لدفا سلسلة ثهران العالية التي تمتد وتتواصل مع سلسلة الرَّبوعة، التي تمتد من الشمال إلى الشمال الشرقي. وامتدَّ إلى البعيد يمين هذه - وتقع إلى مسافة إلى الخلف - جرف مرعة ذو السطح البركاني المستوي، الذي لوحظ من الجانب البعيد جنوب ممر علبين. وتقع سلسلة جبل أسود إلى البعيد أكثر ناحية الجنوب الشرقي، وينتهي ذيلها ناحية كل من رازح النظير، بينما امتلأت الفجوة الواسعة بينهما بسلسلة كتفة الحدودية العالية التي تستمر عبر كل من منبه، والعُر، وسلا، إلى حافة تهامة.

ويتواصل خط بني مالك - الحشر، على الجانب الآخر (الشمالي) مع كل من مُنْجِد والقُرْنَةُ والريث ومصيدة ونقاط أخرى لتكمل حزام فيفاء الجبلي عند السفوح التلية لتهامة. وتتبع هجيدة إلى أرض بني الغازي، بالرغم من أنها منفصلة عن الكتلة الرئيسة كما ورد وصفها، بينما يحتل كل من ثهران (ظهران حسب النطق المحلي)[١] والربوعة، وآل تليد، وهم قسم من آل جُماعة يتمركز معظمهم في الجنوب في أرض يمنية. كما أستطيع رؤية قرى الصيِّابة ناحية الجنوب من موقعنا، وهي تنتمي إلى قسم منعزل من بني حريص على شاطئ وادي جازان وعند ملتقاه مع شعيب الفَرْشَة الذي ينطلق من مضيق منخفض يحمل سفحه القريب شعيب الهَيْجَة[٢] إلى أسفل ليتصل مع وادي ضمد إلى الجنوب من موقعنا. ويقف بركانا عكوة لتكملة الصورة التي تشاهد من فيفاء في بروز ناحية الجنوب الغربي، بالرغم من أننا لم نستطع رؤية كل من الحسينية وصبيا أو أي جزء من البحر. وتقع قرية

(١) ثهران هو النطق السليم لجبل ثهران في بلاد فيفاء، وهو يختلف عن جبل ظهران أو بلاد ظهران الجنوب في بلاد وادعة من أرض قحطان في أعالي السروات. (ابن جريس).

(٢) والهيجة تنطق محلياً أيضاً باسم (أمهيجة). (ابن جريس).

العَيْدَابي ناحيـة اليمين قليلاً من شريط عكوة، وقريبة جـداً من موقعنا، والتي كنا قد زرناها حديثاً.

كان منظر فـيفاء كـما وصفنا. وكـان هدفنا التالي هو مـجموعـة من القرى السفلى التابعة لكتلة بني مالك حول القهـبة، التي لم تكن هي نفسها مرئية لنا من العَبْسِيـة، بالرغم من أن العديد مما يجاورها قد كان واضـحاً فوق رؤوس تلالها. كان من بين هذه كل من خاشرٍ، والثاهر، وذراع، وحصيبة. كانت مجموعة فريق الحمالين الموصى عليها، والتي تشتمل على الرجال فقط، من جهة عبدالهادي، قد بدؤوا يتوافدون، وذلك أثناء الليل بينما جـففت الشمس ممتلكاتنا التي بللها الندى في صباح يوم عيد ميلاد المسيح. كـانت أجرة الرجال والنساء الذين حملوا عفشنا إلى القـمة، من سـوق عـيبـان هي نصف ريال للفـرد، ولخـجلي من ذلك فقـد ضاعـفت لهم الأجر عندما وصلنـا. وتكون أجرة الحمـار في هذه البلاد، بما في ذلك خدمات سـيده، ولمدة يوم كامل، نصف ريال فقط، ويكـلف الجمل ضعف ذلك وعليه فلم تكن تكاليف السفر في هذه البلاد عالية.

تقدمنا الشيخ علي متـوجهاً إلى قلعته في المَرْوَحْ، ليعد لنا مـراسم الاستقبال الترفيهيـة. ثم بدأنا المسيرة ومعنا الحمالون أسفل نتوء ينحـدر تجاه الشمال الشرقي من عند العبـسية، وكـان يفصل بين رأسي مسـيلين هما ذَبُوبْ والفَرُع، وكـلاهما يصرفـان جوانب فيفـاء إلى داخل كل من ضمد والجـوراء بالتوالي. لقد استـغرق وصولنا نصف سـاعة لنصل إلى مَرْوَحْ بعـد جهد، وكـانت قلعتهـا بارزة وكذلك مسجدها، في شكل جـميل على آخر قمم أعلى فيفاء عند نهايتـه الشمالية، وتقع إلى أسفلنا قرية رَحْبان على حافة جانب الخـبية الذي يفصل فيفاء عن بني مالك. انتشرت قـرية رَيْدَة الكبيرة (غالبـاً تسمى ريدة العزة لتميـزها عن ريدة أخرى تقع

فيما يلي ضمد)[١] فيما يلي الجانب البعيد للخَبْيَة وعلى أولى سلاسل بني مالك، بينما تقع قرية الجِنيَّة الصغيرة إلى أسفلنا على حافة مسيلها، بينما يأتي رَوْحَان على سلسلة من ورائه، وقرى أخرى تابعة لبني مالك قد ورد ذكرها من العبسية على يمينه. لقد كان في رفقتنا في هذه المسيرة كل من عبدالهادي رئيس الشرطة، وجابر شيخ قبيلة آل عطا حتى وادي الجوراء، حيث سيتم انتقالنا إلى كرم بني مالك. أبدى الشيخ علي رغبته أن يحتفظ بنا في مروح لتناول وليمة، غير أننا اعتذرنا لارتباطنا مع رؤساء قبيلة بني مالك، لقد تأخرنا في مروح مدة ساعة اجتمعنا خلالها مع الشيخ علي في غرفته العليا النصف مكشوفه[٢] التي من عندها أشار إلى العديد من العلامات الأرضية للبلاد والتي توافقت بصفة عامة مع المعلومات، التي كنت قد جمعتها من مرشدي في العبسية.

لقد حكى لي قصة غريبة وغامضة أثناء تناولنا القهوة والمشروبات المنعشة، بغرض أن أتمكن من تفسيرها له بما لديّ من اهتمامات بالطيور. ذكر لي أنه كان جالساً في سريره المصنوع من الحبال في أحد أيام شعبان أو قبل شهرين، في هذه الحجرة نفسها التي نحن فيها الآن، حينما شاهد من بعيد طائراً في السماء قال إنه نسر، وهو اسم يطلق على الصقر أيضاً[٣]، وهو يحلق فوق قلعته. ثم هبط الطائر في بطء، وفي ضربات مائلة واسعة ودخل إلى الغرفة وحطَّ على السرير بجانبه،

---

(١) ريدة: اسم مكان يطلق على أكثرمن موقع في منطقة عسير، ومنطقة جازان وأجزاء أخرى من بلاد اليمن. وأشهرها ريدة تهامة عسير التي قتل العثمانيون فيها الأمير محمد بن عائض عام (١٢٨٩هـ/ ١٨٧٣م). (ابن جريس).

(٢) الغرفة المكشوفة فوق المنازل يطلق عليها أسماء محلية عديدة مثل: ــ العلية، والمشراق، والمشراح أو المشرحة. وهي عبارة عن مكان استرخاء واستراحة في الليل، أو مع شروق الشمس في الصباح. (ابن جريس).

(٣) النسر والصقر من الطيور المعروفة عند سكان البلاد، والنسر أكبر حجماً من الصقر. (ابن جريس).

في صورة حبية وسرية. ثم اتخذ الطائر سلوكاً عدائياً حينما حضر الخدم استجابة لدعوته لهم لرؤية ما يحدث، ورفض الطائر اقترابهم. ثم استطاعوا مع تدعيم أكثر لهم من التمكن من إبعاد الطائر عن السرير ولاحقوه إلى البلكونه، غير أنه بعد فترة طار لحال سبيله، وهو لا يزال يحلق ويدور حول المنزل حتى اختفى عن الأنظار. ولم يظهر بعد ذلك. لقد كانت رواية غريبة ويمكن لمثل هذه الخرافة أن تشير إلى شيء واحد. ولما لم أكن ممن يؤمنون بالخرافة، ولما كان الرجل العجوز لا يزال حياً وفي صحة ممتازة، فقد كانت إجابتي أنه من وجهة نظري فإن الأمر غريب ولا مغزى له.

ثم استأذنا من علي، وبدأنا الهبوط فوق طريق منحدر متعرج، ويكثر على حافته من حين لآخر نبات الصبار (كراث) ذو البراعم البنية المحمرة وتملؤه مادة لبنية ذات خواص تؤدي إلى الهرش. ويقال إن الأزهار تُكسب عسل فيفاء نكهة لطيفة. ثم وصلنا إلى قرية ومزارع الغالَّة الصغيرة بعد حوالي (٨٠٠) قدم أسفل المروة. حيث كانت توجد مزارع كثيرة للبن والعديد من أشجار الموز. وقد وقفت صخرة بارزة على جانب الطريق على واحدة من هذه المدرجات، وكانت بارزة بما فيه الكفاية ليكون لها اسمها الخاص وهو قمع شفيان. لابد وأنها قد سقطت من أعلى منذ عصور بعيدة ولربما كانت شيئاً يُعبد في أزمان الوثنية، بما أن ليس للقرويين هنا علاقة بها. ثم أوصلنا هبوط متعرج إلى (١٠٠٠) قدم إلى أسفل إلى مسيل المقطر الذي ينحدر من السفوح العليا لفيفاء إلى مجرى الجُوَّة الذي يقع أسفلنا وعلى اليسار. وقد لاحظت الكثير من الحصى على جانبيه الصخريين وهي كثيرة الشبه مع حجارة القمر، غير أنه لا يبدو أن هنالك تجارة تهريب لحجارة شبه كريمة في هذه الأنحاء على عكس ما هو حادث في اليمن.

ثم سلكنا المسيل إلى أسفل، لنصل إلى جرف يعترض بطنه، الذي يبلغ عرضه (٥٠) ياردة وتوجد به برك ممتلئة بالمياه حتى الحافة. ثم استدرنا حول هذا المانع لنصل إلى برجين متماثلين تابعين إلى قرية حبيل الرزم الصغيرة عند موقع التقاء كل من المقطر والجُوَّة. وكنا الآن على ارتفاع (٢٧٠٠) قدم أسفل قمة فيفاء وكان مستوى الأرض مريحاً للجمال التي وجدناها في انتظارنا في الموعد المحدد. ثم دفعنا إلى الحمالين من أهل فيفاء أجورهم، وامتطينا الجمال على الطريق إلى مجرى الجوة وإلى موقع التقائه مع باتِع الذي ينحدر من سفح فيفاء ناحية الجنوب، ويسمى المجرى المشترك الآن باسم المَيْثَة وهو ينساب ناحية الشمال الشرقي حتى موقع تدفق مسيل حَزمران ثم ينحني في عنف ناحية الجنوب الشرقي في طريقه ليتصل مع مجرى الفَرِع.

ويكون شريط حزمران والميثة من هذه النقطة خط الحدود بين مقاطعة فيفاء ومقاطعة بني مالك، وتستمر الحدود ناحية الشمال الغربي مسافة أعلى حزمران، إلى سلسلة الكرمة ونحن نتبعها إلى مضيق يكون رأس شعيب الكرمة. ثم هبطنا من المضيق إلى أرض بني مالك بين جلاميد شستية وقد كان المجرى الكثير الشجيرات يعج برعاة بني مالك، وبقطعان كبيرة من الماعز. ويقع في بطنه ثقب الماء المسمى خطوة حماحمة وكان عمق الماء قدمين داخل بركة مبطنه بالبناء، قطرها (٣٠) بوصة. وتقع بالقرب منها أطلال قلعة تسمى أمعكيدة على سلسلة منخفضة خلف مسيل معجلة التي تجري فيها الحدود القبلية، وتقع أمعكدة على جانب بني مالك من الخط. ويجري وادي الكرمة من هنا ناحية الشمال الغربي ليتصل مع وادي جوراء، بينما استدرنا نحن ناحية الشمال على مسيل رَفاث[1] إلى مضيق بين جلاميد كئيبة والذي من عنده ينحدر مسيل آخر بالاسم نفسه، إلى وادي الجوراء الذي يمكن رؤيته الآن إلى البعيد ناحية الشمال.

(١) رفاث يطلق عليه أيضاً اسم (ذرفات). (ابن جريس).

لقد قوبلنا بحرس شرف بعد عشر دقائق، وقبل وصولنا إلى الوادي الرئيس إذا بجمع يتألف من أهل بني مالك، الذين أطلقوا رصاصة واحدة من بندقية تحية لنا، وكنت أثناءها أسير على قدمي، بالرغم من أنهم قدموا إليَّ جملاً لأركبه إلى داخل المعسكر. رفضت هذا العرض مع الشكر، ذلك لأن المسافة كانت قصيرة وفي خلال عشر دقائق وصلنا إلى مجرى جورا لنجد الأمير وعدداً من الشيوخ المحليين إلى جانب مئة شخص آخرين في انتظارنا. لقد كنا هنا بالفعل عند رأس وادي جورا الذي اتبع مسيل عرقين ومسيل طية ليتصل مع شعيب اهراين عند السلاسل السفلى حول خَاشْرٍ. لقد قمت بالتقاط صورة تذكارية للشيوخ ورجال القبائل بعد انتهاء مراسيم الاستقبال الرسمية. واستقرينا في المعسكر في بطن الوادي. لقد كنا هنا عند ارتفاع (٢٣٠٠) قدم فوق سطح البحر، وحوالي (١٠٠٠) قدم فوق سوق عيبان الذي من عنده هبطنا بعيداً عن وادي الجوراء لزيارة فيفاء.

يقع مركز إمارة بني مالك في قرية القهبة، في السفوح التالية للسلسلة الرئيسة، حيث قام بمقابلتنا عبدالله بن شرقة القائد العام وممثل الحكومة، لقد كان عبدالله رجلاً نشطاً، محبوباً وشاباً، وله ميل واضح نحو الحماسة الدينية، وينظر إلى نفسه بأن له رسالة نحو الوثنيين لدعوتهم إلى الطريق السوي. لقد كان عبدالله في هذا المجال أكثر حظاً من ذلك الذي يقابله في فيفاء، حيث تكون المساجد في حكم النادرة أو غير واضحة، ربما بسبب تشتت المناطق المأهولة وغياب الحياة الاجتماعية على أي مستوى كانت. لقد كان بنو مالك منظمين بشكل مختلف في قرى ذات حجم معقول، وفي قرى صغيرة ذات قصور تكون منعزلة من حين لآخر. وكان أبرز بناء في كل القرى، صغيرها وكبيرها، هو المسجد الذي يصر

التقليد المحلي على طلائه باللون الأبيض عند بداية شهر رمضان. لقد يسرت مساجد القرى، من وجهة نظري علامات أرضية لا تخفى لأغراض المسح. وهكذا بالرغم من أن الشعائر الدينية بصفة عامة لبني مالك ذات لمسة زيدية كما في فيفاء، إلاَّ أنه يوجد هنا التزام أكبر باتباعها[١].

يبدو أن بني مالك، إلى جانب ذلك، مسلحون بدرجة أفضل من جيرانهم، ويحمل كل رجل بندقية من طراز ما. لقد كانوا هذا هكذا للدرجة التي أنه حينما جلسنا حول طبق العشاء تلك الليلة، لتناول وجبة ممتازة من جدي مغلي وخبز محلي، كان كل واحد من الرؤساء - والذين قد وجهت إليهم الدعوة لينضموا إلينا، قد برهن بأنه رجل خندق ممتاز، إذ جلس وبندقيته على مفصل ذراعه الأيسر وهو يغرف بالطعام إلى فمه بيده اليمنى[٢].

لقد كانت الصورة مُبَهْرِجَة، غير أنه أثناء تناول أطراف الحديث، حينما اعترضت على اصطحاب السلاح على طاولة العشاء، تدخَّل عبدالله بن شرقة للدفاع عن التقليد المحلي. وأوضح لي أن سلاحهم هو زينتهم. ولقد كاد أن يقول إن سلاحهم هو ملابسهم، بالرغم من أن هؤلاء الرجال القادة، وخاصة في مناسبة مثل هذه، كانوا يرتدون معاطف قصيرة مكشوفة فوق أجسامهم إلى جانب الخرقة التي تغطي العورة، وكان أتباعهم لا يرتدون شيئاً غير البنادق والخرق التي تغطي

(١) لا يستبعد ذلك؛ لأن حكومة الأئمة الزيدية في صعدة كانت تسعى جاهدة إلى نشر المذهب الزيدي في عموم جنوبي الجزيرة العربية، وبخاصة الأجزاء التهامية، ولكن نجاحهم كان محدوداً؛ لأن المذهب الشافعي كان الأكثر انتشاراً في معظم البلاد التهامية. (ابن جريس).

(٢) هؤلاء معذورون؛ لأن حياة الناس قبل ظهور الحكم السعودي كان يسودها الخوف بسبب انتشار الفوضى والاضطرابات، وعدم وجود الأمن الذي يحفظ للناس أرواحهم وأهليهم وأموالهم. (ابن جريس).

عوراتهم، إلى جانب حزام الخراطيش حول خصورهم. لقد دعوت الشيوخ بعد العشاء للحضور لسماع الراديو، وجاؤوا ومعهم كل حاشيتهم، لقد كان منظراً رائعاً أن ترى هؤلاء الرجال المئة كلهم تقريباً عراة، جاثمون في حلقة كبيرة وقد ارتكزت بنادقهم على كتوفهم العارية في لمعان باهر في ضوء مصباحي. لقد كانت فلسفة الحكومة في هذه البلاد المرتفعة وبحق، هي عدم التدخل في أساليب حياة الناس، شريطة أن يحفظوا السلام فيما بينهم. وقد حافظوا على تقاليدهم العدوانية دون تغيير، وكما قد لاحظت ذلك بنفسي، خلال هذه الأيام، فإن العدائية الزعامية لقلاع هذه المرتفعات ينتقلون في أنحاء البلاد يصحبها حاشياتها الكبيرة من رجال مسلحين فقط بسبب أن ذلك هو الشيء الذي يجب عمله وكان يعمل دائماً. كان الفارق الوحيد أنهم الآن لا يهاجمون بعضهم بعضا بمجرد الرؤيا، غير أنه إذا كانت لديهم حزازات يودون التعبير عنها، فإنهم يرفعونها إلى ممثل الحكومة. ويستطيع المرء أن يتخيل أن حياة هؤلاء الناس قد اختلفت قليلاً عن حياة القبائل الأسكتلندية القديمة[١].

تنقسم قبيلة بني مالك، وهم فرع من خولان -على الرغم من أنهم لا يرون أنهم جزء من اليَهانْيَة- إلى ثلاث قبائل رئيسة. لقد كانت القبيلة الأولى هي آل كثير التي تحتل قمم السلسلة الرئيسة وتنقسم بدورها إلى أربعة أجزاء: (أ) العليلي[٢] تحت رئاسة جابر الذي تقف قلعة مقر سكنه واضحة فوق قمة تسمى طَلاَّن، التي تحتلها قرى قسمه. (ب) آل حبس تحت رئاسة الشيخ فرحان بن

(١) والآن أصبح عموم الناس في هذه الأجزاء، وفي غيرها من أجزاء المملكة العربية السعودية يعيشون حياة تسودها المحبة والإخاء وخدمة الدين والبلاد. (ابن جريس).

(٢) العليلي: يطلق عليهم أحياناً اسم (آل علي). (ابن جريس).

داهمة وتحتل قمم رميح. (جـ) آل سلمى في التلال السفلى للذاري الأغبر[١] والجزء الشرقي من الجرف الذي يطل على آل ضمد ورئيسهم جابر بن يحيى آل سلمى. (د) إن آل يحيى تحت رئاسة الشيخ حتروش في منطقة الحدود لوادي ضمد. ثم تأتي في الدرجة الثانية من حيث الأهمية، قبيلة آل سعيد برئاسة الشيخ علي بن فرحان، الذي يكون مقر رئاسته في قرية منصية على جرف ضمد إلى الغرب من مقاطعة آل سلمى. وتأتي أخيراً القبيلة الثالثة وهي آل خالد، برئاسة الشيخ يحيى بن شريف بن كبيش الخالدي، وهو مضيفنا المباشر، ومراكز قيادته في قرية خاشر التي عندها تنتشر قبيلته في التلال السفحية مائلة الزاوية بين السلسلة الرئيسة والجرف حتى حدود فيفاء غرباً.

ويزعم شيوخ بني مالك بأن قبيلة آل حريص هي واحدة من قبائلهم، ولربما كان هذا صحيحاً عن طريق الرابطة عبر اليهانية، التي وردت الإشارة إليها، غير أنهم -وباعتراف الجميع- مستقلون تماماً عن هذا الاتحاد ومنقسمين إلى جزأين: حريص الحشر (وهم أهل مرتفعات ويحتلون جبل الحشر شمال بني مالك) وحريص الجنوب[٢] (أهل المنخفضات حول العارضة جنوب فيفاء وفيما يلي ضمد). ولقد تم الاعتراف باستقلاليتهم، وذلك بوجود مركز حكومي منفصل إمارة على كل من الحشر والعارضة. وتكون أقصى قمم سلسلة بني مالك الشمالية، لويات السنين، جزءًا من مقاطعة العليلي ويكون رأس عرقين في الانطواء الذي يقع بينه وبين الحشر ويؤدي دور الحدود بين بني حريص وبني

(١) الذاري الأغبر ربما يطلق عليه أيضاً اسم (الذاري أمغبر) (ابن جريس).

(٢) تعرض رواية أخرى هذين القسمين لبني حريص بأنه لا علاقة بينهما إلاَّ في الاسم فقط، وتشتمل على المجموعة الجنوبية في اليهانية، مع بني مالك وأهل فيفاء وبني جماعة، بينما يعترفون لبني حريص الشمالية برتبة الاستقلالية. (المؤلف).

مالك. وتشتمل بلغازي إلى الغرب من الحشر على آل جنادة، وسليماني، بني عبد وآل أمزرعة. ويكون الاتحاد القبلي الرباعي لكل من بلغازي، بني منبِّه، وأشر ونفيسة مجموعة تسمى فَرود، تقارن مع مجموعة اليهانية التي تربط بين فيفاء وبني مالك وبني حريص[1]. كما يتبع كلا المجموعتين قبيلة خولان.

إن مجرى عرقين مجرى مهيب ببطنه الرملي وهو يقترب من موقع التقائه مع أهراي الذي سنعسكر فيه. ويتوقف غَيْلَه الذي يقال إنه ذو طول معتبر، فجأة على مسافة (٥٠٠) ياردة أعلى الملتقى، ولا يظهر غيل جورا فوق السطح إلاَّ على بعد نصف ميل أسفل الحوض، حيث تتقارب سفوح الجبال من كلا الجانبين لتكوِّن ممراً ضيقاً. ليس أهراين مياه غيل ويحمل المياه فقط أثناء موسم السيول كما يندر وجود الماء في خاشرٍ والقرى المجاورة وسفوح السلسلة الرئيسة، كما كان الحال في فيفاء، حيث يقومون هنا بزراعة محصول خريفي للدخن، ومحصول ربيعي لكل من القمح والشعير كما هو الحال في فيفاء. ينتج البن في كل من تلال بني مالك وعلى الحشر. كما لا يوجد نظام للري، وتعتمد كل الزراعة على الأمطار.

يسيطر موقع معسكرنا على منظر شمولي لطيف لكل البلاد من حولنا، وقد ألقت الشمس المشرقة الصاعدة من فوق قمة فيفاء العظيمة هالة من الضوء الذهبي، الذي قد فاض فوق قمم بني مالك إلى عمق (١٠٠٠) قدم إلى أسفل وأضاء المساجد والقلاع التي تقف على جروفها. لقد اتجه زوار بني مالك منذ الساعات الباكرة ليوم الأمس (الخميس) إلى سوق عيبان، من أمام معسكرنا المنتشر وهم في طريقهم إلى قراهم قادمين من أعلى وادي الجوراء ومعهم حميرهم

(١) ذكرت لي أسماء مجموعات أو أقسام أخرى في أوقات مختلفة بأنها تنتمي إلى فرود، إلاَّ أنه من المحتمل أن تنسب إلى واحدة أو الأخرى من هذه المجموعات وهي: الشيخي، والدَّوشي، والعِرِّي، والقَهَري، والعَيَّاشي، والبطيني، واليزيدي، والخولي. (المؤلف).

وجمالهم وهم ينشدون متحفزين لإثارة انطلاق أغنية يؤديها رجال القبائل المعسكرون معنا. لقد قطع معظمهم رحلتهم هنا لتحية شيوخهم الكبار الذين معنا ولتبادل أخبار الإشاعات. لقد استمعت مساء الأمس إلى ترانيم بيت لحم، وكنت أتمنى لو كانت لديَّ وسيلة لتسجيل الأغاني الشعبية الإيقاعية لهؤلاء الناس[1]، الذين كنت أجلس معهم الآن، كان من خواص كلامهم أنهم لا يستطيعون نطق حرف «د» المنفرد، ويضيفون إليه نغمة حادة «إي» كما في «ديفا» بدلاً من «دفا» وتنطق جفعه ومن «عندي الله» بدلاً من «عند الله».

لقد مشيت على قدمي بالأمس كل المسافة من فيفاء إلى رأس الجوراء، وكان هنالك الكثير من اللغط حول إرسال الحمير لتنقلنا نحن، والجمال لتنقل العفش، بحجة أنه توجد هنا كل وسائل المواصلات، وسرعان ما واصلنا الرحلة إلى أعلى وادي أهراين، مخترقين مساحة لأحواض صغيرة غير مزروعة وقد شيدت حولها الجدران للإمساك بمياه الأمطار. ثم تركنا أهراي بعد عشرين دقيقة لمجراه الصعب إلى اليسار، وتتبعنا مجرى رافد اسمه قلحة، كان بطنه الجاف الحجري مغطى بالشجيرات المنخفضة، وبعض أشجار العلب الجيدة. ثم يضيق المجرى ونحن نواصل السير فوقه مارين ببئر مبنية تسمى فقوة قلحة، وهي مشيدة حول نبع ضئيل ومنه وصلنا إلى قرية حيد أمحمر الصغيرة المنظرية وهي وطن سالم بن شريف، أحد الشيوخ الثانويين الحاضرين معنا.

---

(١) إن الفنون الشعبية والأغاني والأهازيج المتنوعة في جنوبي البلاد السعودية جديرة بالدراسة والتحليل، وذلك لعدة أسباب منها:-

(أ) جودة إيقاعات هذه الأغاني والفنون لما تحتويه من عبارات جميلة وحكم وأقوال قيمة.

(ب) أنه لا توجد هناك دراسات علمية حول هذا النوع من المعرفة، والحقيقة أنها من مسؤوليات أقسام علم الاجتماع في الجامعات السعودية. (ابن جريس).

لقد كان الوادي صعباً للنقل بواسطة الحيوانات بعد هذا الموقع وعليه فقد تم نقل عفشنا إلى فريق الحمالين من البشر. تسيطر قرية خاشرٍ من موقعها هذا البارز على التل، على رأس قلحة الذي يتكون من عدة مسايل تتقارب من شبكة السلاسل التي تكون هذه المساحة من الأرض. ثم تسلقنا منحدراً شديداً لأحد هذه السلاسل إلى قرية الشعيث الصغيرة، وواصلنا السير من فوق القمة النحيلة ووصلنا سريعاً إلى أول مدرجات القهبة. لقد كانت المدرجات الزراعية هنا أضيق من المدرجات العادية في فيفاء وتدعمها جدران عالية يصل بعضها إلى سبعة أقدام. كانت المدرجات السفلى الآن عارية، وقد أصبح الدخن جذامة بعد حصاده، غير أن المدرجات العليا كانت مكسوة بشجيرات البن والموز. لقد كان ارتفاعنا هنا حوالي (٤٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. وهذا بالتقريب أدنى ارتفاع يمكن أن تنجح زراعة البن عنده في هذه المرتفعات.

تقف قلعة القهبة التي تستخدم الآن مقراً لقيادة الحكومة ومركزاً للإمارة، في شموخ فوق صخرة ضخمة من الشست الممزق ويبرز على هيئة خطوط لألواح عمودية والتي تم استخدامها في ذكاء عبقري لتكون بعض جدران البناء مما جعل القلعة تبدو كأنها نامية من جوف الصخر. كانت القلعة ذات حجم معتبر، منتشرة فوق سلسلة السفوح في هيئة مراحيض عديدة، وتمتد فوق عرن القمة المسطَّح، والذي يمثل جزءاً من المقبرة، بينما يكون الجزء المتبقي مكان غربلة الحبوب، وقد يستخدم مصلى في العطلات العامة. لقد تم تزويده - لهذا السبب - ببناءٍ به كوة للقبلة ومنبرٍ بدائيٍ للخطيب.

لقد أقمنا معسكرنا هنا، وكانت خيمتي الخاصة تقع عند حافة اللسان وتطل على منظر صافٍ إلى أسفل ناحية المسايل على الجانبين. تنتشر من حولنا قرى بني

مالك العديدة، وهي قائمة على امتداد سلسلة وفوق كل عرن وفوق كل هضبة، لقد كان المنظر بدائياً غير أنه مريح. يتم جلب المياه إلى القهبة من نبع يسمى متر يقع على بعد (٣٠٠) قدم إلى أسفل جانب التل الشديد الانحدار داخل مسيل امتلأ بأشجار التين وغيره. وتقف قرية الجران الصغيرة على مستوى موقعنا تقريباً على الجانب المقابل. لقد كانت مباني القرى ذات قيمة معمارية أو زخرفية قليلة، وحتى القبور في المقبرة كانت تحمل لمسات نهائية أنيقة، ومبنية من طبقات متبادلة من صخر بني داكن وصخر أبيض (كوارتز). لقد كانت المنازل - بالرغم من أنها مبنية من مواد محلية غير مشذبة تماماً - ذات تركيب قوي وقد استخدمت فيها أخشاب العرعر الطويلة المستقيمة، وأعمدة مرتبة في أناقة، غير أن الغرف كانت صغيرة جداً وقذرة، وكانت أبوابها منخفضة جداً وكانت السلالم خطره إلى حد بعيد، بارزة من داخل الجدران بين الأرضيات. ويجب على المرء أن يكون حذراً وهو يتنقل بين الغرف ليتحاشى أن يصطدم رأسه بالسقف أو بالمداخل[1].

وصلنا بعد مسيرة قصيرة جداً إلى هذا الموقع، عند وقت الظهيرة. لقد طلبت من سعد أن يحضر لي علبتين عبوة أربعة جوالين من الماء الساخن، وذلك بعد أن ألقيت نظرة من على سطح القلعة على البلاد المجاورة، وذلك أثناء ما كان مطبخ القلعة يعد لنا وجبة الغداء، لأجل أن آخذ أول حمام لي منذ أن غادرنا جازان. لقد ارتديت أحسن ملابسي بعد ذلك، وعدنا كلنا مرة أخرى إلى القلعة حيث كان الأمير ينتظرنا على رأس وليمة تستحق جهد هذا اليوم مكونة من شاة مطبوخة وهي كاملة فوق أرز جبلي، ومعالجة بالزبيب والبهارات ومن عدد من الدجاج

(١) لا يظهر الارتفاع الكافي لأسقف وأبواب المنازل قديماً، وفي الأجزاء التهامية تكون اسوى من المرتفعات والبلاد السروية. (ابن جريس).

موضوع في أطباق محاطة بحسائها دون ذكر شيء عن الخبز القمحي اللذيذ. لقد شارفت الساعة على الرابعة مساء حينما فرغنا من الدعوة وما تبعها من تناول القهوة والشاي، وقضاء الوقت في الحديث، غير أنني استرخيت إلى نومة القيلولة تحت جدار مسطبي مرتفع ونمت لمدة ساعة كاملة. لقد بدأت السحب تتجمع من حولنا عند الغروب وقد غاصت الشمس من وراء ضباب كثيف من خلف براكين عكوة التي كانت واضحة لنا، كما حجبت السحب عني رؤية لمحة من البحر، الذي قيل إنه يشاهد من هنا في الأجواء الصافية.

لقد أدى الأمير معنا صلاة المغرب وقد أمَّنا، ثم تحركنا إلى منزل نائب القائد لقوة الإمارة واسمه قتمان وهو من مواطني وادي الدواسر وقد أقام منذ زمن طويل في تربة، حيث التحق بخدمة الحكومة. كان الحديث، أثناء هاتين الوجبتين، يدور حول الحدود التي كان عليَّ أن أفحصها بالتفصيل، وأدهشني الغموض وعدم التناسق في مساهماتهم أثناء النقاش، علماً بأن معظمهم كان قد زار منطقة الحدود خلال فترة خدماتهم. وتكمن المشكلة في أن الحدود على هذه الأرض تمتد على طول سلسلة جبلية عالية ليس بها سكان أو ماء، وقد لا يكون أي من الحاضرين قد رأى بالفعل أعمدة حدودية بها، على الرغم من أن معظمهم قد اشترك في أنشطة اللجنة المشتركة للحدود. لقد دعوت كل المجموعة معي وذلك للاستماع لجلسة الراديو، إلاَّ أنه ولسبب ما كان الاستقبال رديئاً ، واختفى الجمع كما اختفت جدران الضباب، الذي نهض في كتل عظيمة من الوادي المجاور، وانطبق على سلسلة القهبة.

ثم جلست هناك، وحدي بين السحب، ومعي مصباحي الساطع الذي يحيطني بهالة كبيرة من الضوء، والتي كنت لا أرى شيئاً فيما يليها. لقد خطر

بذهني أن زملائي قد انتهزوا هذا الغطاء الشامل وتوجهوا إلى منازل أكثر راحة، بينما في حالات نادرة حينما تصفو السماء جزئياً، كنت أنصرف إلى مزواتي. لقد كان القمر محاطاً بهالة ضخمة متعددة الألوان، وحينما فرغت من أعمالي، جلست أستمع إلى موسيقى رقصة عيد الميلاد، وكانت تبث من فندق الملك داود من إذاعة القدس.

كانت السماء خالية من السحب عند منتصف الليل، ولفترة من الزمن على الرغم من أن غطاءنا الضبابي استمر ثابتاً في مكانه خلال الليل، وسرعان ما عادت السحب بعد ساعة أو قريباً من ذلك متطايرة مرة أخرى. كانت الليلة برغم كل هذا دافئة ودرجة الحرارة الدنيا (٥٦) درجة، ووجدت سريري وكل ما حولي جافاً في الصباح الباكر، وكان هذا معجزة. بدأت رياح باردة تهب ناحيتنا وتحمل معها ضجيج قرى بدأت تصحو من نهيق حمار أو عواء كلب أو صياح رجال ينادي بعضهم بعضا. لقد كان هذا واحداً من إنجازاتهم، وهو أن يحادث بعضهم بعضاً على مسافات بعيدة فوق المرتفعات. يمكنهم من القهبة أن يطلقوا رسائلهم وأصواتهم (واستيعابها) إلى البعيد في كل من البِقْعَة[1] وضرع بالقرب من قمة طَلاَّن، على ارتفاع (٣٠٠٠) قدم، وعلى مسافة لا تقل عن الميل أو الميلين، في خط مستقيم. وكانوا يتبادلون الإشاعات بالأسلوب نفسه، من خاشرٍ إلى أهلهم عند قمة فيفاء، كنت أستطيع رؤية ما يقارب العشرين قرية كبيرها وصغيرها داخل إطار نصف قطر طوله نصف الميل من عند القهبة، وإلى جانب عدد آخر إلى البعيد، تقوم على سفوح الجبل من الحشر إلى قمم بني مالك إلى نيد الشق عند النهاية الشرقية لجرف ضمد، حيث يجري ممر إلى أسفل رافد الوادي.

---

(١) البِقعَة: ما يعرف في بلاد الشام بالضيعة، وهي تضم عدة بيوت ومزارع، وربما يطلق عليها مصطلحات أخرى مثل: ــ الديرة، أو الناحية، أو البلدة وغيرها. (ابن جريس).

تحركنا مبكرين في الصباح أكثر من العادة، وقبل الساعة الثامنة صباحاً. ثم صعدنا، بعد أن مررنا بقرية نيد الحقو الصغيرة، إلى قرية جميلة شبه مدمرة تسمى الدفين (حوالي (٤٣٠٠) قدم فوق سطح البحر) تقع في أرض بساتين ذات مدرجات واسعة تنحدر إلى أسفل إلى الوادي.

لقد تميزت هذه القرية أيضاً بأن بها صهريجاً مبنياً بالأسمنت على جانب التل بجانب الطريق، وبرغم أنه كان خالياً من الماء في هذا الوقت وذلك لأنه يعتمد على مياه الأمطار التي تنحدر في جداول ضحلة إلى حافته. ثم مررنا فيما يلي هذا بمنزل منعزل على جانب الطريق إلى قرية الشملا الصغيرة عند كتف صخرة كبيرة والتي من فوق قمتها تقع قلة آل قطيل القتيل فوق الجرف. وتبدو قرية الشملاء وكأنها مهجورة، بالرغم من أن واحدة أو اثنتين من عششها لا تزالان تستخدمان، وقد شاهدنا عدداً قليلاً من الناس في ذلك الموقع، ثم صعدنا الطريق الصعب القصير المنحدر لنصل إلى ممر نيد الشق (ممر الشق أو الصدع)، الذي تتم حراسته من جانب الجلمود على ارتفاع (١٠٠) قدم أعلى من موقعنا، بواسطة برج مراقبة منعزل شبه مدمر. كنا لا نزال عند ارتفاع (٤٣٠٠) قدم فوق مستوى البحر، إلاَّ أننا نسيطر الآن على منظر واسع عبر وادي ضمد العريض، حتى التلال والسلاسل فيما يلي الحدود في أرض يمنية.

ثم يتبع الطريق الأسفل من هذا الممر، مسيل الَقْزعَةُ الصخري إلى حيث قرية حبيل النقعة، والتي فيما يليها يطلق على المجرى اسم أهراين ثم يمتد إلى أسفل ليدخل ضمد في موقع يبعد حوالي ميلين من موقعنا ناحية الجنوب الشرقي، لقد برز تل العر الهرمي الرائع في الشريط نفسه، فيما يلي المجرى الرئيس، على ارتفاع (٥٠٠٠) قدم فوق سطح البحر، وتقع قمم كل من عَيَّاش والسقاء بعيداً

إلى يساره. لقد أمكننا رؤية قرية مدينة جاوى داخل وادي عريض ضحل، يمتد جنوباً بين هاتين القمتين وبين السلسلة التي تتذيل بعيداً منهما، وهي مركز إداري يمني محلي وهي أيضاً السوق الرئيس للمنطقة. يشبه أهل بطين التابعين لتلال بني عياش، وآل يزيد التابعين للعر تقاطيع سمات أهل فيفاء، وإلى درجة أصغر ما هما فرعان لأهل منبه التي كما قد رأينا تنتمي إلى اتحاد فرود في خولان. وتقع كل هذه المنطقة على الجانب اليمني للحدود، حيث يمكن بالكاد رؤية كتف جبل النظير العظيم البارز، والمسجد الصغير الأبيض اللون الذي يقف في قمته العالية إلى ما يلي العر.

لقد وصلنا إلى قلة آل قطيل بعد مواصلة مسيرتنا فوق أرض منحدرة، مارين ببرج المراقبة وصهريج مبني من الأسمنت وخالٍ من الماء وتملؤه أعشاب مزدهرة، وهي مقر مضيفنا، يحيى بن شريف. لقد ارتفعت القرية إلى (٥٠٠٠) قدم فوق سطح البحر عند النهاية الغربية للجرف، مواجهة لوادي ضمد ناحية الجنوب، ومسيطرة على التلال السفلى والسلاسل التابعة لأرض بني مالك ناحية الشمال. لقد كانت قرية مهيبة ذات منازل كبيرة جيدة البناء، ومستديرة ، غير أن أهم ما يميزها هو وجود نفق واسع يقع أسفل الفجوة بين اثنين من أكبر هذه المباني وهو مفتوح على الطرفين. ويبدو أن هذا هو المركز الاجتماعي المحلي. وقد قضينا فيه مدة ساعة في جو بارد بعد مسيرتنا المرهقة. لقد التحق بنا كل سكان القرية لمناقشة شؤون العالم مع تناول القهوة والشاي، وذلك لأن مثل هذه الرفاهيات كانت غير معروفة لديهم. ولرد الجميل نحو إكرامنا لهم، فقد قدموا لنا معلومات كثيرة عن البلاد التي تمتد أمامنا في بانوراما رائعة.

نستطيع الآن رؤية وادي جلة حجام وهو يهبط إلى ضمد عند موقع يبعد حوالي ميلين ناحية الجنوب الشرقي، عند السرج المنخفض الذي يربط بين كل من عياش والسقاء. لقد كانت الغابة العظيمة التي تغطي سلسلة كل من العريف والكتف هي أكثر المعالم لفتاً للانتباه وعلى رأس كل منهما تجري الحدود إلى ممر نيد خرمة، ثم تنحدر إلى وادي جحام، ثم تمر على مستوى أدنى على الجانب القريب من كل من السقاء وعياش والعر. وتقع قمة فيفاء الآن ناحية الجنوب الغربي من موقعنا، وتوازن العر ناحية الجنوب الشرقي، بينما وقفت قمم بني مالك العظيمة قليلاً ناحية الشمال الغربي. كما وقفت ناحية الشرق من موقعنا وعبر ضمد كتلة جلحة حول نيد خرمة، وتنتشر قرية شَهْدَان الكبيرة، وهي مقر رئاسة حتروش التابع لآل يحيى، إلى أسفل فوق السفوح الشديدة الانحدار بالقرب من القمة. ويقع جزء من معقد جلحة بما في ذلك قريته في أرض يمنية. ويحمل مسيل سرمه[1] الذي يفصل قسمي الكتلة الصخرية، جانباً من الحدود إلى قرية أيحام.

لقد كانت مسيرتنا متقطعة، وقد استغرق وصولنا إلى القرية التالية نصف الساعة، وهي قرية نعامة ولا تبعد بأكثر من الميل الواحد فوق الجرف، ثم عبرنا ما بين هذا الموقع وقرية عَثْوان التي وصلناها خلال ربع الساعة، وعبرنا الحدود بين قسمي آل خالد وآل سعيد، ووجدنا أنفسنا في آل سعيد ونحن ضيوف على الشيخ مدة ساعة كاملة، واسمه علي بن فرحان، وكان ينتظرنا عند باب منزله وبرفقته حشد منظري لأفراد قبيلته. لقد كان كرمه وافراً أكثر منه مشهياً ولم أكن راغباً في

(١) سرمة: - أحياناً تلفظ (حرمة) والاسم الصحيح هو (سرمة). انظر: عبدالله القباع. **العلاقات السعودية اليمنية**، ص ٤١١ . (ابن جريس).

تناول ما احتواه طبق العصيدة الضخم الذي يسبح السمن من فوقه[١]، والذي وضعوه أمامنا لفتح شهية مجموعتي، لقد تركتهم لها واستأذنت من علي لأقوم بمسح المنظر العام من فوق السطح، حيث ألقيت نظرة على الحشد البشري الضخم، الذي تجمع حول المنزل لتحية هذه المناسبة، لقد كان هنالك الكثير من أشجار العرعر فوق هذه السلسلة العالية، غير أنها كانت في معظمها في مجموعات مبعثرة، بينما كان تركيب السلسلة نفسها من شست شبه الألواح مع عروق متكررة من الكوارتز.

ثم تنحدر السلسلة إلى وادي ضمد مع عدد من العرنات التي يتكرر بروزها، كما توجد بعض القرى الصغيرة في وسط المزارع المسطبية التي يطلقون عليها اسم حَيْفَة (جمع حياف) بينما تطلق على الحقول المستوية فوق القمة اسم ضربة[٢]. لقد شاهدت عدداً كبيراً من النسوة، أثناء سيري، وهن يخرجن من بين جوانب التلال ويحملن حزماً ضخمة من نبات يسمى الشث، واسع الانتشار في كل هذه التلال ويكثر أيضاً في جبال الحجاز وفي الطائف. ثم يقمن بسحق الأوراق لعمل صبغة للمصنوعات الجلدية المحلية[٣]، وكن حينها متجهات إلى سوق السبت المحلي، في الفَرَحَة التي تقع أمامنا، بينما كان هنالك جمع آخر من وادي دَفَا عائدين إلى منازلهم بما اشتروه من بضائع حينما وصلنا نحن إلى السوق.

---

(١) العصيدة:- من الأطعمة الرئيسة عند سكان جنوبي البلاد السعودية، وهي منتشرة بشكل أوسع عند سكان جبال السروات، ولها أسماء عديدة مثل:- العصيدة، أو المشغوثة، أو العيش، أو اللهيدة وغيرها. (ابن جريس).

(٢) ضربة:- ربما يطلق عليها أيضاً اسم (ثاهرة). (ابن جريس).

(٣) أشجار الشث يتواجد بكثرة في المرتفعات الممتدة من الطائف حتى نجران، ويعد من المواد الرئيسة في دباغة الجلود. (ابن جريس).

لم نتوقف في أي من القرى التي تلي عثوان. ثم تركنا قرية منصية وهي جانب منعزل من عثوان وتقف على طرف الجرف، وتتبعنا طريقاً على امتداد الجانب الجنوبي لسلسلة تمتد في اتجاه الشمال الشرقي، لنصل إلى قريه الرقبة الكبيرة، غير أننا عبرناه إلى الجانب الآخر عبر مضيق، وواصلنا سيرنا في محاذاة قرية الأثبة الصغيرة التي تواجه التلال الشمالية. لقد تجاوزنا بذلك كلاً من الرقبة نفسه وقرية سوق الفرحة وما هي حقيقة الا امتداد له، وتقع مثل منصية، على حافة الجرف الذي كان ينحدر إلى أسفل الوادي، عند موقع يتقابل فيه ضمد مع رافد من كلا الجانبين. كان ممر رحارح العظيم على جانبيه، وهو ينحدر رأساً إلى أسفل بزاوية حادة بين صخور مسننة، بينما أقبل من جهة الجنوب وادي المديره متعرجاً فوق سفح سهل، بعد خروجه من السفوح التلية لسلسلة الحدود. ويتكون هذا الوادي من عدد كبير من المسايل تتلاقى داخل الحاجز لتكون مجراه، غير أن منبعه يقع في الانطواء الذي تكوَّن بالتقاء كل من سلسلة كتفه وكتلة جلحة. ثم انشقت سلسلة الجرف فيما يلي الرقبة إلى فرعين، وقد وقفت قريتا الحدفة (الحَجفَة) و(النَّشَمةُ) على قمة الفرع الداخلي أو الشمالي، فيما يلي مسيل عميق يفصل بينهما.

تستطيع رؤية خط جرف مرع، بعيداً ناحية الشمال الشرقي، فيما يلي السلسلة الحدودية، بينما نهضت قمم القهري، قريباً منا بجوار منحنى لوادي دفا، وهي تقع على الجانب اليمني للحدود. ثم واصلنا سيرنا فوق السلسلة بينما ينحدر مسيل الرقبة ماراً بالقهبة ومنها إلى الجْوَّة ومن ثم إلى الجوراء إلى اليسار، ووادي ضمد إلى اليمين وفي عمق، إلى أن وصلنا إلى تلال معقدة تصل بين القمم الرئيسة وسلسلة بني مالك وسلسلة الجرف الخارجية، ويتعرج الطريق هنا بين شبكة

نيد وقع الذي تنحدر على جانبه الأيمن التلال الخارجية في عنف في طريقها إلى وادي ضمد، الذي يتكون رأسه من سلسلة من المسايل تجري داخل وحداتها المستقلة، كما يجري وادي حريص إلى اليسار وإلى أسفل ليتصل مع الرقبة كرافد نهائي الجوراء، بينما أمكننا رؤية لمحات لمجرى دَفَا، من أمامنا إلى ناحية الشمال الشرقي وهو يدور حول قاعدة ثهران التي تشمخ أمامنا بكاملها.

ثم سلكنا الممر الخطر عند المضيق الذي تم قطعه داخل جرف شديد الانحدار مكوناً رأس مسيل عشوش داخل دائرة واسعة. ويكون هذا المسيل الرأس الرئيس لوادي ضمد الذي يفصله حزام ضيق من تلال منخفضة عن مجرى دفا. لقد أمكننا أن نرى فيما يلي دفا بعض قرى ومزارع عراب المسطبية في مسيل ثهران وذلك أثناء هبوطنا التدريجي من المستوى العالي للجرف إلى التلال السفلى حول مضيق نيد أم أثبة الذي مهد للوصول لرأس ضمد ومجرى دفا. ويسكن آل تليد قرية عرب، وهي القرية الوحيدة في كتلة ثهران، وتكون دفا الحدود بينها وبين بني مالك، غير أن لبعض عناصر بني مالك (بني حبس) الحق في استخدام المراعي والغابات (للوقود والخشب) في منطقة ثهران. ويقع مضيق أثبة، وتوجد عليه عشة واحدة غير مؤجرة بجوار صهريج صغير فارغ مبني على ارتفاع (٥٥٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، وحوالي (٥٠٠) قدم أسفل الممر العالي لنجد وقعه. لم ننته بعد من الهبوط إلى أسفل، فسرعان ما وصلنا إلى ممر آخر، اسمه نيد الرزمة الذي يربط بين وادي ضمد ووادي دفا، والذي وصل ارتفاعنا فيه إلى (٤٧٠٠) قدم فقط فوق مستوى سطح البحر. ويجري مسيل غابس من هنا إلى عشوش على جانب واحد من البداية الفعلية لضمد، بينما يجري على الجانب الآخر شعيب قعيتمان لمسافة نصف الميل ليدخل في دفا.

كنا لا نزال نواصل هبوطنا غير أن الهبوط أصبح لطيفاً ولمسافة (٥٠) قدماً إلى أدنى نقطة في الخط الفاصل بين الواديين العظيمين. كان هذا هو نَيْد العَقَبَةَ وكان الممر ممتازاً، وهو من أكثر الممرات استخداماً بواسطة الناس الذين يعبرون من أحد المجريين إلى المجرى الآخر. لقد هبطنا بذلك حوالي (١٣٥٠) قدماً من الممر الذي يعلّم أعلى بقعة في الطريق على امتداد سلسلة الجرف. والذي صعدنا فوقه من عند ممر نيد الشق (٤٥٠٠ قدم) إلى قلة آل قطيل عند ارتفاع (٥٥٠٠) قدم. لقد كان صعودنا متَّزناً، من قلة آل قطيل إلى نيد على ارتفاع (١٠٠٠) قدم. ويوجد نيد داخل بلاد ذات سفوح تلالية منتظمة مكسوة بالغابات، خاصة أشجار القرظ الذي كان جافاً جداً.

لقد تجاوز الوقت زمن الغروب، وكانت بقية مسيرتنا سهلة إلى وادي دفا، الذي عسكرنا فيه عند الساعة ٦,٣٠ مساءً بالقرب من الثقوب المائية ومن مياه غيل الفقوة، وعلى ارتفاع ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وعلى ارتفاع ٢٣٠٠ قدم فوق موقع التقاء دفا مع وادي بيش، ولربما كانت المسافة حوالي ٢٠ ميلاً على امتداد الوادي المتعرج، الذي يجري في اتجاه شرق الجنوب الشرقي إلى غرب الشمال الغربي ولمسافة الميل الواحد على جانبي الفَقْوة لينحرف بعدها في اتجاه الشمال الغربي حتى غاب عن أعيننا في انطواءات التلال. لا أستطيع أن أرى مجراه الأعلى عند الموقع الذي يقترب منه من أعران ثهران الجنوبية، غير أنه يبدو وكأنه يجري ناحية الشمال الشرقي إلى الموقع الذي يتكون عنده رأسه وذلك باتصال مسيل مريسيقة مع مسيل الجوه، كما كان قد شوهد عند عقبة عَلْب.

لقد وصلنا الآن إلى ختام مرحلة كاملة من رحلاتنا، وذلك لأننا قد عدنا مرة أخرى إلى الحدود وغداً سنبدأ العمل الشاق لترسيمها إلى الخلف ناحية سهل

تهامة. لقد كان يومنا طويلاً هنا وعلى الرغم من تناول غـذاء العصيدة في عثوان، فقد كنا على استعداد لتناول العـشاء الفاخر من الأرز ولحم الماعز، الذي تم إعداده لنا على وجـه السرعـة. لقد كـان معـسكرنا في بقـعة جـميلة فـوق بطن الوادي الحصوي، وتشـمخ الجبال العظيمة من فـوقنا. وكانت مياه الغيل منقطعـة غير أن الثقوب المائيـة كانت مستديمة، بينمـا امتدت شجيـرات خفيضة مـزدهرة وأعشاب عطرية. لقد كان الضباب كثيفاً أثناء الليـل، كما كان كل شيء مبتلاً في الصباح، عندما استـيقظنا لأداء صلاة الفجـر عند الساعة السادسـة والنصف، ثم بدأ رجال قبيلة بني مالك في الإنشاد والرقص، بعـد أن فرغنا من العشاء المتأخر الذي أحس كل فـرد منا بأنه قـد اكتـفى منه وارتاح، واسـتمـر الغناء إلى وقت مـتأخـر من الليل[1]. كمـا أطلقت بعض الطلقـات من البنادق، وأضفت على الجـو الراقص حيوية، واسـتمر الرقص في إيقـاع مرتفع حتى أدركهم الانهـاك، فصمتـوا فجأة واستغرقـوا في نوم كنوم القائم بالعدل. لقد كان غناؤهم منسـقاً، غير أن الرقص كان مملاً.

(١) إن عادات السمر والاجـتماعات الليلية قديماً كـان يتخللها بعض القصص والحكايات الشعبـية، بالإضافة إلى بعض الأهازيج والأغاني والرقصات الشعبية، والهدف من هذا كله هو التسلية والترويح عن النفس. (ابن جريس).

الفصل الثامن والعشرون

حدود المرتفعات[١]

كان علينا مراجعة كل شيء قبل أن نبدأ المرحلة التالية من الأحداث. كان عبدالله بن شرقة، الذي رافقنا لبعض الوقت ومعه شرطته، مسؤولاً عن كل الترتيبات وكنت مرتاحاً أن أترك له حرية عمل كل شيء. لم يكن عبدالله فقط كفئاً، بل كانت له أساليب لطيفة للتعامل مع الناس، كان يمزج الحزم في كل الأمور الجادة مع التسامح تجاه الخطأ الذي يمكن الصفح عنه، لقد كان حقيقة يستطيع العزف على اللحن المناسب في تعامله مع هؤلاء الشيوخ وأتباعهم.

كان من العرف المتبع لدينا أنه يقع على عاتق الشيخ الرئيس لأي مقاطعة يحتمل أن نعبرها في الطريق، أن يقوم بمقابلتنا على الأقل عند حدود أرضه ويظل مرافقاً لنا ما دمنا داخل مملكته[٢]. لقد استطعت بهذه الطريقة أن أكتسب معرفة العديد من شيوخ القبائل وأن أقيِّم أهميتهم النسبية على المستوى المحلي، ذلك لأنه يجب أن يذكر بأن كل رئيس قبلي يستمتع بمكانته التقليدية وهيبته، إلاَّ أن شخصيته الذاتية ومقدرتها، تعني الكثير في الإطار الديموقراطي. لم أدخل أراضي آل العليلي[٣] في أي مرحلة من مراحل مسيرتي عبر منطقة بني مالك، ولم يكن

---

(١) لمزيد من التوضيحات عن مرتفعات منطقة جازان، وهي المقصودة في هذا الفصل باسم (حدود المرتفعات)، انظر: عبدالرحمن الشريف، المرجع السابق، جـ٢، ص١٧٧ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) إن حسن الترتيب والاعتناء الجيد الذي ناله فيلبي من الملك عبدالعزيز آل سعود ورجال حكومته خلال هذه الرحلة، من أهم وأعظم الأمور التي أنجحت هذه الدراسة حتى تخرج لنا في هذا السفر الكبير. (ابن جريس).

(٣) العليلي أو آل علي، وكلا الاسمين صحيحاً. (ابن جريس).

من الضروري أن يتفقد جابر، شيخ قبيلة العليلي، تقدم ترحالنا، غير أنه وبدافع إرادته المحضة قد قام بإرسال حفيده أسعد بن حسن ليرفع تحياته إلينا وليقوم بمرافقتنا. لقد رافقنا من جورا، غير أنه لما كانت أراضيه تقع خارج إطار منطقة فحص الحدود، فقد منحته إذناً رسمياً بالانصراف مع هدية مناسبة لأتعابه ورسالة شكر لخاله. لقد غادرنا أسعد أثناء الليل بعد أن تناول معنا وجبة العشاء. كنا بالفعل داخل بلاد حبس أو على حدودها في الفقوة. التي كنا قد دخلناها من أرض قبيلة آل سعيد من نَيْد. لقد التحق بنا فرحان بن جبار أمداهمة[1]، وهو شيخ قبيلة آل حبس في عثوان، غير أنه برهن على عدم فائدته لنا، وطاعن في السن وقد سمحنا له أو شجعناه على الانصراف أثناء الليل، تاركاً ابنه جبران يشرف علينا ممثلاً له حتى ننتهي من أرض حبس التي -كما ورد من قبل- تندلق فوق تلال ثهران وتمس الحدود على جانبي ضمد. كما غادرنا يحيى الخالدي، راجعاً عندما وصلنا إلى عثوان على أن يلتحق بنا في وقت لاحق حينما تعود بنا رحلتنا مرة أخرى إلى حدود أرضه على امتداد ضمد، لقد كان رجلاً طاعناً في السن وجذاباً. وقد ظل في مرافقتنا علي بن فرحان، وهو شيخ قبيلة آل سعيد حتى قرية الفقوة، غير أنه لا حاجة لنا به وقد سمح له بالعودة.

لقد انتهينا بذلك من الأقسام الشمالية لبني مالك. ولا يزال الشخص الذي نرغب في لقائه غائباً. كان ذلك الشخص هو رئيس قبيلة آل يحيى، حتروش بن سلمان، الذي قد أُرسلت إليه رسائل مستعجلة تطلب منه اللحاق بنا دون تأخير، وذلك لفحص حدود أرضه. لقد كنا في حاجة إلى بعض أتباعه خاصة أولئك

(١) أمداهمة: اسمه أيضاً فرحان بن جبار بن داهمة، أو (الداهمة). وجميع هذه الأسماء صحيحة مع اختلاف في بعض الحروف للاسم الأخير. (ابن جريس).

الذين عملوا من قبل في وضع أعمدة الحدود، لم تجد رسائلنا أذناً صاغية، ولم يحضر حتروش أو أيّ شخص آخر من أتباعه لمقابلتنا، وفي الفقوة يبدو هذا الأمر غريباً وقد احتار عبدالله بن شرقة في تفسيره. ثم انتهى كل شيء على ما يرام، وذلك بحضور حتروش في الصباح الباكر إلى معسكرنا ومعه حاشيته الكبرى. لقد كان حتروش شخصية لطيفة ومسيطرة، لقد أدهشنا حضور يحيى الخالدي لمرافقتنا، ويبدو أنه قد غيَّر رأيه، أو أنهى ما كان يؤديه من عمل كان يشغله، وقد شجعت عودته هذه علي بن فرحان على البقاء معنا. كان لدينا بذلك جمعاً منتظماً من القبائل تحت تصرفنا، بينما ازداد حشد الموهوبين المحليين بإضافة متعب بن جابر، شيخ آل تليد وخبير الحدود.

بدأت العمليات لهذا اليوم بحضور كل هؤلاء، بزيارة إلى هضبة منخفضة في سفوح التلال التي تطل على الفقوة (أو فقوة الريم، لإكساب الثقوب المائية اسمها كاملاً) وذلك بغرض مسح أَوَّلِيٍّ للمنطقة التي سنكتشفها.

يتاخم وادي دفا، الذي ينحني ناحية الغرب أعلى الفقوة، ومن على جانبه الأيسر، شريط من تلال سفحية تفصله عن رأس ضمد، ويبلغ عرضه ميلاً واحداً مع انحدار (٢٠٠) قدم إلى المجرى، ويقيده من جانبه الأيمن ذلك الجلمود الذي يرتفع إلى (٤٠٠) قدم من سلسلة تفصله عن قدم ثهران الفعلية. وتطل بقايا أبراج قرية الحِسِي القديمة على الجانب الأيسر من عرن منخفض ينساب من إحدى قمم قلحة التابعة لأراضي التلال السفحية، وتقع نيد إلى جنوب غرب موقعنا وتكون نيد إلى ناحية الجنوب الغربي أيضاً، بينما يقع وادي عَرَب داخل مسيله ناحية الشمال الغربي.

لقد شمخ هرم هجيدة العظيم، إلى أسفل مع اتجاه الوادي، وعلى الجانب الأيسر في مقابل العرنات الشمالية لثهران يسمى (صرمان) ربما يقصد بها سليماني بلهجة تليد)، ومعه السفوح الشديدة الانحدار لبني مالك، التي يصعب تحديدها منفردة من موقع المشاهدة هذا من ناحية اليسار. لقد تكونت في اتجاه أعلى الوادي انحناءة الوادي، بواسطة سلسلة عارف الطويلة، وعقدة القمم السفلى لجبال القهر، وقد التفت عن المنحنى الفعلي. وليست هنالك أي إضافات تفصيلية مهمة، ولذا فقد هبطنا إلى المعسكر لنتناول إفطاراً دسماً من اللحوم قبل أن نبدأ العمليات التالية قليلاً بعد الساعة التاسعة صباحاً.

لقد وصلنا إلى الحدود بعد أن سرنا على الأقدام مدة عشرين دقيقة فوق مجرى مياه الغيل المتقطعة والراكدة فوق بطن المجرى الحصوي، والتي تعبر وادي دفا في خط شرق - غرب، قليلاً أسفل انحناءته العظيمة. لقد كانت الحدود الرسمية على الجانب الأيمن تتكون من كتلة صخرة تسمى الرصيفي وارتفاعها ثمانون قدماً وتطل على مسيل رافد على جانبها البعيد، برغم أنه لم تكن هنالك حاجة لوضع عمود حدودي فوق جسم بارز كهذا. ويقف عمود قمع معروب على الجانب الآخر للمجرى، عند مستوى الوادي لتحديد الموقع الذي عنده يجري ذلك الخط داخل السفوح التلية ليصل إلى العمود الحدودي التالي على واحد من قمم القلحة[1] وفي مركزها. ويجب أن نذكر أنه عندما كنا في عقبة عَلْب، كنا قد اكتفينا بإطلالة من بعيد لما لا يقل عن نصف دستة من الأعمدة الحدودية، مثبتة فوق مجرى الجُوَةُ إلى موقع التقائه مع شعيب موتان ليكون رأس وادي دفا (أو

(١) قمم القلحة يطلق عليها أيضاً اسم (جبل أمقلحة) (ابن جريس).

وادي الريث كما يسمى أحياناً). لقد كان آخر هذه الأعمدة الذي استطعت أن أراها في ذلك الوقت هو الحُمرة، ويقع في مضيق يعترض العرن الجنوبي لكتلة ثهران، في موقع انحداره إلى مجرى دفا من فوق منحناه[١].

كان أحد مرشدي من منطقة بني مالك، والآخر من آل تليد يجهلان أسم الحمرة للأسف، وأخبراني أن العمود الحدودي التالي، والذي يقع إلى شرق الرصيفي هو نيد جنازة، داخل ممر يقود عبر العرن الخارجي لثهران. لقد استطعت في وقت لاحق أن أرى الموقع من أرض مرتفعة ولأقنع نفسي بأن كلا الاسمين يستخدمان من وجهتي نظر مختلفتين للعمود نفسه.

(١) معظم أسماء الأماكن التي وردت في هذه الصفحة توجد على الحدود بين السعودية واليمن، للمزيد من الإيضاح انظر: عبدالله القباع، المرجع السابق، ص٤٠٨ ــ ٤١٠، محمد آل زلفه. **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣ . (ابن جريس).

النظر من على جبل في اتجاه الشمال على امتداد عقبة علب

ثهران: دائرة حجرية في اتجاه الشمال الشرقي

جيزان: مراكب الرحو في الميناء مزينة بمناسبة العيد

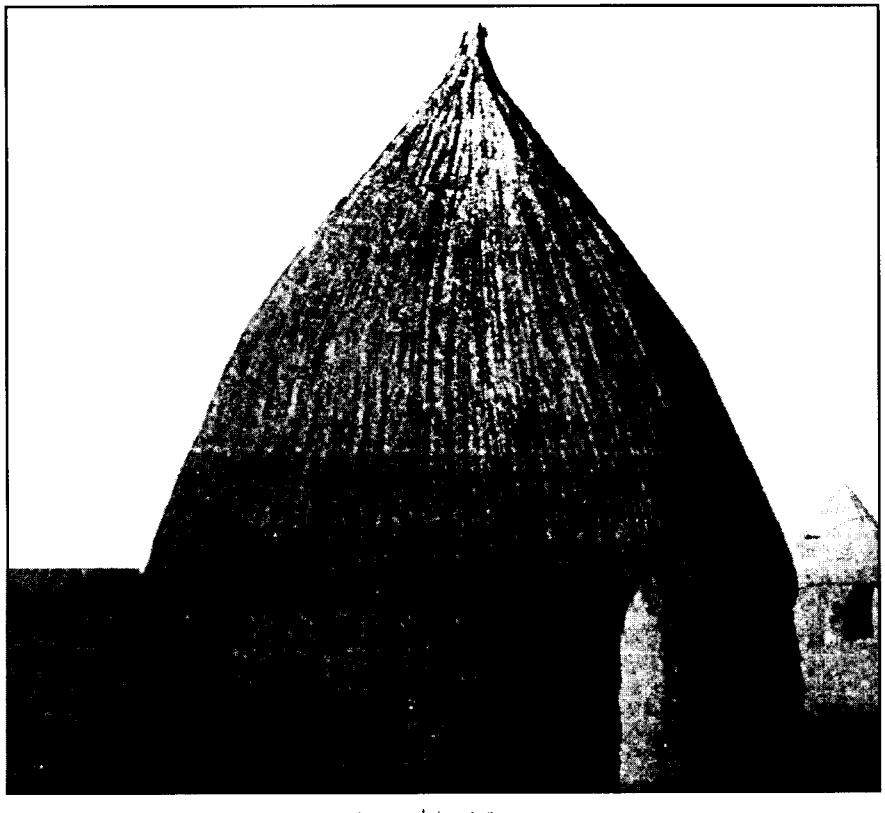

عشة في الحسينية

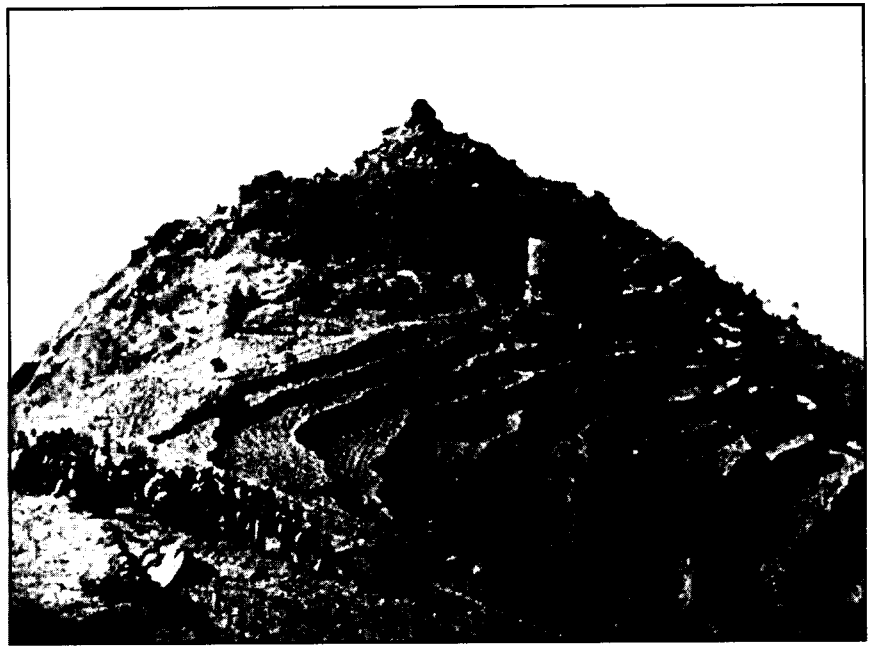

فيفاء: قرية أم نقيل ورجال القبيلة يغنون

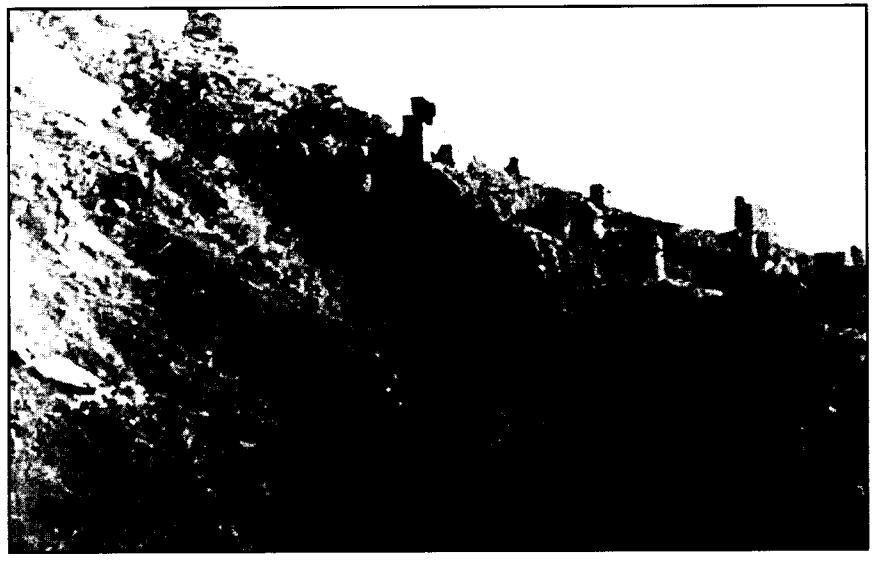

فيفاء: حصون فوق مرتفعات القمة الرئيسة، ويلاحظ منزل الشيخ جابر إلى أقصى اليسار

فيفاء: جيش قبلي في الجبل

فيفاء: رجال قبائل يسيرون في صفين

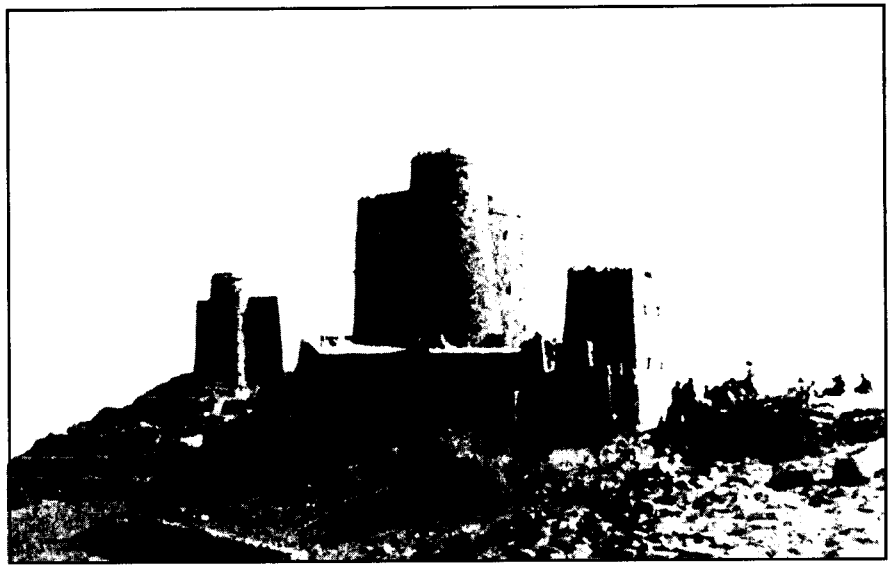

فيفاء: حصن ومسجد شيخ علي في مروح

وادي الجوراء ورجال قبيلة بني مالك

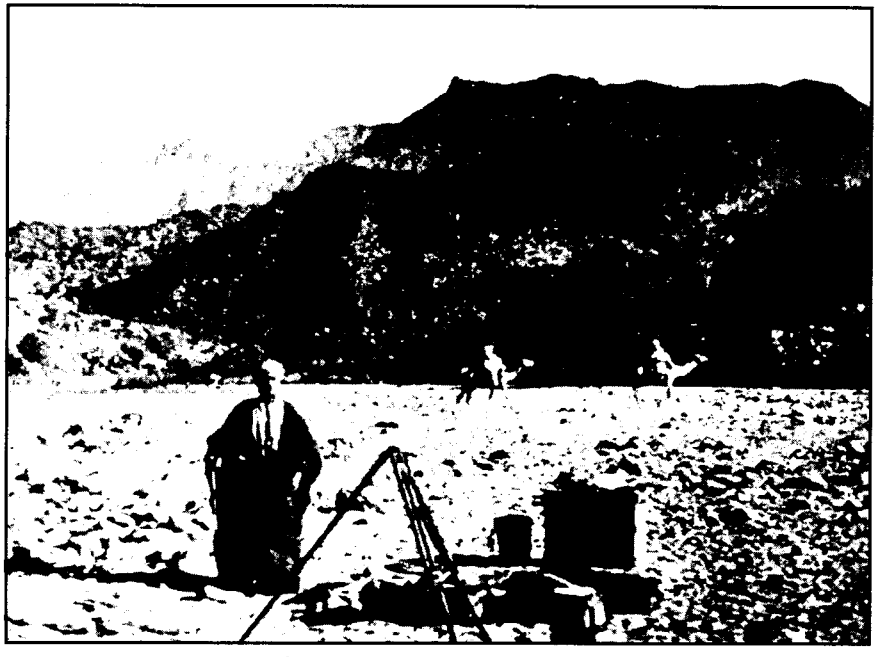

يحيى أم شريف من بني مالك في معسكر الجوراء

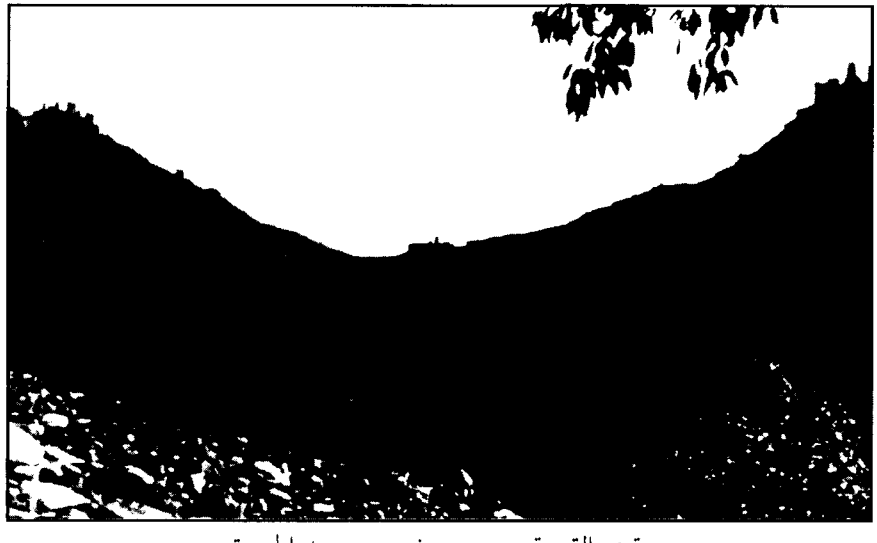

قرى القهبة، هجو، وختم من عند الحمرة

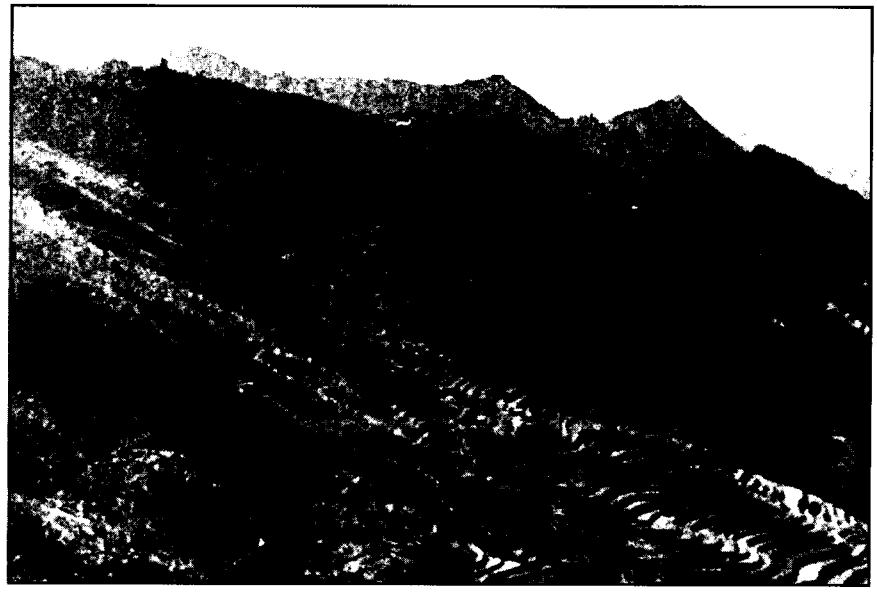

في اتجاه عبر وادي الرقبة، على السلسلة الأولى يلاحظ ذراع أمسودة، والنشمة، والحدجة وعلى السلسلة الثانية تشاهد ريدة، والثاهر، وخاشر، وخطيبة، وروحام

عمود قمع معروب، حتروش ومتعب ويحيى على اليسار وعلي بن فرحان على اليمين

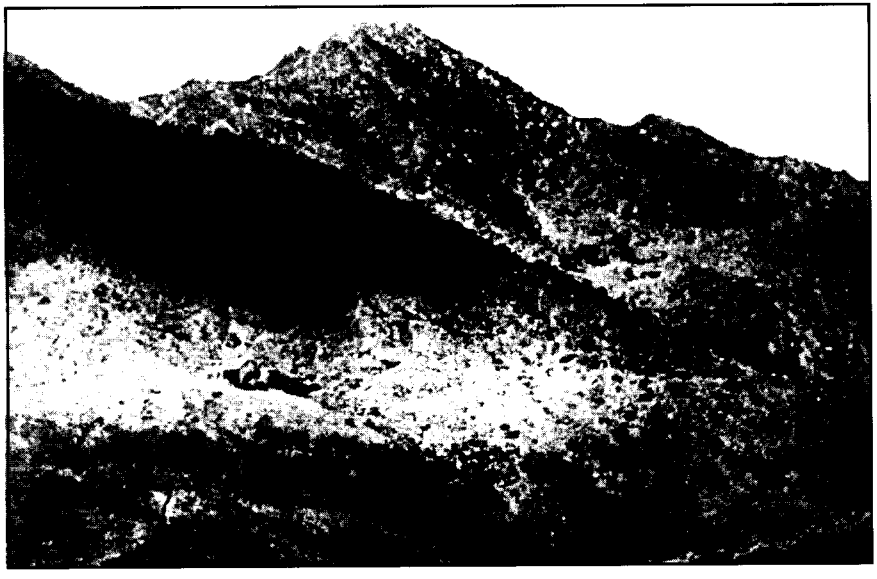

منظر على الحدود إلى قمة القلحة، فوق قرى منظر والصحيف على الجانب اليمني

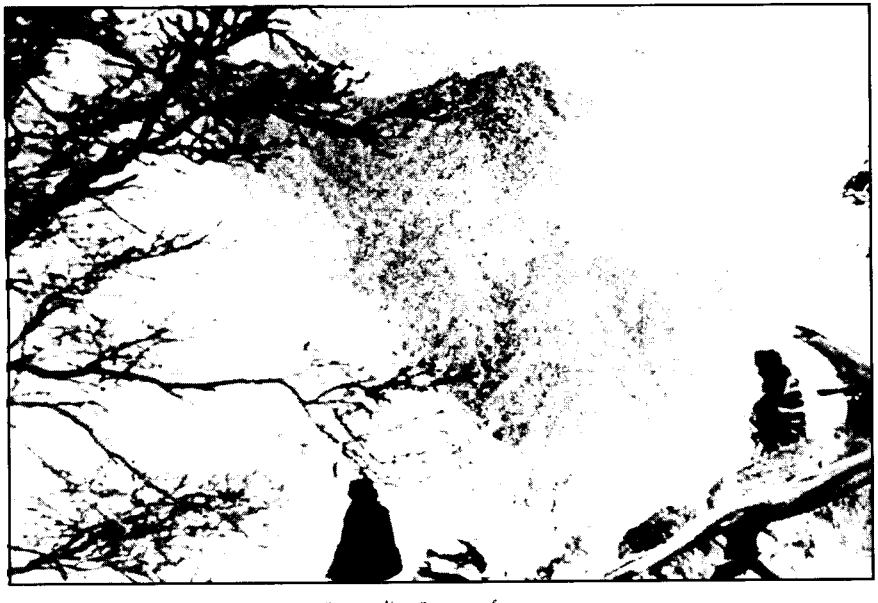

ممر نيد أمنشمة (النشمة)

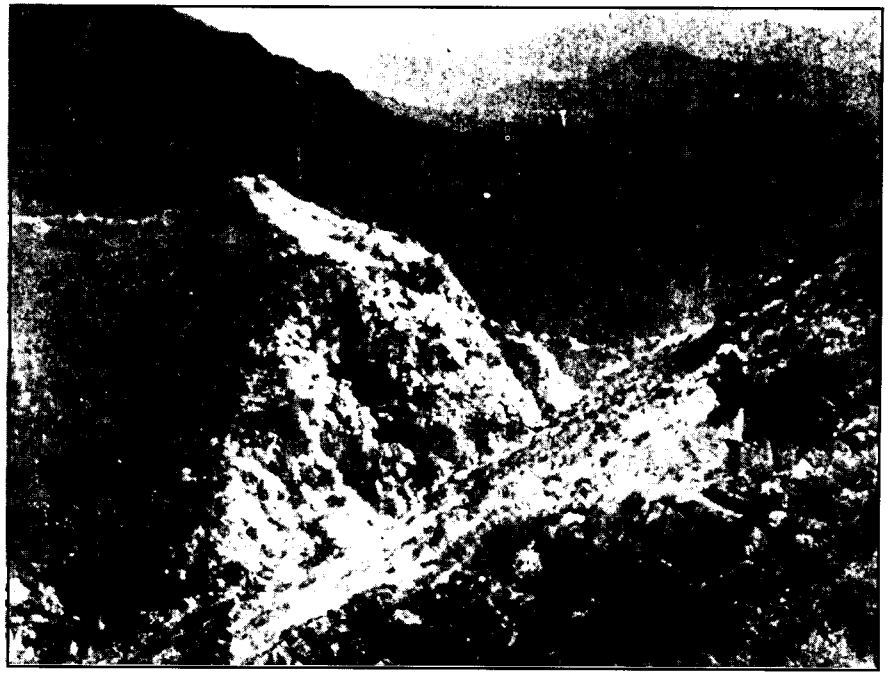

في اتجاه إلى أسفل وادي سموعة من عند قلات أمذيور (الذيور)

في اتجاه وادي حربرب من عند عياش

فرن بدو لاستخلاص الراتنج (الصمغ) بالقرب من وادي حربرب

عمود قفلة الحدودي

في اتجاه وادي جازان من مدخل

قلعة مدخل القديمة، مصانه جزئياً

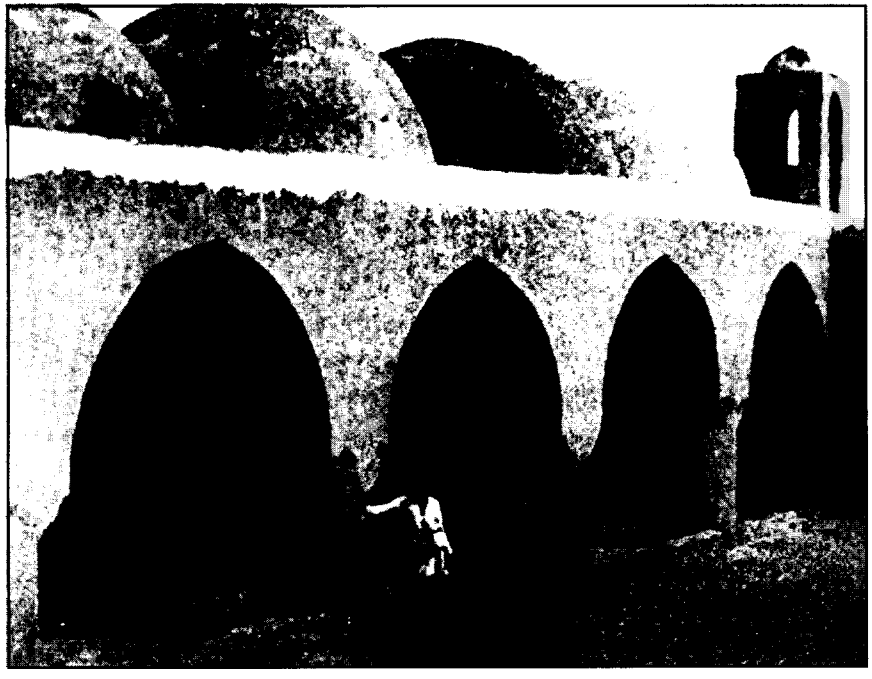

الجزء الداخلي من مسجد أشرف في أبو عريش

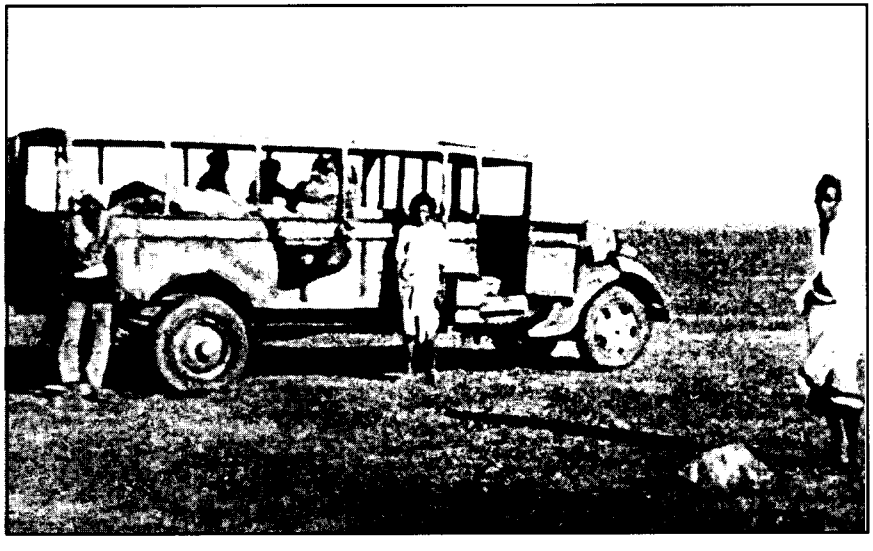

عمود مقطع الرديف الحدودي على الطريق الساحلي بين جازان وميدي

علي بن نجيب وشريفين محليين بجوار كوخ في الخوبة

مسلتان (ضريحان؟) في وادي أمغيالة

قرية البيطارية، ناحية الشرق

أم الخشب: الشريف حسن والشريف حسين وخداماهما

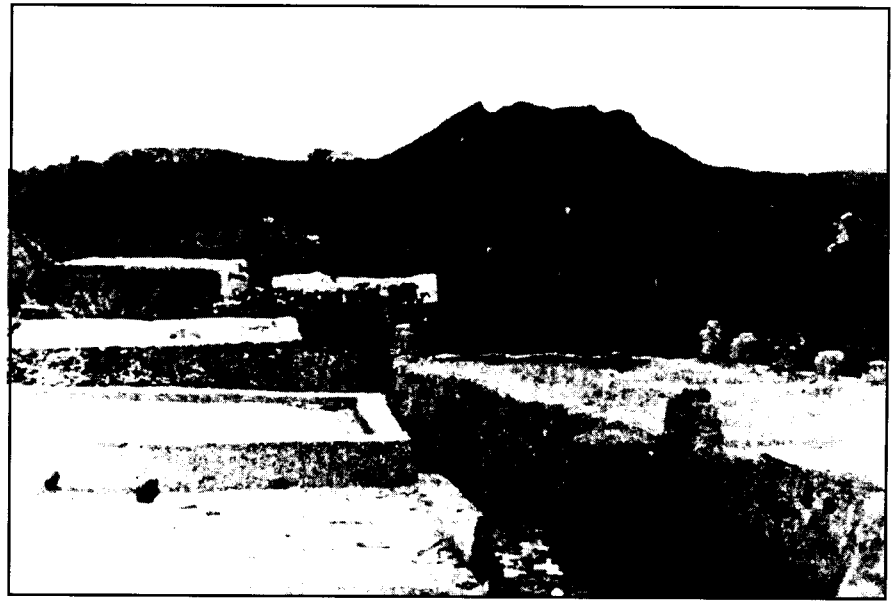

النظر ناحية الشرق فوق قرية القحمة تجاه الفوهات البركانية لكل من الطفة وخرمة

فجوة في الطريق عبر حقل حمم بركانية، ذات جدار مدعم وبوابة

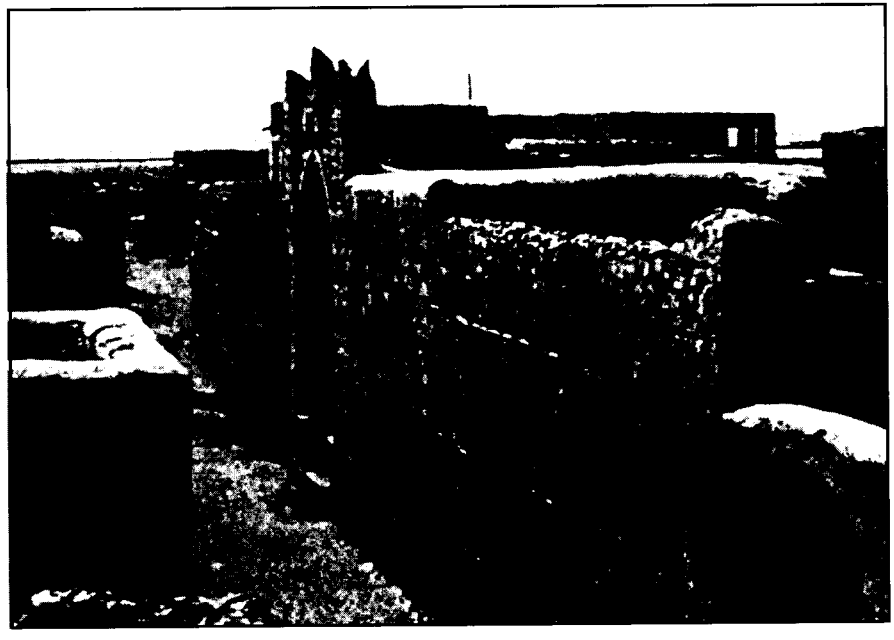

شارع في القنفذة

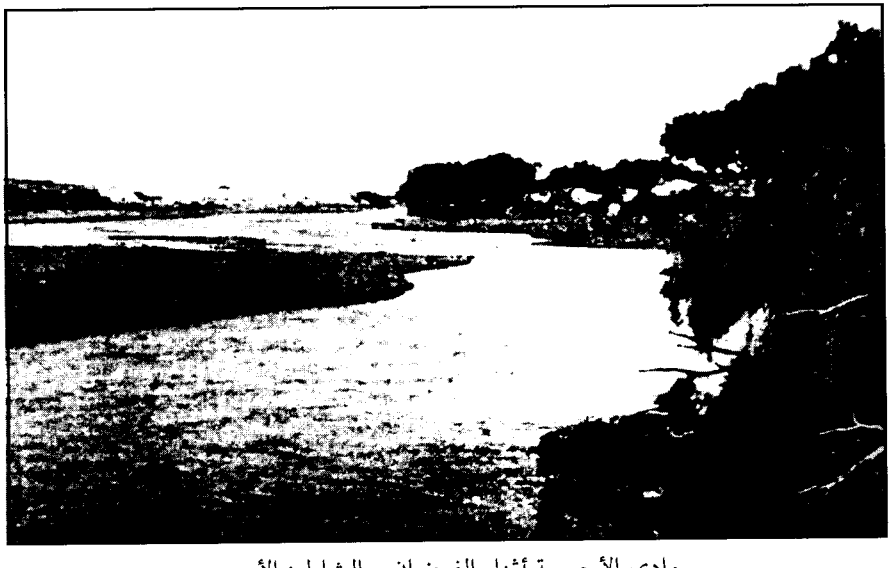

وادي الأحسبة أثناء الفيضان، بالشاطئ الأيسر

لقد كان الموقف متشابهاً في كل الحالات -كما أرى- وقد أيدتني في ذلك اتجاهات البوصلة وتعريفها. وبقبولنا لهذا الرأي، فقد تم دمج أعمدة كل من الحمرة ونيد جنازة تحت الرقم (٤١)، مع احتمال ضئيل بأنهما منفصلان. وهو احتمال على ضوئه أعددت الرقمين (٤١ و٤١ (أ)). يتخذ جرف الرصيفي الرقم (٤٢) على الحدود ويكون عمود الحدود في قمة معروب بالرقم (٤٣) وقمة أمقلحة بالرقم (٤٤). وكنت بهذا قد ربطت نهاية الحدود على الفجوة التي كنت قد تركتها من قبل في علبين.

يجري مسيل صغير اسمه شعيب عرب في مقابل عمود قمع معروب، إلى أسفل داخل دفا من سلسلة ثهران الخارجية، وخطر بذهني أن الاسم لهذا العمود يمكن اشتقاقه من هذا وأنه يجب أن يكتب كما يلي «قمع أمعرب». استطعت رؤية قرية الشِقْرَةَ الصغيرة عند جرف الرصيفي، داخل مسيلها الذي يحمل الاسم نفسه، في الموقع الذي يدخل من مسيل الشقرة داخل دفا عند زاوية منحناه. وهو يقع بالطبع، داخل أراضٍ يمنية، وينتمي إلى قبيلة آل ثابت، وهي من آل جمعة. ويدخل شعيب جلال، قليلاً من حول المنحنى إلى دفا، عند ممر يطل على وادي ضمد الأعلى على الجانب البعيد. ويوجد على هذا الممر عمود حدودي سنعود إليه عما قريب.

عبرنا في هذه الأثناء للوادي من الرصيفي، ناحية قمة أمقلحة اتجاه الجنوب الغربي في وسط التلال السفحية. لقد كانت مسيرة مجهدة في بلاد كئيبة، ومكسرة، وصخرية، وقد خرجنا منها بتسلق قصير وحاد لنصل إلى العمود الحدودي (رقم ٤٤)، يقع عند القمة على ارتفاع حوالي (٥٣٠٠) قدم فوق سطح البحر. وحوالي (٧٠٠) قدم فوق مستوى دفا عند قدم الرصيفي. لقد كانت

لديَّ -لحسن الحظ- برتقالة واحدة في جراب المؤونة، كان قد قدمها لي عبدالله بن شرقة وقد التهمتها الآن، شهية وسط حلقة معجبة من رؤساء نجد. لقد كنا من الواضح، أكثر عددية من أن نفكر في اقتسامها، غير أنني شعرت بالخجل بأنني كنت أخفف من عطشي، بينما لم يحضروا هم حتى زوادة الماء. لقد انتهى أمر البرتقالة سريعاً -على أي حال- وعدت لعملي. ونحن الآن تجاه الجنوب الشرقي من معسكر الفقوة، وكان موقع عمود نيد جنازة واضحاً ناحية الشمال الشرقي، على مسافة خمسة أميال. ويقع مجرى دفا داخل الزاوية التي يكونها هذان الخطان، وهو ينحدر ويدور بينما تمكنا من رؤية قرية آل ثابت بأبراجها السكنية على السفح لمسيل يقع فوق الشقرة، ويجري خط الحدود من هنا في اتجاه جنوب الشرق على امتداد سنام السلسلة التي بدأت فوق ممر نيد جلال إلى حيث جرف كتفه الكثيف الأشجار الذي عنده ينحدر مرة أخرى في اتجاه الوادي.

ثم سرنا على طريق ممشى ماعز ملتوٍ إلى منتصف المسافة، عبر غابة قرظ كثيفة، ووصلنا إلى صخرة شعيب جلال على الجانب الأيسر، والتي تطل على قرية الصُحيف الصغيرة التي وقفنا عندها نزولاً عند رغبة متعب رئيس قبيلة آل ثابت لننال بعضاً من كرمه الذي كان قد غمرنا به، ولتقديمه لنا الماء واللبن والبن من إنتاج مزارعهم الخاصة. لقد ناولته ريالاً ونحن نعد العدة لمواصلة السير، فقبله على مضض صادق؛ إذ إنه لم يرغب أن يجازى على كرمه[1].

(١) الكرم من الصفات الرئيسة عند سكان جنوبي البلاد السعودية؛ ولهذا فلا غرابة أن يمتعض رئيس قبيلة آل ثابت من أخذ عطاء من فيلبي؛ لأنه لم يكرمهم ويقدم لهم الطعام والشراب بغرض العطاء وإنما هو كرم نابع من ذاته. (ابن جريس).

لقد كانت كل القرى الصغيرة التي تقع على الجانب الأيسر لدفا بالطبع، داخل أراضٍ يمنية وتقع تحت إدارة مقاطعة مجز. وينطبق هذا أيضاً على منطر، التي مررنا بها في طريقنا إلى مضيق وعمود الحدود نجد جلال، حوالي (٥٠٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر. ثم وصلنا هنا إلى انفصال مؤقت للطرق، وسأتجه ومعي في رفقتي حتروش وخبراء حدوده إلى حافة سلسلة الحدود العالية، بينما تتجه بقية المجموعة ويقودها عبدالله بن شرقة إلى مسيل قيف داخل وادي يشق طريقه في الجبال حيث سيكون معسكرنا بين الحقو وبساتين قرية معينة. ينحدر مسيل قيف عند رأس ضمد الذي يعرف محلياً باسم أم صدر، ويقع التقاء المديرة وضمد قليلاً إلى أسفل، بينما يقع موطن حتروش في قرية الولجة أو (ولده) فوق السلسلة الخارجية، بين المسايل التي تغذي المديرة والوادي الرئيس.

لقد كان رقم العمود الحدودي نيد جلال هو (٤٥)، وكان علينا أن نتسلق منحدراً شديداً غير أنه قصير، لنصل إلى العمود الحدودي التالي رقم (٤٦) ويسمى نيد السحايا. وتطل على نيد جلال مسطبة صغيرة كان عمودها الحدودي على مسافة (١٥٠) قدماً أسفل موقعنا، وغير مشاهد لنا، إلاَّ أنه مغطى بعدد كبير من ركام الحجارة، ولربما كانت موقعاً لمقبرة قديمة. لقد أمكننا الآن رؤية رأس ضمد وتحيط به صخرة جلمود مهيبة.

كنا لا نزال نواصل تسلقنا فوق نتوء صخري إلى كوم حجارة حدودي قبلي قديم (غير متضمن في القائمة الرسمية للعلامات، ولربما نصنفه تحت الرقم (٤٦ أ) لرزمة أم حرة التي تقع على حافة سفح شديد الانحدار على ارتفاع (٥٨٠٠) قدم فوق سطح البحر. كما يقع أمامنا منظر رائع لنيد جنازة ويرى فيه مسيل معول، الذي ينحدر من عنده إلى دفا الذي ينحني من عند موقع الالتقاء

إلى الخلف ناحية الغرب وعند قمم القهر، وتقع أمامنا الآن أيضاً مناظر أوسع ناحية أسفل وادي ضمد وحتى كل من عياش والعر جنوباً وفيفاء نفسها ناحية الجنوب الغربي، وتقع القرى المرتفعة فوق سلسلة آل يحيى قليلاً إلى يسار الشريط نحو عياش، وهي: الوجلة، والحدبة، وشهدان، والعصيمة، بينما وقفت منصية بارزة على جرف ضمد في خط واحد مع فيفاء تقريباً.

واصلنا تسلقنا لنصل إلى العمود الحدودي رقم (٤٧) واسمه نيد أمرفصة[١]، ويقع في مضيق بين رؤوس مسايل تتجه جنوباً ناحية وادي ضمد وشمالاً داخل الأراضي اليمنية لتتصل مع وادي حنبة وهو رافد لدفا، والذي يتصل عند المنحنى مع كل من شعيب جلال وشعيب الشقرة.

كان ارتفاعنا هنا حوالي (٦١٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر، وبعد تسلق قصير وحاد على السفح المقابل وصلنا إلى عمود الحدود رقم (٤٨) والمسمى رزمة الرقبة، ولعله يسمى هكذا لأنه يقف في واجهة قرية الرقبة فوق الجرف، كان ارتفاع الجرف حوالي (٦٢٥٠) قدماً، ويقع قليلاً إلى ورائه كوم حجارة رقم (٤٩) لرزمة أم فرحة، التي تقف في واجهة سوق القرية التي تحمل الاسم نفسه على ارتفاع (٦٣٠٠) قدم فوق سطح البحر.

ويتبع خط الحدود في هذا القسم محيط حلقة السلسلة الواسع التي تهبط في انحدار شديد في عدد من المسايل كثيفة الأشجار إلى مستوى وادي ضمد بينما

(١) نيد أمرفصة يطلق عليها أيضاً نيد الرفصة، انظر: عبدالله القباع، المرجع السابق، ص ٤٠٩ . (ابن جريس).

يتصل بسلسلة حنبة على الجانب اليمني مع سلسلة حدودية (تسمى العريف تبدأ من نيد أمرفصة إلى الأمام) لتكون رأس وادي حنبة.

ثم واصلنا سيرنا حول طرف الحلقة إلى العمود الحدودي رقم (٥٠) بظهرات (ينطق ثهرات) أمقشعة، وهي على نفس ارتفاع العمود السابق، وقد كان المنظر بصفة عامة هو نفسه لم يتغير إلاَّ في ظهور قريتين على قمة السلسلة (هما ثاهر والسودة) بينما تقع المعينة ناحية اليمين إلى أسفل منا وتكون قرية الدارة الصغيرة وراء السلسلة فيما يليها.

نستطيع أن نرى بقية أفراد مجموعتنا وهم يستريحون في المعسكر بين بساتين معينة، وكانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً. لقد كنا عطشى بعد مسيرة يوم شاقة. وقررنا لذلك إيقاف العمليات لهذا اليوم، وسرعان ما كنا نسلك طريق العودة إلى أسفل عبر ممر شديد الانحدار فوق مسيل كثيف الشجر. لقد هبطنا خلال نصف ساعة إلى (١٠٠٠) قدم لنجد أحد رجالنا يجلس بجانب الطريق ومعه قربة ماء جلدية كنا قد رحبنا بها كثيراً، وتوقفنا عنده قليلاً لنستمتع بشراب الماء منها. كان هذا الرجل قد حضر لنجدتنا بناءً على التوجيهات التي أرسلت له بواسطة الصراخ والصياح من فوق المرتفعات ناحية المعسكر من أحد مرشدينا عند عمود قشعة الحدودي، الذي يقع على ارتفاع (٢٠٠٠) قدم أعلى السلسلة ولمسافة سير على الأقدام مدة ساعة كاملة كما فعلنا (دون احتساب زمن التوقف).

ثم مررنا بعدد من عشش البدو البسيطة التي تشاهد قليلاً أسفل هذا الموقع. ولربما كانت مجرد مواقع وقاية للمسافرين. ثم دخلنا المعسكر بعد غروب الشمس بقليل من فوق أحد حقول المعينة المحصودة ذات المساطب. لقد كان يوماً صعباً

ومرهقاً، ونحن نحاول أن نتابع حدوداً سيئة المعالم في وسط غابة من أشجار قصيرة، والتي كنا نحارب طريقنا خلالها خاصة تجاه الغرب أمرفصة، عبر شجيرات شائكة وغيرها من الأجمات. لقد حاول الشيخ يحيى الخالدي أن يتخلف عن المجموعة في وقت مبكر، بحجة أنه متوعك وعزا ذلك بلا خجل، إلى إكثاره من تناول وجبة فطورنا، التي كانت مكونة من لحم الضأن والأرز، وأتبعها بالشراب بشراهة من مياه الغيل دون ذكر شيء عن المنعشات الأخرى في قرية الصحيف. لقد شعر حتروش بالملل من إجراءات سيرنا وحاول أن يكون سيئ الطبع مرة أو مرتين في محاولة لتقصير مسافة السير، ثم صار معقولاً أكثر وودوداً حينما تحقق له أنني مصرٌّ على مواصلة السير إلى أقصى مدى ممكن. لقد كان رجلاً وسيماً، متقدماً في السن، مع ميل عنده ليكون فظاً وعابساً وصرح لي متفاخراً بأنه لم يتعد حدود أراضي قبيلته من قبل إطلاقاً! كما رجاني علي بن فرحان، في الختام وكرر ذلك بأن نتوقف، وذلك بحجة أن المعسكر سيكون بعيداً جداً عنا ولن نستدل عليه في الظلام، غير أنني كما ذكرت من قبل، كنت قد قمت بتوقيت كل شيء في قناعة. عندما وصل هذا النزاع إلى مستوى حرج عمدت إلى الترمسين المحتويين على كل من الشاي وشراب القشر (قشر البن) بالتتالي، وقد أنعشت هذه المكيفات كل فرد إلى فترة ما، كما أكرمنا علي بالزبيب مما ساعدنا على المضي في السير. لقد استفدت الدرس من كل هذا، وهو أنه وفي المستقبل لا بد أن تكون معنا بعض المؤن -على الأقل- لصد الجوع أو العطش حتى لا يكون أي منهما سبباً للنزاع فيما بيننا.

لقد استمتعت حين وصولنا إلى المعسكر ببراد الشاي، وبمحتويات علبة من الكرز الياباني إلى حين الإشعار بقدوم وجبة العشاء. لقد كانت هذه أول مرة لأي

من هؤلاء الشيوخ ليقف فوق هذه القطعة من الحدود، وذلك باعترافهم بأنهم ظلوا مع أعضاء اللجنة في الوادي بينما كانت لجنة الحدود تقوم بجولتها في الأعالي. لقد أسند عمل بناء العمود الحدودي -وبعد النقاش من الجانبين حول الموقع- إلى بدو يمثلون القبائل على جانبي الشريط. ولقد قاموا هم أنفسهم بأداء عملهم بشكل روتيني تعوزه الحماسة وتدفعهم رغبة موطدة العزم، وهي العودة لرفاهيات المعسكر بأسرع ما يمكن. لقد واجهتنا هنا المشكلة المتكررة المتعلقة بالبحث عن بعض العلامات بين أجمات الشجر، وكادت بعض هذه العلامات تبدو كأنها تراكم طبيعي للحجارة أكثر من كونه ترتيباً صنعه الإنسان أو عموداً مبنياً. كان أكثر ما انطبع في ذهني عن هؤلاء الناس، هو افتقارهم إلى العزم وقوة الاحتمال أثناء المسيرة. كما كانوا كثيراً ما يتوقفون لالتقاط أنفاسهم، ومتى ما سنحت الفرصة فكانوا يلقون بأجسادهم تحت الأشجار أو في ظل الصخور لحماية رؤوسهم من الشمس. لقد كان عرضاً شائناً، وكان جهلهم العام بالبلاد مدهشاً لي أكثر. يستطيع أي منهم بالكاد، تسمية أي معلم، حتى القرى التي تقع خارج منطقتهم، على الرغم من أنه قد كان معي ممثلون من العديد من أقسام هذه البلاد. كان طقس اليوم بارداً بشكل مرض، برغم أن إجهادنا كان عنيفاً. كانت الظهيرة ذات سحب في معظم الوقت مع حركة نسيم لطيف، لقد تراكم السحاب عند الغروب ولم يكن هنالك أمل لي في ملاحظة النجوم. لقد كنت سعيداً بالذهاب إلى النوم مباشرة بعد العشاء الذي لم يقدَّم لنا الآن عند الساعة الحادية عشرة مساءً، وذلك لعدم وصول الماعز حتى وقت متأخر.

تقع قرية المعينة الصغيرة على مسافة (٣٠٠) ياردة من معسكرنا وتمتد حقولها ذات المساطب إلى ارتفاع (٢٠٠) قدم إلى جانب التل إلى موقع فم صدع عظيم

ينحدر إلى أسفل الجلمود عند قمة سلسلة عارف. لقد تم حصاد الدخن وبدت المساطب عارية إلا مما تبقى عليها من جذوع، وكانت تتخللها مزارع صغيرة للبن هنا وهناك، كما كانت هنالك الكثير من المساحات من أشجار التين، وكلها عارية من الورق. يتصل كل من صدع حلاحل الذي ينحدر من عند معينة، ومسيل صومال، الذي نزلنا عن طريقه عند قشعة، إلى جانب مصارف أخرى ثانوية، بالقرب من القرية الصغيرة، لتعبر إلى الخارج عبر حواجز التل ناحية ضمد في ممر ضيق صخري شديد الانحدار، وتقف فوق رأسه أطلال السودة في شكل منظري. ترتفع المعينة إلى (٤٥٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر. وكان الطقس دافئاً في الوادي أثناء الليل ولا يوجد ندى. كما شاهدت بعض القرود في الصباح على سفح نتوء عارف، ولم يكن عددها كبيراً في هذه المناطق المأهولة جزئياً.

كان علينا أن نعيد تتبع خطواتنا، التي قادت إلى نزولنا من عمود قشعة الحدودي، وذلك لمواصلة مسحنا المتقطع للحدود. أعلن الشيخ يحيى إصراره على البقاء مع المجموعة من الفرقة التي ستتخلف على مستوى ارتفاع أقل، ولم أر مبرراً في الشجار معه حول هذا الأمر. ثم بدأنا التسلق عند الساعة الثامنة صباحاً ومعنا ما يكفي من مؤن للطريق داخل سلة يحملها أحد رجال حتروش، وكانت الساعة العاشرة صباحاً، وقد سال منا العرق بعد تسلُّق صعب، حين وصلنا إلى نقطة البداية لأعمال اليوم، وتوقفنا مدة ساعة نستطلع المنطقة. ثم تداخلت السحب كثيراً مع الرؤيا ناحية الجنوب وناحية الغرب، غير أنني كنت قد تحصلت في المساء السابق على اتجاهات كل من العر وعياش وجلحاء في الاتجاهين الجنوبي والغربي، وكان جلحاء هو الأقرب إلينا من بين الثلاثة وينقسم إلى كتلتين رئيستين، فالتي على اليمين أرض سعودية وتمتلكها قبيلة آل زيدان من آل يحيى،

بينما الأخرى تحتلها قبيلة خولي اليـمنية، التي تنتمي لاتحاد فرود (ربما كان متطابقاً مع نصيفه ابن خولان).

كان مـوقع ممر نيد جنازة واضحـاً ناحية الشمـال الغربي، بينما يقع العـمود الحدودي في أشقة ناحية الجنوب الشرقي، ويحمل هذا العمود الأخير رقم (٥١)، غير أننا حينما وصلناه عند الساعة الحادية عشرة كانت السحب قد تجمعت بكثافة، وغاب عن أنظارنا العـالم كله، عدا المواقع القليلة القريبـة للسلسلة التي تحدد خط الحدود ولكن بلا أعـمدة. ولقد تم تعليم هذه المواقع لأجل الملاءمـة حين الرجوع إليها بالإشـارة إليها برقم (٥١) (أ- ب - جـ - د - هـ) كما يمكن تجـاهلها كلها في كل الأغراض العملية ما عدا (٥١ أ)، وهي عـبارة عن مضيق حضر الذي منه ينحدر مسيل حنبة إلى أسفل على الجانب اليمني إلى موقع قرية ثهرات على جانبه الأيسر (وتنتمي الحنبة إلى آل جمعة)، ثم يدور ليتصل بدفا في وقت لاحق. وكان هذا المسيل، وكـذلك كل السفـوح والقمم حوله ومـضيق حضـر، مغطاة بكثـافة بأشجار العرعر والشث والقُمرَّ، التي تدلَّت من أغصانها كتل ضخمة من الأشنات الهوائية تسمى علايين. كمـا يوجد نوع من الصبار يسمى «خدن»[1] بكثرة وينمو من داخل شقوق الصخور. تـلمسنا من هذا الموقع النقاط الأربع الأخرى التي ورد ذكرها، والـتي كان أكثـر ما يلفت الاهتـمام إليـها هو أن مـسيل مسـرب يمر بين الأخيرتين منها إلى أسفل، من ممر يتـصل بعده مع صدع حلاحل، في طريقه إلى المعينة، وهي قرية غير مرئية لنا تماماً وذلك بسبب تراكم السحب. كما نستطيع من حين لآخر التقـاط لمحة لبعض السمـات وذلك من بين طبقات الضبـاب المتحرك،

(١) خدن: والاسم الصحيح هو (خَدَمْ) وهو من أنواع الصـبار، مع أن اسم (كراث) هو الاسم المحلي لنبات الصبار. (ابن جريس).

وكان من المستحيل القيام بأي عمل في هذه اللحظة ما عدا تحريك اتجاهات البوصلة من موقع إلى آخر وتقدير المسافات. ويبدو أننا متعلقون إلى البعيد في السماء من فوق العالم داخل غطاء من السحب.

لقد كنا نتلمس طريقنا من خلال الضباب وعبر الغابة التي تتقطر بالمياه، وذلك مدة نصف ساعة حتى وصلنا إلى جرف رأس سويد الذي يعلوه كوم حجارة حدودي قبلي قديم، والذي رفضت قبوله لجنة الحدود كمعلم حدودي عالمي. وربما لم يكونوا مدركين لوجوده، وعلى أي حال، فقد أصدروا توجيهاتهم إلى مبعوثيهم البدو لبناء كومة حجارة في هذا الموقع. وكانت النتيجة نصباً تذكارياً تعيساً من حجارة ومخلفات، كان نصفه قد اجترفته المياه إلى داخل الهوة الفاغرة الفم على عمق (١٠٠٠) قدم إلى أسفل الجرف، الذي وقف في شموخ على ارتفاع (٧٣٠٠) قدم فوق سطح البحر و(٦٠٠) قدم أعلى من أشقة. لقد كونت النقاط العديدة المعترضة التي لمسناها وتراً ضحلاً حول رأس الحلقة التي كانت سفوحها الصعبة والشديدة الانحدار مغطاة بكثافة بغابات العرعر التي امتدت فوق السلسلة الحدودية وهبطت أيضاً من ناحية سفحها الجنوبي إلى الحنبة. لم تكن هنالك، بالطبع، طرق فوق السلسلة، إلاَّ ما كان بعرض الممشى الضيق، فهو يقود من الشمال إلى الجنوب عن طريق المضايق والمسايل، ولكي نعبر الغابة كان علينا بالفعل أن نشق طريقنا شقاً إلى الأمام. ويضيف الضباب المبتل الاسكتلندي الكثير لهذا الاجهاد الشاق إلى جانب أنه ضار في أغراض المسح. وقد تمكنا من التقاط لمحات من حين لآخر ناحية الشمال والشمال الشرقي من خلال فجوات في الضباب. لقد أحاط من حولنا الخط الطويل لجرف مرع وَحَدَّ من مجال الرؤيا، من جبال مدحرجة، الموجة منها تلو الموجة، وسلاسل عالية مكسوة بالغابات.

توقفنا مدة ساعة عند عمود الحدود رقم ٥٢ على الرغم من الهجوم المغيظ لمستعمرة من النمل الحقيقي، يبدو أنها كانت غير راغبة في تطفلنا على خلوتها، وذلك على أمل ضئيل أن يتحسن الطقس. لقد كان سلوك زملائي أفضل مما كان عليه في اليوم السابق، ربما يعود هذا للمؤن الكافية التي أعددناها لأجل غداء النزهة. ولا أعتقد أنهم قد استمتعوا بالضباب مثلما فعلت أنا، ولكنهم على الأقل لم يتذمروا من الحرارة. واصلت السلسلة ارتفاعها في لطف إلى حيث العمود التالي نيد كرب (ينطق شرب، ولعلها تعني شرب أو سرب) عند رأس نتوء حاد يسقط إلى مسيل الثويري، الذي ينحدر فوق السفوح السفلى الصخرية كثيفة الأشجار للسلسلة، ماراً بقرية آل يحيى التي تسمى عثيمة وتقف على رأس عرن من الصخر. كان هذا العمود الحدودي رقم (٥٣) الذي يرتفع حوالي (١٠٠) قدم فوق ارتفاع جبل سويد محاطاً بغابة كبيرة من أشجار العتم مع نمو تحتي كثيف لنبات الثار الذي تواصل فوق قمة وجوانب السلسلة التي ما زالت تصعد إلى جرف قلة شيبان وهي معلم حدودي غير مسجل رقم (٥٣) أ يقع عند ارتفاع (٧٦٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر. وتقع قرية العصيمة ناحية الغرب من هذا الموقع، بناءً على ما قاله مرشداي، واللذان قد أشارا أيضاً عبر القناع الكثيف للسحب إلى ناحية الشمال الغربي إلى موقع معسكرنا الأخير في المعينة. لقد كان إحساسي الخاص بالاتجاهات مشوهاً، بلاد بلا علامات أرضية، واعتماداً على مرشدي، فقد رأيت أنه من الأفضل أن اطلب منهما التصويب بالإشارة إلى ناحية الجسم المطلوب بالبندقية، وأن أقف من وراء أكتافهم ومعي البوصلة لتحديد ذلك الاتجاه.

كان لديَّ الانطباع طيلة النهار بأننا كنا نتجه غرباً، بينما في الحقيقة فإن الاتجاه العام لمسيرتنا من قشعة وإلى الأمام كان ناحية الجنوب الشرقي، ويكون كل

من وادي حنبة والسلسلة فيما يليه (داخل وادي دفا على الجانب البعيد) على جانبنا الأيسر. ثم يتجه مسارنا، مصحوباً بارتفاع ضئيل، ناحية الجنوب الشرقي، مارين بربوة بلا اسم ولا علامة (٥٣ ب) إلى حيث العمود الحدودي التالي فوق الجرف واسمه قلة نبشة رقم (٥٤)، عند ارتفاع (٧٧٠٠) قدم. نحن الآن على ارتفاع يفوق أي ارتفاع آخر، وصله أيّ عمود حدودي آخر، فوق قسم الهضبة من الحدود ما عدا كل من صبحطل (٧٨٠٠ قدم) ورأس شعب القوم (٧٧٠٠ قدم). وتجري الحدود من وعوع إلى علب عند ارتفاع يزيد عن (٧٠٠٠) قدم وقد صار خط الحدود الآن من مضيق حضر (٥١ أ) إلى الأمام على الارتفاع نفسه (٧٠٠٠) قدم، ويعلو إلى (٧٧٠٠) قدم في موقعنا هذا وكذلك عند العمود الحدودي التالي رقم (٥٥) واسمه معقر، وكانت هذه هي أعلى النقاط لهذا القسم من الحدود المرتفعة. وكلما ارتفعنا إلى أعلى، ازداد الضباب، وكانت كل شجرة في نبشة وكل جنبة تتدلى من أفرعها الأشنات ويقطر منها الماء. كانت الحشائش التي تنمو على أرضية الموقع بنيِّة اللون وجافة كأنما قد عانت من الجفاف. وقد كانوا يجمعون الأشنات المتدلية ليصنعوا منها فرشاة لكنس أرضية المطاحن.

يرتد اتجاه الخط الحدودي من نبشة إلى الخلف، في اتجاه الجنوب الشرقي إلى ناحية الشمال الشرقي، ليصل إلى العمود الحدودي المسمى المعقر، وهو كوم بائس من حجارة سائبة ملمومة مع بعضها البعض لتؤدي وظيفة المعلم الحدودي. ولم نر القرود في كل هذه الأراضي ذات الغابات، غير أن مخلفاتها كانت منتشرة فوق السطح ولا بد أن تكون متوافرة في أعداد ضخمة. لم يكن هنالك غياب لثمار العليق البري وغيره من الثمار التوتية التي تتغذى بها القرود. لقد تجاذبنا أثناء سيرنا الحديث حول حرب اليمن، والتي أدى فيها حتروش وغيره دوراً مشبوهاً. ولقد

ساعدوا بالتأكيد وآووا عبدالوهاب ومتمردوه من الإدريسيين. ولقد أخبرني كذلك بأن القوات اليمنية قد تغلغلت إلى كل هذه المنطقة، وعبرت ضمد لتحتل جبال بني مالك وفيفاء نفسها.

لقد وصلوا إلى سوق عيبان واحتلوه لأيام قليلة، ولم يمكثوا لأكثر من شهرين، في المناطق التي تقع إلى الشمال من ضمد. كما وقع معظم القتال الفعلي بين عصابات عبدالوهاب وقوة حملة حمد الشويعر على سفوح وغابات سلسلة هذه الحدود، كما أدمن معظم بني مالك والقبائل المجاورة استعمال ضرب من بدائل التبغ يمضغونه باستمرار، ويسمى هذا الضرب من التبغ (بردقان)[١] ويحتوي على أوراق برتقال مجففة، مستوردة بكميات كبيرة من أسواق اليمن، والتي تتلقاها بدورها من مصادر أجنبية، معبأة في بالات مسطحة، تسحق الأوراق إلى مسحوق يشبه النشوق وتضاف إليه مادة تسمى دقدقة، غالباً مستخلصة من الليمون، ثم يحمل الخليط في صرة من قماش أو جلد والذي يستمرون في مضغه، ثم يبصقونه في كتل حمراء، تخلف علامات واضحة على الأرض والصخور ويبدو أن المادة منبهة في لطف[٢].

يدور شريط الحدود من معقر ناحية الجنوب الشرقي ليتجه إلى العمود الحدودي التالي واسمه نيد نشمة رقم (٥٦) عن طريق مضيق متعارض غير معلم يسمى شروه (٥٥أ). ثم ينحدر سفح السلسلة، على يسارنا ونحن نتقدم في هذا الاتجاه، عبر غابات كثيفة إلى الجزء الأعلى لوادي حنبة، الذي كانت فيه ثلاث

(١) بردقان: ــ هو اللفظ المحلي الذي يستخدمه أهالي جازان، مع أن هذه المادة مستخلصة من قشر البرتقال المجفف. (ابن جريس).

(٢) هذا النشوق، أو الدقدقة لا زال كثير من اليمانية يستخدمها إلى اليوم، ونجدها متوفرة في الأسواق اليمنية وكذلك السعودية القريبة من الحدود بين الدولتين. (ابن جريس).

قرى هي مقـره، وذات قسمين هما: حلقوم وخوارج بهـذا الترتيب في اتجاه أعلى الوادي، ويقطنها كلها جماعة الحنابة بني حنبة من (بني جماعة).

كما تجـري على الجانب البعـيد من هذا الوادي سلسلة عقيـبة الطويلة، ذات القمم المغطاة بالغابات، والتي تكون حلقة مع كتلة تليه تسمى شعثمي، وتقع بينها وبين سلسلة كتفة، التي تقع أمامنا، على شكل دائرة حول رأس الوادي. ثم هبطنا من المعقـر لعمق (٥٠٠) قدم إلى مضـيق شروه الذي عنده ينحدر نتـوء حاد إلى عـمق (٢٠٠٠) قدم إلى مـسـيل شروه وقـرية آل يحـيى في أسـعر عند ارتفـاع (٤٥٠٠) قدم فـوق سطح البحـر أو (٢٧٠٠) قدم أسـفل المضيق، وبالـقرب من التقائه مع شعيب اللحاج عند سفوح كتفة. ثم ينساب المجرى المشترك الآن عبر ممر صخري لطيف للسلسلة الخارجية، أسفل المـرتفعات العليا لقرية الوجلة، ومنها إلى ضمـد. لقد بدأ الطقس يصفو، كـما اقتربت منـاشط يومنا من نهايتها. والسـاعة تشير إلى الرابعـة والنصف، وأمكننا رؤية فيفاء أسفل قلنسوة سـميكة من السحب ناحيـة غرب الجنوب الغربي. كمـا أمكننا كذلك رؤية قمم الجلحـاء وعياش فيـما يليها، وتقع قـرية نيد قحيف الصغيـرة في انطواء لعياش بينما التقطنا لمحـات عبر وادي ضمـد لبعض قـرى الجرف، بما في ذلـك الرقبة وريـدان العزة فوق الـعرن الطويل الذي يجري إلى أسفل من ذلك الجانب إلى حافة ضمد، والذي يقع واديه المملوء بكميات وافرة من مياه الغيل، المتلألئة في ضوء الشمس المتقطع مكشوفاً لنا ولأول مرة هذا اليوم، ويجري مسيل نشمة على الجانب الأيسر للمضيق إلى أسفل ليتصل مع وادي حنبة عند حلقوم.

يقع عمـود نشمة الحـدودي قليلاً ناحيـة الجنوب الشرقي من مـوقعنا ويكمل الوتر للسلسلة التي بدأت من المعقر، ثم هبطنا إلى حيث مـوقعه من مضيق شروه

لنجد أنفسنا عند بداية سلسلة كتفة، التي ترتفع إلى ممر تكسوه الغابات عند نهايتها البعيدة والتي لا يقل ارتفاعها عن (٨٠٠٠) قدم وقد كانت معلماً بارزاً في المنظر الطبيعي الريفي. لم يكن علينا زيارتها كخط حدودي في الوقت الحاضر وهي تمتد على مسافة من عمود النشمة إلى موقع خالٍ من العلامة (٥٦أ) عند ارتفاع حوالي (٧٠٠٠) قدم، ثم ينحدر على حافة نتوء حاد كالسكين إلى قرية اللحاج المزدوجة التي تقع ناحية الجنوب من موقعنا، وقليلاً أعلى أسعر، لقد كانت أسعر هي هدفنا المباشر كما أمكننا رؤية زملائنا وهم يعسكرون من حولها. لقد قررنا أن نتخذ الطريق المباشر إلى المعسكر وقد كادت الشمس أن تغرب، إلى أسفل السلسلة وأن نترك فحص بقية أعمدة الحدود ليوم الغد. كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساء، وكان الظلام دامساً على الرغم من البدر الكامل الذي حجبته السحب، ثم لحقنا بزملائنا في المعسكر على طريق منحدر هبطنا خلاله إلى (٢٥٠٠) قدم.

كانت قرية أسعر تحتل موقعاً جميلاً في محيط تشغله الغابات قليلاً أعلى الجانب الأيسر للمجرى، وأسفل موقع التقاء مسيل كل من شروه وللحاج. ويقف مسجدها بارزاً بلونه الأبيض بين العشش الكئيبة التي تكوَّن المستوطنة، وقد انتشرت حقولها المسطبية التي تم حصادها إلى أعلى وإلى أسفل منها وعلى جانبي المجرى وقد حفتها أشجار التين وغيرها من الغطاء النباتي. لقد كانت هذه البلاد ملائمة لحياة الطيور. وكانت طيور السوَّادية وافرة، وكذلك أسراب طيور الغداف طويل الذيل، وقد رأيت أثناء النهار عدداً من صقور جريفون.

لقد أمضى فرج وقت الظهيرة، بعد وصوله مع العفش، في الصيد بالبندقية، وقد اصطاد غنيمة ثمينة، كانت عبارة عن أنثى لنوع أخضر من طيور الوقواق. كان هذا النوع من الطيور بالطبع جديداً بالنسبة لي، ولم نتمكن من الحصول على

أي عينة أخرى منه خلال بقيـة الرحلة. ولا تملك إناث هذا الطائر العرف الأخضر الجميل للطيور المـذكرة، بل لها منه أثر ملون. واعتقد العلمـاء، حينما تم فحص الطائر بواسطة الخبـراء في المتحف البريطاني في وقت لاحق، مـقارناً بأنواع مماثلة من الحبـشة وغـيرها، بأنه نوع جـديد للعلم، ولكن بعد بحـث مضن في أدراج المتحف اكتشف السيد جي. ل. بتز (G.L.Bates) عينة مطابقة لعينتي، وحينما قام بفـحص الرقعة الملصقـة على العينة اكتـشف أنها -وكانت هي أيضـاً أنثي- قد تم جمعـها قبل ثلاثين عاماً من اليـمن، بواسطة السيد وايمان بري (Wyman Bury). لقد تم فحص ووصف هاتين العينتين بواسطة السيد بتز بوصفه نوع جديد وأسماه: لقد تعرف حتروش على الطائر عندما رآه وذكـر أن اسمه المحلي هو ورقة كما قام فرج بإدخـال ثلاث من طيور السمنة الصـخري وبعض الطيور النساجـة وكانت لا تزال في ريشها الشتوي.

لقـد وجدنا عـبدالله بن شـرقة طريح الـفراش بالحـمى، حينمـا وصلنا إلى المعسكر، وقـد ذهب إلى فراشه بمجرد وصـوله إلى هناك على الرغم من أنه أعلن أنه سيكون مـعافى في الصبـاح لمواصلة المسيرة إلى مـوقع معسكرنا التـالي. لقد حـدث خطأ في نظام ترتيـب المطبخ وقـد قام ابـن هذيل الذي كـان لديه الوقت الكافي لإعداد العشاء، بطبخ الماعز بأسلوب بدائي وبطريقة لا تدفع الشهية لأكله. كمـا تداخلت الشوشرات الكهربائيـة، لزيادة متاعـبي مع استقبـال الراديو، بينما حجبـت السحب الكثيفـة السماء، واستـحالت الملاحظات الخاصة بالنجـوم. لقد كانت هذه نهاية سيئة ليوم كان لطيفاً بما فيه الكفاية وحافلاً بالاهتمامات.

وكانت المسـيرة إلى أسفـل من عرن سلسلة النشمـة طويلة ومرهقـة فوق ممر صعب يـنحدر في نتوء حـاد يقود إلى أسـفل إلى حيث مـسيل شـروة على يميننا

ومسيل اللحاج على يسارنا. وينحدر مسيل اللحاج عند الجلاميد التي تحيط بالأسنان الشرقية للسلسلة الرئيسة التي تجري شرقاً من نهاية عرن نشمة، إلى جرف راجل المرتفع ثم يدور مرة أخرى باتجاه الجنوب الغربي إلى النتوء الضخم المسنة حيث يبدأ نتوء آخر مكوناً الجانب الأيسر للحاج. وينتهي النتوآن اللذان يتقاربان بالتوالي في هضاب الضحى البارزة (٥٦ب وبلا علامة) ووعر (٥٧ أ وكذلك بلا علامة) وتتقاربان في السلاسل السفلى على مجرى اللحاج، الذي توجد فيه شجرة عتم تقف فوق جزيرة صغيرة من الصخر تسمى أمقدة التي قد اعتمدتها لجنة الحدود كعلامة حدودية رسمية (رقم ٥٧).

ويرتفع هذا الموقع إلى (٥٢٠٠) قدم فوق مستوى سطح البحر ويقع أسفل سلسلة النشمة بعمق (٢٠٠٠) قدم. ويكون هذا الانبعاج الخارجي للحدود فيما وراء الخط الرئيس للسلسلة نتوءًا لمقاطعة حنبة، ويندلق فوق الصخرة ليشتمل على قرية لحج حنبي المرتفعة التي تقف على الجانب الأيمن للحج، كما تقف في واجهتها وعلى الجانب الأيسر قرية اللحاج يحياوي الصغيرة التي تنتمي إلى قبيلة آل يحيى. ويجري مسيل اللحاج أسفل نقطة أمقدة الحدودية داخل أراضٍ سعودية، من خلال ممر يحيط به جلمود رائع وتقع عند نصف الطريق إلى قرية مطه عند موقع تدفق مسيل أمحشرة من مضيق صوفع شرق ممر مسنة، ثم يبدأ المجرى في اعتراض السفوح المسطبية أسفل الممر، التابعة لمزارع أسعر. لقد سلكنا طريق التجارة الذي يصل أسعر عن طريق مضيق نشمة وحلقوم التي تقع إلى أسفل أيضاً مع المناطق الواقعة تحت سلطة الرئاسة اليمنية في مجز، والتي تبعد مسيرة يومين من أسعر. وتنقل مسيرة يوم واحد كما يقولون، المرء من مجز إلى صعدة. كانت الليلة في مجز بلا ندى وكانت دافئة.

واصلنا برامجنا بعد أن تحسنت صحة الأمير، وبدأت مجموعة المسح السير عند الساعة التاسعة صباحاً، متتبعين طريق الهبوط الذي سلكناه أمس حتى أمقدة، حيث توقفنا لالتقاط الأنفاس بجوار بركة صخرية تقع تحت حاجزها الذي يبلغ عرضه خمسين ياردة عبر المجرى. كان هنالك حجر واحد، موضوع عند موقع تفرع ساق شجرة العتم، وهو السند الوحيد للاستشهاد بأنها ذات أهمية خاصة كنقطة حدودية. سلكنا الآن النتوء الحاد الذي يقع على الجانب الأيسر لمسيل اللحاج إلى هضبة وعر (٥٧أ) ومروراً بعلامة حدودية بدوية قديمة (بين آل يحيى والحنبة) التي تقع على هضبة ضاري ضاحي (تاحي) وهي في خط واحد مع ممر مسنة (٥٧ب) الذي كنا قد وصلناه عند الظهر.

كان ارتفاعنا هنا حوالي (٦٩٠٠) قدم، ولسبب ما لم يكن من الضروري تعليم الموقع بعمود. كانت السلسلة هنا مغطاة بالحشائش الطويلة وكانت كلها جافة، مع وجود جنبات قليلة. كان كل من العمودين الحدوديين التاليين وهما صوفع (رقم ٥٨) وفرثية (أمفرثية) (رقم ٥٩) مشاهدين لنا عبر الهوة العميقة لمسيل أمحشرة، الذي طفنا من قبل حول وتر صخرته، بجوار مضيق (رقم ٥٧جـ) عند رأس الأسنان الصخرية لنصل إليها. كان الطقس هنا -بالمناسبة- لا يزال لطيفاً وصافياً، وقد تمكنا من التقاط منظر ممتاز من مسنة، متضمنا القمتين البركانيتين لعكوة إلى البعيد في سهل تهامة مروراً بالكتف الأيمن لفيفاء. كنا نستطيع كذلك رؤية العلامات الحدودية من خلفنا، لكل من المعقر ونبشة، ونستطيع رؤية قرى تلال الجلحاء إلى الأمام منا.

هبطنا بمقدار (٣٠٠) قدم من عند مسينة إلى رأس مسيل يسمى سواد وهو أحد روافد اللحاج، ثم صعدنا من هناك مرة أخرى على حافة الجلمود الذي كان

ينساب من صخوره الماء، على ارتفاع (٧٢٠٠) قدم. استمرَّ صعودنا إلى مضيق أمحشرة على ارتفاع (٧٦٠٠) قدم فوق سطح البحر حيث استدرنا حول المنحنى تجاه العمود الحدودي المسمى نجد صوفع والذي كان على ارتفاع (٨٠٠٠) قدم فوق سطح البحر. لقد بدأ الضباب الكثيف يتجمع -لسوء الحظ- ويطوقنا، وقد وجدنا أنه من الصعوبة بمكان أن نشق طريقنا فوق هذه السفوح الشديدة الانحدار والخطرة جداً، عبر غابات العتم والعرعر. لقد كان كل من هاتين الشجرتين مثمراً الآن، ويقال إنهما الغذاء المفضل للقرود المحلية، والتي على أي حال لم نرها بعد إلاَّ أننا كنا نسمع تردد صياحها مع الصدى ومن خلال صدى السحب. وكان طائر الحجل متوافراً هنا، كما قد كنت قد لاحظت في مسنة صقراً يطارد سرباً كبيراً من حمام داكن اللون، ولربما كان الحمام الحبشي، علماً بأنني لم أتمكن من الحصول على عينة منه للتعريف العلمي.

لا يزال وادي حنبة يمتد على يسارنا وهو هنا يقترب من موقع رأسه، حيث يمتد مسيل عمقيه الذي ينحدر من على بعد ميلين من نيد صوفع في سفوح كتفة الشمالية الكثيفة الأشجار، ليتصل مع مسيل القويد المنحدر من سلسة عقيبة. ومن هذه النقطة تقع قرية القويد الصغيرة في الزاوية التي يكونها الجانب الأيسر للمسيل مع الجانب الأيمن لعمقية، ويطلق على المجرى اسم وادي الحنبة على اسم آل جماعة الذي تنتمي إليه كل قرى هذه السفوح، بما في ذلك أمقربة وقليلة التي تقع قليلاً أسفل موقع الالتقاء، وكذلك أمهللة، قليلاً إلى أسفل على الجانب الأيمن للمجرى، يجري وادي حنبة داخل دفا فيما يلي جبال القهر عند منحناه العظيم. وكان جزء كبير من غابة العرعر التي تمتد من عند خط سيرنا من نجد صوفع إلى العمود الحدودي التالي في أمفرثية شرقاً وإلى الجنوب الشرقي فوق السلسلة التي

تغلق رأس حنبة، كان عبارة عن حطام أسود لجذوع غير مورقة وأغصان وذلك بسبب الحريق العظيم الذي عم الغابة قبل سنوات. لقد كان هنالك الكثير من الغطاء النباتي الجديد النامي في الموقع، غير أن العرعر كان ميتاً تماماً، جذوع ضخمة وأغصان عارية متآكلة. ويقع عمود أمفرثية الحدودي على مسافة (٥٠٠) ياردة جنوباً (قليلاً ناحية الغرب) من نجد صوفع، وقد تحقق لنا أنه التالي في العلو والارتفاع في كل الحدود إذ بلغ ارتفاعه (٨١٠٠) قدم. ويبدو أن مضيق أمحشرة يكوّن الخط الفاصل بين سلسلة العريف الحدودية وسلسلة كتفة الأصلية.

تكون السلسلة، من فرثة، النتوء الجنوبي الذي ينتهي عند كتف صخرة عظيمة تسمى مروح[١]، تغطس أسفل جلمود شديدة الانحدار إلى حيث مسيل صمعة الذي يقع رأسه عند قمة التسنن التالي للسلسلة عند ممر نيد أم رزم الذي تم تعليمه بواسطة العمود الحدودي التالي (رقم ٦٠). ويقع هذا العمود على مسافة تقل عن الميل الواحد من أمفرثية ناحية الجنوب الشرقي، ولكي نصل إليه كان علينا أن نهبط بمقدار (٤٠٠) قدم، ونحن نشق طريقنا فوق النمو التحتي الكثيف لأرضية الغابات وعبر الضباب الكثيف. لقد اختبر هذا التوافق في توارد المواقع رباطة جأش حتروش إلى حد الانفجار. لقد لعن حتروش بصوت مرتفع هذه الأرض واعترض عليه حسن حسين، دليلنا اليحياوي وخبير الحدود، وأسقط اللعنة عن البلاد وألحقها بالضباب وردَّ عليه حتروش ألاَّ يكرر قول ذلك الكلام. ويعد من السلوك المنافي للمعتقدات في الجزيرة العربية أن يلعن المرء الماء أو المطر بأي شكل، إذ إنها شريان الحياة للبلاد[٢].

---

(١) مروح ربما يطلق عليها أيضاً (قلة أمروة). (ابن جريس).

(٢) نعم لا يجوز شرعاً لعن الماء أو المطر، أو أي شيء من مخلوقات الله عز وجل، وقد نهى الرسول عن ذلك. (ابن جريس).

يرتفع مضيق نيد أم رزم إلى (٧٨٠٠) قدم فوق سطح البحر ويقع عند رأس طريق يقود إلى أعلى، إلى قرية خرمة التي تقع أسفلنا عن طريق مسيل صمعة ويتجه إلى قرى حنبة ومنها إلى مجز، وينحدر شعيب خرمة نفسه من فوق جرف وجلاميد قلة أمذيور وهو البروز التالي للسلسلة الرئيسة، بينما يمتد مسيل آخر اسمه صمعة فيما يلي خرمة إلى أسفل، عند الانطباق الذي تكون بالجرف الرهيب لكل من مقعد كتفة وجلحاء التلي، ثم تلتقي هذه المجاري الثلاثة في ملتقى يقع إلى البعيد أسفل قمة السلسلة، ومن هناك يمتد الوادي على انحدار سهل ماراً بقرية خرمة على جانبها الأيمن، ومنها إلى الجرف العظيم الذي يسمى موفار والذي فيما يليه يدخل إلى ضمد. ويقع الجزء الشمالي من كل من صمعة والخرمة داخل الأراضي السعودية من الحدود، غير أن جنوب صمعة يقع في أرض يمنية ويجري خط الأعمدة الحدودية إلى أسفل نتوء منحدر يفصل بين صمعة والخرمة حتى موقع الالتقاء الثلاثي.

يقود هذا النتوء إلى بقعة فوق سلسلة كتفة إلى مسافة فيما يلي موقعنا الحالي على مضيق نيد أم رزم، كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً حينما فرغت من أعمالي هنا، وقررنا أن ذلك يكفي لهذا اليوم. ولم نكن نأمل الوصول إلى المعسكر قبل حلول الظلام. كما لم يطلع القمر هذه الليلة ليلقي بضوئه وذلك لانخفاض السحب. ثم أسرعنا، على هذا الأساس للعودة بأن نسلك الجزء الأكثر انحداراً من المسيل الأعلى، ولم يكن ذلك سهلاً، لنصل قبل غروب الشمس. لقد كان كل شي بعد ذلك عبارة عن محنة مع الظلام المطبق، إذ كنا نصارع الطريق، فنكون حيناً في بطنه وحينا فوق سفوحه الخطرة وحيناً آخر على الجانبين. لقد تضاعفت الغابات الكثيفة مع الظلام الدامس، وأصبحنا نسير بلا هدى إلى الأمام.

ويقودنا الطريق عند موقع الالتقاء الثلاثي للمسايل إلى قرية السودة الصغيرة التي تقع على رأس سلسلة بين مجرى كل من صمعة والخرمة. لقد كان الظلام شديداً للدرجة التي كنا بالكاد نستطيع رؤية الأكواخ التي تتألف منها القرية، غير أننا قمنا بتحية من قابلنا من السكان ثم استرحنا لفترة داخل فناء مسور بالأعواد، بينما انهمك الأهالي في إشعال الأعواد ليوصلونا إلى موقع المعسكر، ثم بدأت مسيرة حملة المشاعل - منظر متوهج تمنى المرء رؤيته في كل مكان - وسرنا معهم ربما مسافة ميل واحد فوق الممر الصخري الذي كان هو كل ما يمكن رؤيته. مررنا بعنزة قد وضعت مولودها في منتصف هذا الممر، وقد قام علي بن فرحان بالتقاطه وإحضاره معنا، معلقاً بأنه يشفق عليه من أن تأكله ذئاب الغابة. وقد تبعت العنزة الأم موكبنا كأنها مقدرة شاكرة ومعتادة على مثل هذا الاهتمام.

لقد اكتشف علي، عند وصولنا إلى السودة أن قدمه تؤلمه وطلب المكوث هنا لقضاء الليلة. وكنت اعترض على مثل هذا القرار مما جعله يرضخ ويواصل السير. لقد ذهب هو ومعه حتروش تحت غطاء الظلام، بمجرد أن وصلنا إلى المعسكر، إلى قرية الخرمة، لقضاء ليلتهما مع أقاربهم دون أن يمكثوا حتى لتناول العشاء معنا. كما لجأ إلى القرية كذلك كل من يحيى وشريف، برغم أن مسيرتهم في صحبة العفش كانت مريحة وقصيرة، ولم يعودا إلا في صباح اليوم التالي. لقد كانوا مجموعة بقلوب العصافير يتحاشون التعب وعدم الراحة كتحاشيهم للسم الزعاف. وقد شكا كلهم بالفعل من برودة المرتفعات، على الرغم من أنني لم أحسّ بتلك البرودة ما عدا فترة قصيرة؛ وذلك قبل وصولنا إلى السودة، وحينما أضاف هطول المطر إلى مصاعب السير في الظلام، كما أمطرت السماء مرة أخرى ونحن في المعسكر ولكن لم يدم ذلك طويلاً.

لاحظت للأسف أن الأمير قد عاودته الحمى بمجرد وصولنا، وقد رفض تناول العشاء ومع ذلك فقد أصرَّ على بقائه معنا في المعسكر، وهو موشح بالبطاطين تحت وقاية أشجار التين التي تسور الموقع. ثم أعلنت لهم، باعتبار كل هذه الأحداث، وتقديراً للجهد الكبير الذي بذله كل من كان قد رافقني في أعمالي في هذه المرتفعات، أن يوم الغد سيكون عطلة عامة لاسترداد العافية. كان هذا اليوم هو اليوم قبل الأخير لعام ١٩٣٦م، وهو العام الذي برهن على أنه أكثر أعوام استكشافاتي نجاحاً وأكثرها أهمية في الجزيرة العربية، وقد كنت أيضاً أحتاج لبعض الراحة. لقد تجوَّلت أثناء يوم العطلة هذا ومعي بندقيتي والبوصلة لمراجعة أخيرة حديثة للنتائج. وقد كان هنالك الكثير من الطيور، ليس من بينها ما يثير الاهتمام غير طائر الشادي الأصفر الذي كنا نعرفه من قبل في اليمن فقط. وتحصلت كذلك على طائر السمنة وعلى طائر الجشنة الشائع. وكان أكثر الطيور انتشاراً في هذه المناطق هي طيور السوَّادية والغداف إلاَّ أنني لم ألاحظ طائري: الحجل الذي كنت أتوقعه في هذه الجبال.

يقع معسكرنا عند منتصف الطريق بين القرية وفم ممر موفار، وهو مجرى صخري يمتد بين جلاميد عالية وبه قلعة قديمة مدمرة، ربما كانت مخفراً متقدماً للإدريسي، واقفة على جانبه الأيمن وكانت تعرف باسم فثة، ولم أتمكن من الحصول على معلومات عن تاريخها. وكانت قريتا السودة والخرمة، وهما بالتأكيد وبالاعتراف يقعان داخل أراضٍ سعودية، إلاَّ أن سكانهما كانوا من بلاد حنبة والمعروف عنهم أنهم مواطنون يمنيون. ويقوم العنصران السعودي واليمني، بزراعة الحقول، كما هو الحال أيضاً في وادي صمعة إلى أعلى وعلى سفوح كتفة حيث الزراعة المشتركة بين كل من حنبة وبني خولي هي الرائجة. لم تكن النسوة في كل

من الخرمة والسودة بالجميلات وكـان يبدو عليهن الإرهاق والتقدم في العمر برغم أن بعضـهن لم تكن طاعنات في السن، لقد كـانت كل هذه المنطقة غنيـة بالأبقار وهي حيـوانات ذات سنام ومتوسطة الحـجم، كما يوجـد أيضاً الكثيـر من الضأن والماعز، وكان لون الضأن أبيض أو أرقط وكان لون الماعز بنياً أو أحمر.

ثم انتهت عطلة اليوم واستيقظ الجميع مبكراً وتبدو عليهم روح نشطة، وذلك لبـداية عمل آخـر وأصعب يتـعلق بمسـوحات الحـدود، والتي بدأت عند الساعـة السابعة صباحاً لهذا اليوم ولم نعـد منها إلى المعسكر إلاَّ عند الساعة الثامنة مساءً. لم تكن هنالك حاجـة للعودة للعمود الحدودي نيـد أم رزم، وذلك لأنني كنت قد تمكنت عنده من رؤية وتثـبيت الموقع التـالي على قلة أمـذيور. ويقع طريقنا، بناءً على هذا أولاً على وادي خرمة الذي ظهر الآن في ضوء النهار ويسهل السير عليه مقارنة بمعاناتنا فوق طريق صمعة. وتقع قريـة حنبة التابعة إلى قرية أمتويلقة (أيضاً داخل أراضٍ سعودية وقـريبة جداً من خط الحدود) في مواجهـة السودة على نتوء تويلقة على بعد (١٠٠) قدم منذ مغادرتنا للمعسكر، بينما وصلنا بعد نصف ساعة أخرى ترافـقها زيادة للانحـدار إلى البرك الصخـرية التي تسمى جـو أمعين وتقع داخل خليج ضـيق صـخري في الـوادي على ارتفاع (٦٥٠٠) قـدم فـوق سطح البحر. ثم صعدنا إلى (٤٠٠) قدم، خارج الوادي، على سفح منحدر على جانبه الأيسـر، حينمـا أدركـتنا الشـمس من وراء الكتف الأيسـر لقلة أمرقـاق[1] على السلسلة الرئيسة. كان الطقس بارداً، برغم حركة سيرنا العنيفة، داخل هذا الوادي المظلل، وتوقفنا مدة عشر دقائق للتدفئة قليلاً، ثم وصلنا بعد عشرين دقيقة لاحقة

(١) أمرقـاق: هو الاسم الصحيح لهـذا المكان ويطلق عليه (قلة أمـرقاق)، أما فـيلبي فقـد ذكره باسم (قلة الدقاق)، وهذا غير صحيح. (ابن جريس).

إلى السلسلة الرئيسة، حيث كتف بارز في قوة ناحية الغرب من قلة أمذيور وعمودها الحدودي (رقم ٦١) عند ارتفاع (٠٠ ٧٣) قدم.

كان الجزء الأخير من الصعود، من الموقع الذي افترقنا فيه عن المسيل، صعباً يمتد فوق ممر أقل ما يوصف به أنه ممشى للماعز. وكان مع ذلك طريقاً سريعاً، ووجدنا عند قمة الصخرة قرية الضيور الصغيرة التي كانت في يوم ما محطة استراحة في الطريق إلى المركز الإداري اليمني الذي يسمى قتبة. لقد استرحنا هنا مدة نستمتع بالمنظر الخالي من السحب، ونتناول طعام إفطار بسيط ولكنه كان وافراً مكوناً من الشاي والخبز المحلي، كان هذا هو يوم سوق قتبة، سوق الخميس، غير أنني لا استطيع القول إنه كانت هنالك حركة كثيرة فيه على هذا الفرع من الطريق، والذي يتصل مع الطريق الرئيس في وادي خرمة، فيما يلي مضيق نيد أم رخم وهي رأس المسيل، بينما ينحدر رافد يسمى قراً من بين كل من قلة أمرقاق وثاهرة (أمرزم) الكتفة ليتصل مع جانبه الأيسر عند منتصف الطريق إلى نتوء خرمة.

لقد أصبحت قتبة الآن أكثر قليلاً من مجرد سوق، وقد كانت مكاناً ذا أهمية في تاريخ العصور الوسطى لليمن. كما ورد في مؤلفات عمارة وغيره من الكتاب العرب المهتمين بالعصور القديمة[١]. إلى جانب ذلك فهي مركز إداري ثانوي، يقال إنه يمكن الوصول إليها من خرمة خلال مسيرة يوم واحد، ومنها إلى صعدة خلال يومين. يتبادل الطريق موقعه فوق قمم السلسلة من حافتها الشرقية وحافتها الغربية، إلاّ أنه يقع بشكل أساسي في فجوة بين سلسلتي شعثمي[٢] وعقيبة ثم

(١) لمزيد من التوضيحات انظر كتاب: نجم الدين عمارة اليمني. **تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها** (صنعاء: المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، د.ت) ص ٢٠٦ وما بعدها. (ابن جريس).

(٢) شعثمي يلفظها السكان المحليين باسم «شعثمن». (ابن جريس).

يخترق هذا الجانب من المجرى تلك الغابة المحترقة التي ورد ذكرها، والتي يعزى تدميرها إلى إشعال متعمد للنار -أصاب النمو التحتي- بواسطة البدو الذين يرغبون في تحسين مراعيهم دون أي اعتبار للنتائج التي يمكن أن تقع.

لقد اغتنمنا مدة نصف الساعة التي كنا فيها على عارض أمذيور لالتقاط المنظر الواسع، الذي كان قناع السحب يمر من فوقه. ونستطيع رؤية القمم الثلاث، لأول مرة إلى البعيد ناحية الجنوب، لكل من رازح وحرم والنظير، وكلها شامخة كأنها حصون من فوق المرتفعات وتطل على سفوح تلال تهامة وسهلها. كما برزت قمم كل من العُر وعياش، قريباً منها وناحية اليمين من خط توضعها، وتقع تلال الجلحاء بيننا وبينهما وهما بارزتان على زاوية قائمة عند كتف كتفة، بينما امتدت سلسلة بطين إلى البعيد ناحية الشمال من العر وخلف عياش، بما في ذلك قراه العديدة، من بينها العاصمة مسلان، وهي مركز إداري يمني.

كان المنظر بعد ذلك مألوفاً كما كان خلال الأيام القليلة الماضية، غير أن السحاب قد استقرَّ الآن فوق فيفاء. كان معظم المنظر، حينما وصلنا إلى العمود الحدودي - الذي لم يكن سوى مجموعة من ركام حجارة معظمها قد نقلته السيول من موقعه- على قلة أمذيور (رقم ٦١) على ارتفاع (٧٦٥٠) قدماً، قد لفها الضباب الصاعد ما عدا ناحية الغرب والشمال. وقد رأيت بعض الأجسام المنقطعة في الجزء الشمالي لجرف الهضبة ومن خلفها لاحظت قمة مستديرة، والتي أغرتني بأن أعرفها بأنها شثاث بالقرب من ثهران. لم يكن لدينا إلاَّ مواصلة السير، مؤملين تغييراً في الطقس وعليه تتبعنا حافة السلسلة، هابطين حوالي (٢٠٠) قدم إلى مضيق يعلم واحداً من رؤوس وادي خرمة الذي عنده كنت أستطيع رؤية معسكرنا الآن. كان هذا المضيق هو نقطة حدودية بلا عمود، ويمكن

للملائمة أن نرمز إليها بأنها (٦١ أ). ويقع فيما يليها وعلى المستوى نفسه العمود الحدودي رقم (٦٢) الذي يسمى نيد أمرخم، وهو نتوء ليس بذي مغزى، ويعلم رأساً آخر لمسيل خرمة والذي عن طريقه يدخل طريق قتبة الرئيس. كان الموقعان الأخيران متقاربين من بعضهما، بينما من عند الثانية منهما وعبر صعود طويل خلال غابات كثيفة وصلنا، في مدى نصف الساعة، إلى عمود حدودي فوق أرض تسمى قلة أمرقاق على ارتفاع (٧٩٠٠) قدم (رقم ٦٣).

لقد أحاط بنا الضباب تماماً ولا نكاد نرى ما مداه خمسون ياردة في كل الاتجاهات. ثم واصلنا سيرنا فوق السلسلة ذات الجوانب الشديدة الانحدار والحافات التي في حدة السكين، فوق ألواح شستية موضوعة طولياً في زوايا قائمة، دون وجود حتى طائر واحد يكسر من ملل هذه الأرض المرتفعة المغلَّفة بالضباب. ثم خرجنا في هذا الجزء من طريق قتبة الذي استدار إلى البعيد من الأرض الصعبة ليتبع حافة وادي حنبة، غير أننا سرعان ما عدنا إليه ونحن نقترب من العمود الحدودي (رقم ٦٤) المسمى رزمة الكتفة (أو ثهرات الكتفة). كان هذا بالتأكيد هو آخر عمود حدودي فوق الأراضي المرتفعة، وكان أيضاً أعلى عمود في كل المنطقة الحدودية، إذ يبلغ ارتفاعه (٨١٥٠) قدماً. كان من المناسب لنا أيضاً أن نتوج آخر أيام العام المحتضر بإنجاز يصوره وصولنا إلى القمة الحقيقية للحدود. لقد برز الظهر العريض لكتفة من هذا الموقع وناحية الجنوب من أمامنا وحتى قمته على النهاية البعيدة التي كنت قد قدرتها على ارتفاع (٨٥٠٠) قدم فوق سطح البحر وكانت تقع كلها، وهي مغطاة بأشجار العرعر الكثيفة، وتندلق على السفوح إلى مجرى كل من حنبة وصمعة، داخل أراض يمنية، وتمتد الحدود بين الدولتين أسفل النتوء الحاد الشديد الانحدار الذي يفصل بين مجرى كل من الخرمة وصمعة.

كان ما يطلق عليه اسم العمود الحدودي ذا مغزى شكلي بنسبة معاكسة لأهمية الموقع كنقطة تحول للشريط، ويتكون العمود -حقيقة- من قطع صغيرة لايتجاوز عددها الثلاث من الكوارتز ترتب مع بعضها فوق مربع طبيعي من شست قاعدي.

لم يكن في مقدورنا العثور عليه لولا أن حسن حسين، كان أحد المندوبين - فقد كان الآخر راعياً يتبع قبيلة بنو خُولي، ويمثل المندوبين اليمنيين المسؤولين عن وضعها في مكانها هذا. وقد أوضح حسين، وبإحساس من الظلم، أن كلاً من علي بن فرحان وشخص يدعى سعيداً من قبيلة الزرانيق -وكان ضابطاً في الجيش اليمني- واللذين كان عليهما على الأقل زيارة الموقع الحدودي ممثلين لحكومتهما، للتأكد من أن كل عمود حدودي قد تم وضعه تماماً وفي دقة في موقعه، إلا أنهما فضلا شرب القهوة في المعسكر في الخرمة، وأرسلا بدلاً عنهما مبوعثيهما البدويين اللذين قاما بصعود التل وقمته لتحديد الخط. فلا غرابة إذاً في أنهما كانا يتعجلان الانتهاء من هذه المهمة ليسرعا في العودة تحاشياً لهذه الارتفاعات العدائية. كان عمود كتفة الحدودي أيضاً موقع لقاء ثلاثي بين كل من آل يحيى من الجانب السعودي، وكل من حنبة وبني خولي من الجانب اليمني.

كان الضباب قد حجب كل المنظر، كما هبَّ نسيم لطيف بارد دافعاً الرطوبة في وجوهنا ونحن جلوس هناك. لم يكن هنالك ما يمكن رؤيته غير ثلاث قطع من حجر الكوارتز وشجرة عرعر تبرز من حين لآخر كالشبح عبر الضباب، لم تكن لنا حاجة بالمكوث أكثر من ذلك في هذا الموقع. كانت الساعة (١,٣٠) ظهراً عندما بدأنا الهبوط أسفل السفح الشديد الانحدار والكثيف الأشجار متجهين نحو بداية نتوء خرمة الحاد، وقد كان هذا أصعب جزء من التسلق اجتزناه خلال كل

هذه الرحلة. لقد كان الضباب يضرب وجوهنا كأنه رذاذ المطر، وكنا لا نستطيع رؤية شيء غير الأرض من تحت أقدامنا وغير جنبة أو اثنتين كانتا بالقرب منا. لقد كان من الصعب علينا حتى أن نرى بعضنا، وكان هنالك الكثير من الصياح لبعضنا مع بعض دون أن نرى أشخاصنا، وكنا نتلمس طريقنا فوق صخور لزجة وعشب مبتل وكنا نواجه من حين لآخر بنتوء شديد الانحدار، ونعود متسلقين إلى الخلف مرة أخرى للبحث عن طريق بديل يقود إلى أسفل. وقد استغرق هبوطنا تحت هذه الظروف إلى عمق (٤٠٠) قدم حوالي (١,٥) ساعة، إلى حيث يوجد رف أو عرن للصخرة يحمل مجموعة الحجارة الكورتزية الحقيرة التي أشار إليها حسن حسين بابتهاج بأنها العمود الحدودي الذي يسمى رزمة سيلام (رقم ٦٥).

يعزي الوصول إلى هذا العمود إلى حسن حسين تحت كل هذه الظروف، إذ إنه ملم بخصائص بلاده بصورة جيدة. لقد كنا على ارتفاع (٧٧٥٠) قدماً فوق سطح البحر ولم ننته بعد من الجبال، ذلك لأننا كنا على مشارف هاوية عميقة تكون رأس بشران وهو مسيل يتصل مع جنوب صمعة قليلاً أعلى من موقع التقاء بشران مع خرمة. وكان علينا الآن أن نتحسس طريقنا أسفل الجانب الشديد الانحدار لهذا المسيل، وكثيراً ما وجدنا أن السير صار أصعب بكثير مما سبق، وذلك بتكرار ظهور النتوآت الحادة التي كانت تملي علينا تحويل المسار والاتجاه. كما لا يزال الضباب يطوقنا في شراسة، ولكن بفضل المثابرة والقيادة الجيدة لحسن حسين فقد قطعنا مسافة الـ (٣٥٠) قدماً الأخيرة إلى العمود الحدودي واسمه نيد المخطف (رقم ٦٦)، عند ارتفاع (٧٤٠٠) قدم، كان العمود عبارة عن مجموعة من كومة من حجارة بائسة، إلاَّ أنها كانت قائمة بما يشبه الكومة المبنية[1].

(١) للمزيد عن هذه الحدود، انظر: عبدالله القباع. **العلاقات السعودية اليمنية**، ص ٤١٠ . (ابن جريس).

كان اتجاهنا العام هو ناحية الغرب منذ أن كنا في رزمة كتفة وقد استمر بنا المسير عليه على امتداد الطريق إلى الخلف، وأصبحت أسوأ مواقع الهبوط من خلفنا الآن، على الرغم من أن مسيرتنا لا تزال صعبة فوق النتوء الحاد كالسكين الصخري، الذي يفصل بين مسيلي كل من قرآ وبشران. ثم وصلنا عند ارتفاع (٧٢٠٠) قدم على هذا النتوء إلى العمود الحدودي المسمى حرف أمشينه (رقم ٦٧) في وسط غابات كثيفة غطت العرن. ثم بدأنا نلتقط لمحات من العلامات الأرضية المختلفة من فوق من أسفل غطاء من السحب، وواصلنا مسيرتنا في يسر أكثر عبر أرض أشجار غير جذابة، وكنا نهبط باستمرار حتى وصلنا بعد مسيرة ساعة من آخر عمود حدودي إلى العمود الحدودي الذي يسمى نجد فاسح (رقم ٦٨) على ارتفاع نقص (٩٠٠) قدم ووصل إلى (٦٣٠٠) قدم. بدأ لنا هذا العمود وكأنه كان ذات يوم بناءً، إلاَّ أن قطع الصخر الكبيرة التي كان قد شيد منها قد انتشرت على الأرض. ويقود طريق الماعز من هنا إلى أسفل في يسر إلى حيث العلامة الحدودية التالية بجوار الحدبة الشامخة التي تسمى قلة أمسحامي (رقم ٦٩) عند ارتفاع (٦٠٥٠) قدماً، وواصلنا على المستوى نفسه إلى الأمام حيث كومة حجارة قبلية قديمة، وهي نقطة على الحدود لا يعترف بها كعلامة رسمية رقم (٦٩ أ). لقد كانت نصباً تذكارياً أحسن حالاً من كومة الحجارة الرسمية غير المرئية، وقد وقفت في بروز في الإطار العام[١].

كانت الساعة الآن السابعة مساءً وقد انتشر الظلام. ثم توجهنا مباشرة ناحية المعسكر. تاركين ما تبقى من هذه الجبهة الحدودية إلى الغد. لقد أرسلنا صيحات

(١) للمزيد عن هذه الحدود المذكورة هنا انظر، القباع، المرجع السابق، ص ٤٠٩ ــ ٤١٠، محمد آل زلفه، **عسير في عهد الملك عبدالعزيز**، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ . (ابن جريس).

إلى رفاقنا في المعسكر لإرسال مصباح، بعد أن عبرنا عقبات على امتداد الصخور، وجلسنا في انتظار وصول المصباح نراقب تقدمه الصعب والمطمئن إلى أعلى التل حيث كنا. كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءً حينما وصلنا إلى المعسكر بمساعدة المصباح وكنت سعيداً حينما علمت بأن العشاء كان جاهزاً. لقد استغرق العمل -مع توقفات عند النقاط المختلفة- ست ساعات ونصف الساعة لنصعد ارتفاع (٣٠٠٠) قدم وقد كانت هذه هي أسوأ تجاربي في الجبال العربية[١]. لقد شكا حسن حسين دليلنا الجذاب الكفء، بالمناسبة، من إرهاصات الحمى، وذلك حينما وصلنا إلى العمود الحدودي في كتفة وقد قام بإشعال النار لتدفئة جسمه في وسط هذا الضباب الرطب، ثم جاهد بعد ذلك بشجاعة على امتداد ذلك السفح المخيف، وكان يقودنا في دقة ممتازة من عمود حدودي إلى الآخر، حتى وصلنا إلى كومة حجارة البدويين عند أمسحامي وقرر حينها التوقف نهاية لعمل اليوم. وكنت لا أدري إن كان إحساسه بالحمى ذلك يعزى للبرودة الفجائية أثناء الليل، أم مجرد الإحساس بالراحة بعد الجهد، غير أنه إنهار في اللحظة والتو، كان يلتوي في ألم وكان غير قادر على الحركة.

صرفنا ناحية قرية مجاورة لعلها تويلقة لأجل المساعدة، وتركنا أحد الرجال من حاشية حتروش ليقوم بالحراسة عنده حتى تصلنا المساعدة، بينما واصلنا نحن

---

(١) فيلبي له رحلات كثيرة في الجزيرة العربية، وقوله: إن رحلته في بلاد فيفاء وما حولها من «أسوأ تجاربي في الجبال العربية»، ربما يعود إلى بعض الأسباب منها:ـ

أ ـ صعوبة أرض فيفاء، فالصعود إليها والنزول صعب جداً، وهذا مما جعل فيلبي يعاني من السير في هذه البلاد.

ب ـ انغلاق أهل فيفاء وما حولها على أنفسهم، ربما كانت سبباً آخراً حتى جعلت فيلبي يجد صعوبة شديدة في التعامل مع سكان تلك البلاد. (ابن جريس).

مسيـرتنا. لقد كنت منزعجاً جـداً حينما لم يصل حسن إلى المعـسكر، إلاَّ أنه قد تبين لنا أنه تم نقله إلى القرية، التي كانت أقرب كثـيراً إليه من معسكرنا، وقد نام بها وذهبت الحمى عنه وظهر بعد ذلك في الصباح وهو في أحسن صحة.

لقد كنا نعمل مـدة ثلاث عشرة ساعة هذا اليوم، وأحسُّ الآن بالتـعب. كما أنني لم التـزم برغبتي في الجلوس حـول الراديو للاستـماع لإذاعـة القدس، وهي تنقل مراسيم احـتفالات رأس السنة. لقد كان اسـتقبال الراديو ضعـيفاً، على أي حال، خـلال المساء، ولذا قررت أن أجلـس إلى منتصف الليل بالتـوقيت المحلي الذي كان متقدماً على توقيت فلسطين سـاعة كاملة، وخرجت ومعي حسن صباح اليوم التالي لتكـملة الجزء غير المكتمل من الحـدود حتى هذا الموقع. لم يكن هذا الجزء ذا أهمية كبيرة ويمكن أن نغطيه في وقت قـصير. لقد استرجعنا خطواتنا إلى حيث الموقع الذي انتهينا عنده في المساء، عند كومة حجارة البدويين في أمسحامي التي بالقرب منها دهشت لوجود بقايا لقرية قديمة مهجورة على الطريق الذي يؤدي إلى نجـد فـاسح وما يليـه، وكـان العـمود الحـدودي التـالي (رقم ٧٠) ويسـمى المجدار[١] العليا يـقع على مسافـة (٣٥٠) قدمـاً إلى أسفل السفح ناحـية مـسيل صمعة، وقد كان -لدهشتي- نصباً تذكارياً مهيباً.

كمـا واصلت مجمـوعة من القرود المتـشاجرة، داخل الغـابات ومن حولنا، صياحها بإلحاح، غيـر أنني استطعت رؤية واحد أو اثنين منها هنا وهناك. لقد كان حولها مـا يكفي من الضباب في المستـويات العليا التي كانت تقـوم بزيارتها مراراً

(١) جدار العليـا، هكذا ذكرها فيلبي مع أن الصـحيح هو (جبل المجدار)، وهذا الحـد يقع بين آل يحيى من بني مالك (فيفاء) السعودية، وبين آل جلحاء من بني خولي (اليمن)، انظر: القباع، المرجع السابق، ص ٤١٠ . (ابن جريس).

وتكراراً، وقد نزلت الآن للبحث عن الطعام بالرغم من قربها للعديد من القرى الصغيرة. كان العمود الحدودي التالي (رقم ٧١) هو المجدار الأسفل. عند ارتفاع (٥٣٠٠) قدم وهو كومة من حجارة فوق صخرة ارتفاعها (٢٠٠) قدم تطل على موقع التقاء مجريي كل من بشران وصمعة.

ثم يستمر الشريط من هنا على امتداد الجانب الأيمن للمسيل المشترك (صمعة) على ارتفاع (١٠٠) قدم فوق بطنه إلى حيث العمود الحدودي (رقم ٧٢) واسمه نيد أمغطيط عند ارتفاع (٥٢٠٠) قدم[1]، أسفل قرية خولي الكبيرة التابعة للوح الشرقي على ارتفاع (٥٠٠) قدم على جانب جبل الجلحاء، الذي يكون الجانب الأيسر لصمعة وجانب ممر موفار ويستمر بعد التقائه مع وادي خرمة. لقد جاء إلى هنا بعض الزوار من قرية صمعة الصغيرة، أعلى الوادي، بما فيهم شرطي بزيه الرسمي يتبع للإدارة اليمنية، وذلك لمعرفة ماذا كنا نفعل في الحدود، لقد كانوا ودودين جداً ولربما كانت زيارتهم فقط بدافع الفضول.

استمرَّ خط الحدود على امتداد الجانب الأيمن لصمعة، إلى موقع التقائه مع الخرمة حوالي (٢٠٠) ياردة إلى أسفل (٧٢ جـ)، وهكذا إلى أسفل أكثر لمجرى متحد لمسافة (٣٠٠) يارد حيث توجد صخرة كبيرة في وسط الوادي وقليلاً فوق مدخل ممر موفار على ارتفاع (٤٨٠٠) قدم. وكانت هذه هي نقطة الحدود الفعلية، ولكن، بما أن الصخرة قد تطغى عليها مياه السيول، فقد تم وضع العمود الحدودي لرزمة التفة (رقم ٧٣) على الجانب الأيسر وتم وضع كومة حجارة

(١) نجد غتيت، هكذا ذكر فيلبي اسم هذا الحد مع أن الاسم الصحيح هو (ساقية أمغطيط)، وهو من الحدود بين آل يحيى (السعودية)، وآل جلحاء من بني خولي (اليمن). (ابن جريس).

صغيـرة أخرى على الجانب الأيمن لتحديد الخط الصـحيح. كانت الصخرة نفـسها هي الالتـقاء الثـلاثي القبلي بين خـولي على الجانب اليـمني، وكل من يحـيوي وزيداني على الجانب السعودي. كانت جدران الممر نفسه من جرانيت وردي اللون تتخلله عروق سوداء من شست كالألواح، وتترابط قليلاً إلى أسفل الحدود بحاجز طبيعي من الصخر بانحدار ثلاثين قدماً. لم يكن هنالك ماء يعبر من فوقه في هذا الوقت، غير أنه كـانت توجد برك في بطن المجرى عند قدمـه والتي منها يسحب القرويون المحليـون الماء. يطلق عليها اسم أم خـرق وعلى أحد جانبي الحـاجز تم وضع ممسك خشبي ليساعد على الوصول إليها.

يصعد خط الحدود من هذا الموقع إلى أعـلى جانب الجلحاء في اتجاه الجنوب الغربي ناحية ممر نيد أم خرمة، الذي يفصل بين أرض خولي وأرض زيداني. وقد كان بالفعل صعوداً صعباً فوق السفح الشديد الانحدار إلى أول الأعمدة الحدودية، الذي كان عبـارة عن قطع صغيرة من صخـر تم وضعها في فـجوة بين جلمودين ضخـمين من جرانيت رمـادي، يطلق على هذا الموقع رزمـة أمخالـفة (رقم ٧٤) وترتفع إلى (٥٠٠) قدم فـوق الوادي وإلى (٥٣٠٠) قدم فوق سطح البـحر. ثم وصلنا بعد تسلُّق حـاد آخر على السفح إلى العمـود الحدودي (رقم ٧٥) خزانات الهيجة على حافة شلال بلا ماء يسقط من نتوء صخري بارتفاع (٥٠) قدماً.

وكان ارتفاعنا هنا حوالي (٥٧٠٠) قدم فوق سطح البحر، ثم واصلنا التسلق لارتفاع (٣٠٠) قدم أخرى إلى كومة حجارة صغيرة أخرى (رقم ٧٦) تسمى أضرا السيال، تقع على طريق جـيد جداً بين قرى خولي على يسارنا ومـستوطنة زيداني الكبيرة الـتابعة لشهدان، ثم واصلنـا الصعود أكثر فـوق طريق أسهل بعض الشيء

لنصل إلى الموقع الرئيس لنيد أم خرمة، وهو ممر يسيطر على المدخل إلى منطقة السفوح التلية ووادي ضمد من مرتفعات بني مالك، ويقف العمود الحدودي بجانب الطريق على ارتفاع (٦٣٠٠) قدم فوق سطح البحر، تحت ظل كتف مهيب لصخرة ضخمة تقع على جانبه الأيسر. وكانت هذه الصخرة هي موقع العمود الحدودي (رقم ٧٧) والتي تهيئ نهاية مناسبة لهذا الفصل[١]. وسترد قصة الحدود داخل التلال السفحية في الفصل التالي.

(١) كان من مهام فيلبي في هذه الرحلة هو رسم الحدود بين اليمن والسعودية، وقد شاهدناه فعل ذلك في الصفحات السابقة، وبخاصة في الأجزاء الجبلية، أما الصفحات التالية فسوف يكمل الحدود في الأجزاء التهامية والساحلية. (ابن جريس).